

# الْوَاهْب

عبد الوهاب عزام





# الأوابد

تأليف  
عبد الوهاب عزام



الأوابد

عبد الوهاب عزام

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

بورك هاوس، شبيت سرتريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تلفون: + ٤٤ ( ٠ ) ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: وفاء سعيد

التقديم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٠٠٣ ٢

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٠.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: تَسْبُبُ المُصَنَّفِ، الإصدار ٤٠. جميع حقوق النشر الخاصة بـ نسخ العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

# المحتويات

٩	مقدمة الطبعة الأولى
١١	مقدمة الطبعة الثانية
١٣	مناجاة
١٧	إلى الرسول الكريم
٢١	أربع صفحات متتابعات
٢٧	الهجرة مولد تاريخ
٣١	رسول الله في عرفات
٣٥	في مجلس رسول الله
٣٧	على ذكرى المولد النبوى
٤١	ذكرى الهجرة
٤٥	الإسلام
٤٩	لا غالب إلا الله!
٥٣	بلال يؤذن
٥٧	الكعبة
٥٩	الحج
٦٣	يوم عرفات
٦٧	من مؤتة إلى اليرموك
٧١	أيام العروبة تبدأ في سوريا!
٧٥	مكانة العرب بين الأمم
٨١	وديعة مدينة سالم

٨٥	لا تحزن!
٨٧	في معرك الخطوب
٩١	التأليف والنشر في مصر
٩٥	زواج أمير عربي من أميرة هندية
١٠١	على حافة الفجر وشاطئ النيل
١٠٥	وديعة ميافارقين
١٠٩	على قبر الزهاوي
١١١	أوراق
١١٥	عبرة الحادثات
١١٩	لمعات
١٢٧	السوقية في الأدب
١٣١	المنصور بن أبي عامر
١٣٧	محيي الدين النووي والسلطان بيبرس
١٤١	الفريكان المتحاربان في فلسطين
١٤٧	ضربات معول
١٥٣	عمر المختار وأصحابه
١٥٧	على بحيرة وندرمير
١٥٩	الشاعر المتفائل المتشائم
١٦٣	عمر في بيت المقدس
١٦٧	ورد الصباح
١٦٩	إبرة المغناطيس
١٧١	بني قومنا
١٧٥	موقع عين جالوت
١٧٩	ثورة على الأخلاق
١٨٧	سورية
١٩١	مصطفى الصادق الرافعي
١٩٥	مصر والبلاد العربية
١٩٩	من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

٢٠٣	عقبة على شاطئ المحيط
٢٠٧	وحي القلم
٢١١	المثنى بن حارثة
٢١٥	ملكة الجمال
٢١٩	المعتصم بن صِمادح على فراش الموت
٢٢٢	عثمان بن أبي العلاء
٢٢٧	مدينة زانفة
٢٢٩	الشعر والشاعر
٢٣٢	لِمَ لا تقول الشعر؟
٢٣٧	أوراق مالية في القرن السابع الهجري
٢٣٩	قبر مفقود
٢٤٣	جلال الدين منكربتي
٢٤٧	إسكندر يقتل صديقه
٢٥١	الغريق
٢٥٢	مدرسة الصحراء
٢٥٥	على شاطئ النيل
٢٥٩	ملك وفيلسوف
٢٦١	النهاية
٢٦٥	الإخوان
٢٦٧	سعید بن جبیر
٢٦٩	رفائيل
٢٧٢	الربيع
٢٧٧	رثاء ضرس
٢٧٩	الوطن
٢٨٣	بين التصوف والغزل
٢٨٥	يا رب رحماك
٢٨٩	رب أعتقني
٢٩١	الحياة

الأوابد

٢٩٣

٢٩٥

يا ليل  
حلم في يقظة

## مقدمة الطبعة الأولى

هذه الكلمات أنشأتها في أوقات متباعدة، ومواطن مختلفة، وأحوال شتى، ولكنها كانت كلها وحي العقيدة، واستجابة الوجдан، لم يشبها — بنعمة الله — تكُلُّف ولا تزيد ولا رباء.

وقد وفَّرت حظها من النزعات الروحية العالية التي تسمو بالإنسان لأهواء التي تتقسمه، والمطامع التي تستعبده، ومن المقاصد الجليلة التي تجمع النفس على خطة من الخير والحق، وتؤلف الناس كلهم على شرعة من الإنصاف والعدل.

وما أحوجنا في عصر سيطرت فيه الآلات والشهوات إلى تحرير النفوس من سلطانها. ويجد القارئ إلى جانب المقاصد الإنسانية الشاملة، نزعات إسلامية، وأخرى عربية، فلا يحسن هذا تناقضًا في الرأي واضطربًا في الوجدان، إنما هي صور من الجمال والحق والخير ومكارم الأخلاق، تتجلّى في الخلقة كلها أحياناً، وتمثل في تاريخ الإسلام وما أثر العرب أحياناً، ولن ينقص الحق أن تَحدُّ زمانه من تاريخ الإنسان، أو مكانه في مواطن البشر، كما لا ينقص النهر الذي يفيض على أقطار شاسعة بالري والخصب أن تبين منبعه، ولا يحد الضياء الذي يغمر العالم أن تعين مصدره.

وقد سميت «الأوابد» لحسبياني هذه الأفانين من الكتابة غريبة في موضوعها وأسلوبها؛ ولأنها لبشت حقبة مهملة شتيبة في أوراقي، فكانت في هذين الوصفين كالأوابد من الحيوان التي تعزُّب عن البشر، وتنفر من الحضر، وتعيش متأنبة في الفيافي. ولا أزعم أنها من أوابد الكلم، وهي التي لا تشاكل جودة، كما يقول الزمخشري.

الأوابد

وبعد، فلا أقول شيئاً في طرائق هذه المقالات ومزاياها، ولكن أدع للقارئ رأيه حرّاً،  
وحسبي أنها بيان صادق عن عقلي وقلبي، وأنني أردت بها الحق والخير، وابتغى وجهه  
الله، وهو حسبي وكفى.

جمادى الآخرة سنة ١٣٦١ هـ

تموز سنة ١٩٤٢

## مقدمة الطبعة الثانية

الله نستعين، ومنه نستمد نور العقل، وصواب الفكر، وطهارة القلب، ونسأله الهدى إلى العلم، والتسديد إلى الحق، والتوفيق للخير.

أما بعد، فهذه «أوابد» من الكلم المنثور، بينها قليل من المنظوم، نشر بعضها قبلًا في كتاب «الأوابد» وبعضها لم ينشر.

وكان ينبغي أن تقدم إلى القراء منذ سنين حين نفدت طبعة الأوابد الأولى، ولكن حالت الأسفار والشاغل، كما حالت دون إشرافي على الطبع، ففات الضبط كلمات وَدِدتُ لوشُكلات، فأغفني القارئ من عناء النظر فيها لضبطها.

وإني لشاكر لإخوان حملوا عنِّي تعب المراجعة، واحتملوا عناء التصحيح، وأخص الأخ الأديب الأستاذ مصطفى السقا.

وقد حالت غيبتي كذلك دون سلك كلمات أخرى في الكتاب، لعلها توضع في الطبعة الآتية مع أمثال تُنشأ من بعد.

ولو استقبلت من طبع الكتاب ما استدبرت لحذفت كلمات ثلاثة لا أجد لها على شرط الأوابد: كلمة قصيرة ارتجلت على قبر الزهاوي شاعر العراق، وهي أقصر من أن تُسلك في الأوابد، والكلمة التي عنوانها «النشر في مصر»، والأخرى التي عنوانها «النهضة»؛ فهما على جودتهما ليستا من جنس الأوابد في موضوعهما.

الأوابد

ومهما يكن فهذه كلمات صادقات أردت بها الحق والخير والصلاح، ولعل القراء يتلقونها بما تلقوا به الطبعة الأولى من قبول وإقبال.  
والله نسأل الإخلاص في الفكر والقول والعمل، وحسبنا الله.

عبد الوهاب عزام

أول ذي الحجة ١٣٦٩ هـ

١٣ سبتمبر / أيلول ١٩٥٠

## مناجاة

رب! سَبَحْتُ لك الخلائق في الأزل، ونطقت بذكرك منذ الخلق الأول، ودارت الأفلاك  
بحمدك، وسطعت الكواكب بنورك، وسار القمران ثناء عليك، وتعاقب الملوان تقديساً  
لك، وهبَّت الرياح بنفحاتك، وتلألاً البرق من سُبحاتك، وسار السحاب بقدرتك، وهطل  
الغيث برحمتك، وتلاطم البحار في جلالك، واطرَّدت الأنهر من نوالك، والجبال راسيات  
بأمرك، مائلات لحكمك، والغابات رائعة بجمالك، مورقة بأفضالك، والرياض سطور  
نظامك الباهر، وإبداعك القادر، والطير ألسنة حمدك وشكرك، ونغمات مزاهرك، وأناشيد  
ماثرك.

أنت لهذا النظم بيت المطلع      وأنت أنت فيه بيت المقطع

والحيوان الأعمم مسَيَّرٌ بإلهامك، شاكر لإنعامك، سائر بهديك، ناطق بذكرك،  
مُسَبِّح بحمدك ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ  
بِحَمْدِهِ﴾.

رب! والإنسان صنعك الرائع، وبرهانك القاطع، روح الخليقة المشوق إليك، وبصرها  
الطامح نحوك. رأى نورك فسار، وبهره جلالك فحار. أنت قصده وإن ضل، وَطَلَبْتَهُ

حيثما حل، يُبَيِّن عنك قاصداً أو مُعْتَسِفاً، وينطق باسمك صحيحاً أو محَرَّقاً، وينشد  
شعرك موزوناً أو مضطرباً، ومعجماً أو معرباً:

وَالْسَّنَةُ الْأَكْوَانُ إِنْ كُنْتَ وَاعِيَا  
شَهُودٌ بِتَوْحِيدِي بِحَالٍ فَصِيقَةٍ  
إِنْ عَبَدُوا غَيْرِي وَإِنْ كَانَ قَصْدَهُمْ  
سَوَايٍ لَمْ يَظْهِرُوا قَصْدَ نِتْيَيٍ<sup>١</sup>

عبدة الأصنام عبدوك من وراء حجاب، وتسلوا إليك بالأسباب، والساجدون للنار  
تهافتو على ضيائرك، وهُرّعوا إلى ثنايك. قدسوك في إحدى آياتك، وعظّموا لك إحدى  
علاماتك، وعُبَادُ الكواكب اهتدوا بالنجوم إليك، فسبّحوا لها وإنما ثناوهم عليك. أنت أنت  
القصد وإن جاروا، وأنت أنت المعبد وإن حاروا. وكهنة طيبة ومنف أشادوا بذلك،  
وجهدوا أن يقدروك حق قدرك، وبابل في زيفها لم تكن إلا باباً لك،<sup>٢</sup> ونبنيو في وثنيتها  
كانت معبدك. أقاموا من أجلك التمثال، ولاح لهم نورك من خلال الأبطال، واليونان  
اللهوا آثارك، وأكثروا أسماءك. وما أثينا وزوس وأبولون إلا رموز حكمتك وقدرتك وعلمنك  
وعظمتك. ألفاظ شتى لمعنى موحد، وصور شتى لجوهر فرد، كلامه نبت منه الحلو والمر،  
والعقيم والمثير، ودل عليه النجم والشجر، والشوك والزهر.

ربّ! وهل رتل البراهمة إلا فرقانك، وطلبو في الكهوف إلا عرفانك؟ وهل انفتحت  
عن بودا زهرة الكنج إلا لذكرك؟<sup>٣</sup> وهل هجر العالم إلا لوجهك؟ وهل أملى كونفشيوس  
إلا تعليمك؟ وهل أراد زرداشت إلا ذكرك؟ وهل ضمن كتاب الأستاق<sup>٤</sup> إلا حمدك؟ يزدانُ  
وأهرِمن رمزاً نورك وظللك،<sup>٥</sup> وهدايتك وإضلالك.

ربّ! موسى إذ لاح له ضياؤك في الغلس، وخلع نعليه في الوادي المقدس، لمع له بصيص  
في الطور فاهتدى، ودعا الناس إلى الهدى. بنورك ضرب بحر الظلمات فانفلق، ثم بهره  
جلالك فصعق. وعيسيٰ أمدته بروحك وبرّك، وأطلعته على نرة من مكنون سرك، ومحمد

<sup>١</sup> ابن الفارض.

<sup>٢</sup> أصل بابل: باب إيل، ومعناه باب الله.

<sup>٣</sup> يزعم البوذيون أن بودا انفتحت عنه زهرة على نهر الكنج فمنها كان مولده.

<sup>٤</sup> كتاب آوستا «أبستاق»: كتاب زرداشت نببي الفرس القدماء.

<sup>٥</sup> يزدان خالق الخير، وأهرمن خالق الشر في دين الفرس القدماء.

## مناجاة

خاتم أنبيائك، وصفي أصفيائك، آنسه ذكرك في الغار، فرأى في الظلمات النهار، فأملى  
دينك وفرقانك، وأوضح مَحْجَتك وبرهانك، وترك على الدهر أثرك الأغر، ودينك الأبر. ربّ!  
ومن وراء ذلك سرك المكنون، وحماك المصون.  
أنقذنا من الحيرة بهديك، واهدنا إلى جنابك برحمتك. اللهم منك وإليك، أنت الأول  
والآخر، والظاهر والباطن.



# إلى الرسول الكريم

في عيد مولده

مضت عشر وأربعينأة وألف سنة منذ ظهر في الجزيرة العربية نجم الصباح بشيراً بطلوع الشمس، منذ طلع الكوكب المبشر بالغيث في الأرض المجدبة، منذ ولدت الأرض منبع النهر الذي فاض على الناس بالخير والبركة ولا يزال فياضاً، منذ سطرت في سجل الأيام بسملة سيرة عظيمة، منذ كتبت على صفحات الزمان فاتحة كتاب دفاته المشرقة والمغاربة، وصفحاته تاريخ البشر في أروع وقائعه، منذ خط الله القدير على أرض الجزيرة عنوان أعظم فضل في تاريخ البشر، منذ ولدت الخليقة قانوناً من قوانينها في صورة طفل، منذ استهل هذا الطفل الفقير في دار من دور قريش بمكة، منذ ولدت آمنة بنت وهب محمد بن عبد الله.

لم تُضرب البشائر مولده، ولا سارت الأنبياء، ولا تطاعت التهاني، ولا اجتمعوا المحافل، ولكن الله - سبحانه - كان يعلم ماذا أخرج من غبيه، وماذا وضع على أرضه. كان الله وحده يعلم أن قد ولد الرجل الذي أعده ليعلي التوحيد ويضع الوثنية، ويعز الحق ويذل الباطل، وينصر الخير ويخلد الشر، ويمحو العبودية ويثبت الحرية، ويزيلزل الجبارين، ويُثبتُّ الضعفاء والمساكين، ويبطل التمييز بين الناس، ويُشيع المساواة بينهم، ويُحرّر الأحساب والأنساب، ويعظم العمل الصالح، ويحطّم العصبيات ويدعو إلى الأخوة العامة.

كان الله وحده يعلم أن قد ولد الرجل الذي يخرج الحق من الصوامع والمعابد إلى معارك الحياة، ويقيم البر بأسنة الملوك وأيديهم بعد أن كان تعلّة الفقراء والمساكين،

ويقف الملوك في صفوف الصلاة بعد أن كانوا في صفوف الآلهة، ويجعل الحياة جهاداً دائياً للحق والخير، ولا يضعف ولا يفتر، ويرى الناس كيف يجتمع الحق والقوّة، ويلتئم الملك والنبوة.

يا رسول الله! أين نحن اليوم من شريعتك؟ وأين مقامنا من دعوتك؟ وأين سيرتنا من سننك؟

علمت المسلم أن يكون خليفة الله في أرضه، يقوم بالعدل بين خلقه، ويقسم الرزق بين عباده، ويهيمن على قانون الله بين الناس أجمعين، يقودهم إلى الحق طوعاً أو كرهاً، ويسيّرهم للخير اختياراً أو اضطراراً.

فأين هو اليوم من هذه الخلافة؟ وأين عقله من هذه السياسة؟ وأين نفسه من هذا السمو؟ وأين قلبه من هذا الطموح؟ وأين عزمه من هذه الهمة؟ وأين يده من هذا السلطان؟

علمت المسلم أن يقوم بالقسط لله، ويجعل العدل بينه وبين الناس، لا يبغى ولا يتحمل البغي، ولا يظلم ولا يستكين للظلم، ولا يبخس الناس أشياءهم، ولا يبخس حق نفسه، ولا يأخذ ما ليس له، ولا يعطي ما ليس لغيره، وتلوت عليهم قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ حَبِّيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

تلك الدعوة الشاملة، والكلمة الجامعة، تلك سعادة الفرد والجماعة، وثبات القانون والنظم، وقيام المعاملة العادلة والألفة العامة. تلك الدعوة إلى أن يسيطر الحق والعدل، وأن يكون الإنسان لله وللناس أجمعين، لا لنفسه ومنفعته وهواد، وأن يعدل الإنسان في الرضا والغضب، والمنشط والمكره، ومع القريب والبعيد، والعدو والصديق؛ لأنَّه ينفذ قانون الله، وليس عند الله قريب ولا بعيد، ولا صديق ولا عدو.

يا رسول الله، لو أن الأمم المتاخرة التي عمرت عقولها، وخررت قلوبها، وقويت أيديها وضعفت سرائرها، وأضاءت ظواهرها وطفئت بواطنها، والتي حدَّت العدل بمنافعها، وسيَّرت الحق طوع رضاها وغضبها، وحبها وكرهها، ونفعها وضرها، لو أن هذه الأمم فقهت آيتها وعملت بها، فقام كل زعيم بقسط الله في أرض الله بين عباد الله يستوي في نصفته القريب والأجنبي، والقارصي والدايني، ويسكن إلى صدقه ونصحه الناس كافة، لا يغش ولا يخدع، ولا يختل ولا يزور، ولا يعتدي ولا يظلم.

لو أن كل زعيم أخذ بالعدل كل فرد من أمته، وأخذ بالعدل نفسه، وجمع الأمة كلها على العدل؛ لعاشت الأمم مجاهدة في الحياة على شريعة من التناصف جامعة، وخطة من العدل مؤلفة، ولتعاونوا على البر بالإنسان وإسعاد الإنسان، لا على التدمير والتخريب، والقتل والأسر، والغصب والنهب، والاحتكام إلى المهالك، والالتجاء إلى القوة، وويل للمغلوب! ألا إن في العدل سعادة الفرد في نفسه، وسعادة الأمة في جماعتها، وسعادة الإنسانية في أممها.

يا رسول الله، عَلِمْتَ المسلمَ أَنْ يَكُونَ حَرَّاً لَا يُخْيِفُهُ جِبْرِيلُ، وَلَا يَأْسِرُهُ مَطْمَعٌ، وَلَا تَمْلِكُهُ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَعْبُدُهُ الشَّهْوَاتُ، يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ قَاتِلًا لَا يَقْهَرُ، وَسَنَةٌ لَا تَتَغَيِّرُ، يَسْتَمْتَعُ بِمَا يُمْتَعُ بِهِ الْحَقُّ، ثُمَّ الْفَتْنَ وَالشَّهْوَاتُ مِنْ بَعْدِ أَهُونَ مِنْ أَنْ تَغْرِيهِ، وَأَحْقَرَ مِنْ أَنْ تَفْتَنَهُ.

فَمَا بِالْمُسْلِمِينَ تَنَازِعُهُمُ الْأَهْوَاءُ فَيَتَذَبَّذُونَ، وَتَتَجَاذِبُهُمُ الشَّهْوَاتُ فَيَتَهَافِتُونَ؟ عَلِمْتَ الْمُسْلِمَ أَنْ يَكُونَ مَالَكًا قَنْوَعًا، مُسِيَطَرًا مَقْتَصِدًا، قَادِرًا عَفِيفًا يَمْلِكُ الدُّنْيَا وَلَا تَمْلِكُهُ، وَيَسْتَعْبُدُهَا وَلَا تَسْتَعْبُدُهَا، وَيَقْدِرُ عَلَيْهَا وَلَا يَهْلِكُ فِيهَا. فَمَا بِالْهُؤُلَاءِ الْمُسْكَلَبِينَ تَمْلِكُهُمُ الْأَمْوَالُ، فَهُمْ عَبِيدُهَا، وَتَفْتَنُهُمُ الْمَنَاصِبُ، فَهُمْ صَرْعَاهَا؟ قَدْ مَلَكَ نُفُوسُهُمْ مِنْ الْحَرْصِ وَالْطَّمَعِ، وَالنَّهُمْ وَالْجَشُّ مَا لَا تَمْلِكُهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَذَلِكُوا مِنْ حِلْيَتِهِمْ أَرَادُوا الْعَزَّ، وَافْتَقَرُوا مِنْ حِلْيَتِهِمْ حَوْلَ الْغَنَى، وَشَقُّوا مِنْ حِلْيَتِهِمْ تَوْهِمُوا السَّعَادَةَ!

يا رسول الله، عَلِمْتَ الْمُسْلِمَ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا لَا يَذُلُّ، وَأَبِيًّا لَا يُخْنَعُ، وَمُوحَدًا لَا يُشَرِّكُ، يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالنَّاسُ مِنْ بَعْدِ سُوَايَةِ لِيْسُ بَعْضُهُمْ أَرْبَابُ بَعْضٍ، فَمَا بِالْهُؤُلَاءِ الْأَذْلَاءِ الْخَانِعِينَ الَّذِينَ يُؤْلَهُونَ كُلَّ قُوَّى، وَيَخْضُعُونَ لِكُلِّ جِبَارٍ؟ عَلِمْتَ الْمُسْلِمَ أَنْ يَكُونَ مَجَاهِدًا لَا يَكِيلُ، دَائِبًا لَا يَمِلُّ، يَمْضِي فِي الْحَيَاةِ قَدَمًا كَالنَّجْمِ لَا يَقْفِي دُونَ الْغَايَا، لَا تَصْدِهُ مَشْقَةٌ وَلَا يَرْدِهُ هُولٌ، لَا يَقْعُدُ بِهِمْتَهُ عَبَءٌ، وَلَا يُؤْهِنُ عَزِيمَتَهُ يَأْسًا، طَمَّاحًا هُمَّاً غَلَبًا مَقْدَامًا.

فَمَا بِالْمُسْلِمِ يَقْعُدُ وَيَحْسُبُ أَنَّهُ يَعْبُدُ، وَيَكِيلُ وَيَظْنُ أَنَّهُ مُتَوَكِّلٌ، وَيَبْيَأُسُ وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَقْنَعُ؟ حَرَّفُوا كَلْمَاتِكَ، وَجَهَلُوا آيَاتِكَ.

يا رسول الله، عَلِمْتَ الْمُسْلِمَ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْخَطُوبِ جَسُورًا، وَفِي النَّوَائِبِ صَبُورًا، كَأَنَّهُ فِي مَعْتَكِ الْحَيَاةِ قَدْرُ لَا يَرْتَدُ، وَقَانُونَ طَبِيعِي لَا يَتَخَلُّ، عَلَى شَفْتِيهِ بِسْمِ الرَّجَاءِ فِي ظَلَامِ الْمَحْنِ، وَفِي وَجْهِهِ طَمَانِيَّةِ الثَّقَةِ فِي عَوَاصِفِ الْفَتْنَ، وَفِي قَلْبِهِ الثَّقَةِ بِاللَّهِ وَالْيَقِينِ

بالظفر، تنكشف عنه الأحداث كما يقشع السحاب عن النجم، وتنجي الغمرة عن الُّدُرَة،  
وينحصر الحمد عن السيف، فما بال المسلم اليوم جزوًا يائسًا، وخائنًا مُيئسًا؟  
يا رسول الله، وقفت في حضرتك ساعة فلا معنى من العلاء والعظمة والحرية  
والحق والخير والبر والفضيلة إلا نزل على قلبي، ولا شيء من الإسفاف والباطل والشر  
والرذيلة إلا طارت عن نفسي! وستبقى سيرتك نبراسًا يعشو إليه الخابط في الظلمات،  
وهديك منارًا يهتدى به الضال في الفلوتوت، وشرعك علمًا ينحاز إليه الأخيار، ودعوتك  
أذانًا يصغي إليه الأبرار، ورسالتك رحمة للناس أجمعين.  
إن انحرف الناس بما اعوجت سنتك، وإن ضلوا بما طمست شريعتك، وإن حاروا  
فما خفيت سيرتك، وسيردهم إلى الطريق هديك، وتهديهم إلى الغاية سيرتك، وترشدهم  
على الأجيال دعوتك.  
ولن يزال مولدك هدىً للناس وذكرى، وموعظة وعبرة، ودعوة لا تحول، ونورًا لا  
يزول.

يا رسول الله! صَلَّى اللهُ عَلَيْكُ.

# أربع صفحات متتابعات

في سيرة رسول الله

١

هذا يوم العشرين من رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة، وقد أخذت مكة صولة الجيش الإسلامي، ودهمها جند التوحيد من أعلاها وأسفلها: خالد بن الوليد، قائد الميمنة، يدخل من الليط أسفل مكة يقود جموعاً من غفار وأسلم ومُزينة وغيرها، والزبير بن العوام، قائد الميسرة، يدخل من كُنْدَى أعلى مكة، وأبو عبيدة بن الجراح، في صف من المسلمين، يدخل من أذخر بين يدي رسول الله.

وقريش وألفافها حائرة، منها من يعد للقتال، ومنها من يدعوا إلى السلم، ومنهم من ترددت به الفجاعة بين القتال والاستسلام، فناوش قليلاً ثم سكن. ورسول الله على راحته مطأطاً رأسه كأنه ساجد على الرّاحل تواضعاً وشكراً، قد غض بصره عن هذا الجيش الكثيف، وهذا الجندي المطيع، وهذه السلطة المحيطة؛ ليفتحه على الحق الذي يدعو إليه، والعدل الذي يقوم به، والسلام الذي يبغيه، والألفة التي يريدها.

هذه هي القرية التي أخرجت الرسول وصحابه قبل ثمانين سنين، القرية التي هاجر منها رسول الله وصاحبه يلوذان بالغار؛ ليختفيا عن الأ بصار، القرية التي أبْتَ على المسلمين الإقامة فيها والخروج منها، القرية التي آذت محمدًا في دينه ونفسه و أصحابه عشر سنين، ثم أتبعته العداوة وال الحرب حيثما كان، وهذه قريش التي سخرت بمحمد

ودينه وأذت أصحابه، وعذبت المستضعفين منهم، وألجانهم أن يهاجروا إلى الحبشة ثم إلى يثرب، ثم حاربتهم في بدر وأحد، وألْبَت عليهم القبائل في غزوة الأحزاب؛ فأحاطت بالمدينة تبغي استئصال المسلمين، ثم ردت المسلمين عن دخول مكة معتمرين عام الحديبية. ليس في هذه البقعة جبل ولا شعب ولا وادٍ، ولا طريق إلا شهد بطش الباطل الكبير بالحق القليل، والشرك العاتي بالتوحيد الناشئ، واستهزاء الجهلة الجفاة بالحكماء البررة، وضوضاء اللغو تطغى على ترتيل القرآن، وأصوات السخرية تحيط بتكبير الصلاة.

والليوم قد أخذت سورة الحق تهاديل للباطل، وزُنِّزل الجبارية لسطوة المستضعفين، وخرت الأصنام بكلمة التوحيد. إنه ليوم جزاء وانتقام وقصاص من يريده، وقد قال سعد بن عبادة وهو يحمل راية من رايات المسلمين داخلاً إلى مكة: «الليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة».

كلا! كلاً! إن محمدًا لا ينتقم لنفسه، ولا يقتضي لأصحابه، ولكنه رسول توحيد، وداعية ألفة وسلم، فقد لقي الجهل بالحلم، والذنب بالعفو، والإساءة بالإحسان، والبغضاء بالملودة.

رسول الله قائم بباب الكعبة يخطب ليعلمُ هذه الجاهلية شرائع الدين ومكارم الأخلاق، ويحطم في نفوسها أصنام الجهل والهوى والمعصية، كما أنزل عن الكعبة هذه الأصنام الذليلة، يقول:

يا معاشر قريش، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمُها بالآباء. الناس  
من آدم، وأ adam خلق من تراب.

ويقول: يا معاشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ فيقولون: خيراً،  
أخ كريم وابن أخي كريم، فيقول: أذهبوا فأنتم الطلقاء.

قبائل هوازن ترتع لفتح مكة، وتخشى أن يمتد إليها سلطان الإسلام، فتخرج بقضها وقضيضها عameda لحرب الرسول، وتجمعت بواري حذين بين مكة والطائف، وتأتي الأنبياء رسول الله فيخرج من مكة بعد دخولها بخمسة عشر يوماً، ويسير المسلمون للقاء العدو قبل أن يحيط بهم. عشرة آلاف أتوا مع الرسول إلى مكة، وألفان من أهل مكة، يسيرون

للقاء هوازن! ها هو ذا وادي حنين تنحط إليه الجيوش في الغَلَس مغترة بكثرتها، معززة بقوتها، والعدو كامن في أحناء الوادي وأحشاء الظلام. يفجأً هذا الحشد العظيم فيضطرب، ويوجِّه بعضه في بعضه، ويأخذ التيار من أراد الهزيمة ومن لم يردها.

وظن الذين لا يعرفون ثبات الإيمان حين يطغى به الكفر، وجُلُّ اليقين حين يحيط به الشك، وعزَّة الحق حين يثور به الباطل، ظن هؤلاء أنها هزيمة طوت فتح مكة وما قبل فتح مكة من جهاد المسلمين، وحسبوها حروباً تأكل حروباً، وغفلوا عما وراء الحروب من عقائد وأخلاق.

رُلِّزلَ المسلمون زلزالاً شديداً، ولكن القطب لم يُلْزَم من مكانه؛ ثبت رسول الله، ونادى العباس أصحاب بيعة الرضوان، فانتَلَوا إليه بين الجموع كما ينساب الماء القليل بين الصخور والرصف.

وخلَّ ثبات الإيمان واليقين والحق من هذا التفرق اجتماعاً، ومن هذا الاضطراب قراراً، ومن هذا الفر كَرَّا؛ فآخرَجَ من الهزيمة نصراً مؤزِّزاً.

لم يَرُّعِ رسول الله هذا الفزع، ولم تأخذه هذه الظواهر المائحة، ولكن ثبات ثبات الإيمان، ورسخ رسوخ الحق. وكان في المأزق الشديد يوم حنين كما كان في الموكب العظيم يوم الفتح، واثقاً بالله، متوكلاً عليه، تجيش النفوس وهو مطمئن، وتموج الجموع وهو ساكن، توقره عظمة لا يهزُّها نصر ولا هزيمة، ويقين لا يغيره أمن ولا فزع، ووقار لا تستفزه رغبة ولا رهبة.

٣

واجتمع المسلمون بالجعرانة — بئر بين الطائف ومكة — ومعهم من سبي هوازن وإبلها وشأنها ألف كثيرة.

وجاء وفد هوازن يسأل الرسول الكريم أن يرد عليهم أولادهم ونساءهم، وقال رجل من بنى سعد، قوم حليمة مرضعة الرسول: «يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك.»

ولو شاء الرسول لجزى هوازن بما صنعوا، وإنهم لأهُل للجزاء، ولكنه لقي جهلهم بحلمه، وجُرمُهم بصفحه، كما فعل بأهل مكة، قال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إننا نستشعُّ برسول الله إلى المسلمين، وبالMuslimين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا.»

فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ لِلصَّلَاةِ جَاءَ الْوَفَدُ فَتَكَلَّمُوا بِمَا عَلِمُوهُ الرَّسُولُ، فَقَالَ: أَمَا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ، وَقَالَ الْمَهَاجِرُونَ: وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَقَالَ الْأَنْصَارُ: وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ. وَأَبْنَى الْأَقْرَعُ بْنَ حَابِسٍ زَعِيمَ تَمِيمٍ، وَعَيْنَتِهِ بْنَ حَصْنِ زَعِيمٍ فَزَارَةً، وَالْعَبَاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ زَعِيمُ سُلَيْمٍ أَنْ يَتَكَوَّا غَنَائِمَهُمْ، فَوَعَدُوهُمُ الرَّسُولُ أَنْ يَعْوِضُهُمْ عَنْهَا حَتَّى رَضُوا، وَرَجَعَتْ هَوَازِنُ بِأَبْنَائِهَا وَنِسَائِهَا.

۳

وقد أقسم الرسول الغنائم على أصحابها، وزاد فأجزل العطية لجماعة من رؤساء العرب: قرشيين وغير قرشيين ليتألف قلوبهم، ولم يعط أحداً من الأنصار، فعجب الأنصار وتكلموا فيما بينهم، وجاء سعد بن عبادة، سيد الخزرج، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت: قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء ...

- فأين أنت من ذلك ما سعد؟

- يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

- فاجمع لي قومك في الحظيرة.

اجتمع الأنصار في الحظيرة وهم عmad هذا الإسلام وجنده، اجتمعوا عاتيين على  
قائدهم العظيم، يرون أنه آثر عليهم جماعة من رؤساء العرب ليس لهم في الإسلام  
سابقة، ولا في نصرته بلاء، فليت شعري ماذا يقول هذا القائد الكريم، وكيف يُرضي  
خُصُّ جنوده العاتيين؟! استمع: يا معاشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وموجدة  
وجدتكم في أنفسكم؟ ألم أتكم ضللاً فهداكـم الله، وعالـة فأعنـاكـم الله، وأعدـاء فأـلفـ الله  
بـين قـلوبـكم؟

- بلى، الله ولرسوله المن والفضل.

- ألا تجيبونني يا معاشر الأنصار؟

- وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ الله ولرسوله المن والفضل.

- أما والله لو شئتم لقلتكم فلاصدقتكم ثم لصدقتم: «أَتَيْنَا مُكَذِّبًا فَصَدَقَنَاكُمْ وَمَخْذُولًا فَنَصَرَنَاكُمْ وَطَرِيدًا فَأَوْيَنَاكُمْ وَعَائِلًا فَأَسْيَنَاكُمْ وَجَدْتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ يَا مَعْشِرَ الْأَنْصَارِ فِي لِعَانَةِ الدِّينِ تَأْلَفُتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَّلْتُمُ إِلَيْهِ إِسْلَامَكُمْ! أَفَلَا تَرْضُونَ يَا مَعْشِر

الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امراً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً؛ لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال الأنصار والدموع تبل لحاهم، وقد غسلت كلمات رسول الله عتبهم، وأيقظت قلوبهم، وزادتهم حباً للرسول وطاعة، وأصابوا فيها ما يحقر كل ما أخذ الناس من مال وما يأخذون، قالوا والدموع تبل لحاهم: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا.



# الهجرة مولد تاريخ

تعمد الأدم إلى حدث جليل من أحداثها يبرز بين خطوبتها، ويثبت على مر الزمان في أنفسها، فتجعله ميقاتاً تبتدئ منه حساب الأيام، وعلمًا تعد من لدنـه الشهور والأعوام، وربما يكون موت أحد كبرائها، أو مصيبة من المصائب التي لا تفصل طوراً عن طور، ولا تميز عصرًا من عصر، ولا تكون حداً بين سيرة وسيرة، ولا بُرزاً بين فساد وصلاح، أو رشد وغى، أو عزة وذل، أو جهالة ومعرفة، ولا ينبوغاً يطرد منه في حياة الأمة نهر، أو ذكرى تفيس منها المواعظ والعبر، أو مبدأ تعطف إليه في الخطوب الذّگر.

وخير ما أرخت به أمة حادث يلد لها تاريخاً، أو يغير لها وجهة، أو يهديها إلى غاية، ويبقى على مرّ الزمان خلاقاً للعظام، مذاداً بالفضائل، فياضاً بالعظات، تنظر إليه الأمة كلما بعد بها المسير لتتمنى أين هي من المكانة التي تُراد لها، وأين سيرها من الطريق المبينة؟ وأين وجهتها من الغاية المرجوة؟

وقد كان إلهاماً ما رأه ثانى الخلفاء الراشدين عمر الملاهم الحدث، حين أشار على المسلمين أن يجعلوا الهجرة مبدأً للتاريخـهم، وميقاتاً لأعمالـهم، فما أعرف حدثاً ولد تاريخاً طويلاً، وخلق عصراً مديداً، واطرد في تاريخ البشر فياضاً بالخير متراجعاً بالحوادث كالهجرة، وما هي إلا سفرة محسوسة قصيرة جعلها الله عنوان أسفار معنوية طويلة في نفوس الأفراد والجماعات والأمم، وما هي إلا نقلة بين بلدين كانت انتقالاً من الوثنية إلى التوحيد، ومن الفوضى إلى النظام، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، ومن الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، من الجاهلية إلى الإسلام.

بالهجرة عزَّ الإسلام وانتصرت دعوته، ونفذت شريعته، وتآلفت الجماعة الإسلامية الأولى؛ الجماعة التي انتشرت فإذا هي أمة تجمع المشرق والمغرب، وجاهدت فإذا هي ملء الزمان عزماً وحزماً، وإقداماً وصبراً، وثباتاً ودبباً، وسيطرت، فإذا دولة تقوم على الأسود

والأبيض بشرعية من الحق الشامل والأخوة الجامعة، ثم استقرت وعملت فإذا الحضارة المؤمنة الرفيعة التي تحطم الحدود الفاصلة، وتحقق العصبيات الباطلة، وتتسوي بين الناس إخوة عاملين متعاونين، كلهم لأدم، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح.

لقد كانت هذه الجماعة الإسلامية القليلة التي أقرتها الهجرة في المدينة كالبذر الطيب يجمعه الزارع الصالح، وينقيه ثم ينشره فيملاً الأرض خصباً وبركة، وكخار البحر يجمعه السحاب ثم يتفرق به في أرجاء الأرض حياة وطهراً وخصباً ونماءً.

فَقَهْ هُؤُلَاءِ الصَّحْبِ الْأَجْلَاءِ عَنْ رَسُولِهِمْ، وَوَعِيَ هُؤُلَاءِ التَّلَمِيذِ الصَّالِحُونَ عَنْ مَعْلَمِهِمْ، ثُمَّ انتشَرُوا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ قَوَادِيْ فَاتِحِينَ، وَوَلَادَةِ رَاشِدِينَ، وَقَضَايَا عَادِلِينَ، وَعُلَمَاءَ هَادِيْنَ، وَعُبَادَاً خَاصِّيْنَ، فَاجْتَمَعَ السَّيفُ وَالْكِتَابُ، وَالْعَرْشُ وَالْمَحْرَابُ، وَالسُّلْطَانُ وَالْعِلْمُ، وَالْقُدْرَةُ وَالْحَلْمُ، وَمَا زَالَ هَذَا الْبَحْرُ يَمْدُ، وَمَا زَالَ هَذَا النُّورُ يَشْعُّ، وَمَا زَالَ هَذَا الْخَيْرُ يَشْعُّ، وَمَا زَالَ هَذَا الْجَهَادُ يَدْأُبُ، حَتَّى شَهَدَ الْعَالَمُ أُولَى مَرَّةً أَمَّةً وَاحِدَةً مُنْتَشِرَةً بَيْنَ الصَّيْنِ وَبِحَرِ الظَّلَمَاتِ، فَنَيَّتِ فِيهَا الْأَجْنَاسُ، وَأَمَّحَتِ الْأَلْوَانُ، وَصَبَغَهَا لَوْنَ وَضَاءً مِنَ الْأُخْوَةِ وَالْمَوْدَةِ، وَتَعَاوَنَتِ فِيهَا الْعُقُولُ عَلَى فَلَسْفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفَقَهُ وَاحِدَ، وَأَدَبُ وَاحِدَ، وَتَضَافَرَتِ الْأَيْدِيْ عَلَى نَسْجِ حَضَارَةٍ وَاحِدَةٍ.

كم في تاريخنا من أعمال تمت إلى الهجرة بسبب! وكم فيه من أبطال يربطها بالهجرة نسب!

محمد بن القاسم الثقفي، ثم محمود الغزنوي، وظهير الدين بابر، كانوا في فتح الهند وإقامة الدول فيه من آثار الهجرة، وقتيبة وأسلفه وخلفاؤه في تركستان سهام رمت بها الهجرة فأبعدت المكان والزمان، وعقبة بن نافع على فرسه على شاطئ بحر الظلمات، وطارق بن زياد في الأندلس، وعبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء، كانوا يطون الأرض والممالك، وينشرون العدل والأخوة مهاجرين على آثار الهجرة النبوية. ثم ما وعي التاريخ من سير فقهاء وعلماء، وكتاب وشعراء، ومتكلمين وفلاسفة وصوفية، وما شاد الزمان من مساجد ومدارس وقصور وقناطر، كل ذلك للهجرة أثر فيه وطابع عليه!

كل ذلك كتاب، الإسلام بيانه، والتاريخ برهانه، والهجرة عنوانه. ولا تزال الهجرة على بعد العهد، وعramaة الزمان، وضراوة الفتنة، وضعف المسلمين وتخاذلهم وحيًا يملأ النفوس أملاً، والقلوب إيماناً، والأيدي قوة، والعزم فتوة، ولا تزال

نوراً في نفس كل مسلم، وحديثاً في ضميره، ودعوة في أذنه، وعزّة في جوانحه، وسؤداً في همته، لا تزال تدوي في الآذان والصدور، كما لا يزال الأذان الأول يدوّي في أرجاء الأرض، لا يفتر ليل نهار، ولا يقر له في ساعات الزمان قرار.<sup>١</sup>

ألا إن التاريخ الذي ولدته الهجرة لا يزال في ازدياد، والنهر الذي أجرته لا يزال في اطراد، والروح الذي نفخته لا يزال قوياً، والعزم الذي شحذته لا يزال فتياً، والكتاب الذي كانت عنوانه لم تقرأ صفحاته، ولم تنفذ كلماته، وإن في ضمير الدهر لأحداثاً كباراً، وإن في ثنايا الغيب لأسراراً وأسراراً.

قد أضاع المسلمين الزمام، ورضوا أن يكون غيرهم الإمام، وقد كثير من المسلمين عقولهم في هذه الفتنة المحبية، وأضلوا رشدهم في هذه الخطوب المظلمة، وبرقت أبصارهم من هذه الأشعة، وصمت آذانهم في هذه الضوضاء، ورضوا بفضلات الأقوام لعقولهم وقلوبهم وأيديهم وألسنتهم، ولكن لا يزال وهي الإسلام يسمع من وراء الحجب، ونوره ينفذ في ثنايا الظلمات، ولا تزال هذه العقول تعرف غايتها، وهذه الوجوه تقصد قبلتها، ولا تزال هذه الهم تسمو إلى سمائها، وهذه الأرواح تتطمئن إلى علياتها، ولا تزال هذه الإبر تعرف قطبيها، وتتجه وجهتها.

إن التاريخ الذي ولدته الهجرة لم يمت، والمجد الذي بدأته لم ينقطع، والجذوة التي أوقتها لم تنطفئ، ولا يزال في الأرض خصب، وفي النهر ماء، وفي السحب مطر ورعد وبرق.

وإن علينا أن نتذكر فنحسن التذكر، ونعتبر فنجيد الاعتبار، ونخلق من العسر يسراً، ومن النعمة نعمة، ومن الضلال هدى، ومن الضعف قوة، مستبصرين بالولي الذي لا يفتر، والنور الذي لا يخبو.

من كان يظن أن الأقلام جفت، والصحف طويت، فليُصحّ ليسمع صرير الأقلام تخط في صفحات التاريخ الإسلامي فصولاً جديدة، ومن كان يحسب أن اليينبوع نصب، فليمعن النظر ليرى أن اليينبوع فياض، وإن حبّته الأدغال، أو تراكمت حوله الرمال، ومن أحس همود الحياة في نفسه، وخمود الهمة في صدره، وضعف الأمل في قلبه، وممرض البيان في لسانه؛ فليرجع إلى الهجرة وأثارها، والإسلام وتاريخه؛ ليغترف من هذا اليينبوع،

<sup>١</sup> إذا فكرنا في اختلاف الأوقات في البلاد الإسلامية عرفنا أن الأذان مستمر لا ينقطع ساعة.

أو يقبس من هذه النار، ويقرأ في هذا الكتاب، ويستمع إلى هذا الخطاب؛ ليرجع إلى نفسه حياتها، وإلى همتها وقدتها، وإلى أمله قوته، وإلى لسانه بيانه، وإلى عقله سلطانه.  
فإن الإسلام لا يعرف الموت ولا الضعف ولا الذلة ولا اليأس، وإنما هو العيش في عزة وكفاح، أو الجنة تحت ظلال الرماح، وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

## رسول الله في عرفات

أما اليوم فتاسع ذي الحجة، وأما السنة فالعاشرة من الهجرة، والحجيج يسرون من منٌ إلى عرفات، فما بال الناس لا يسرون على السنن المأثور، ولا يفعلون ما كانوا يفعلون؟ ما بالهم لا تفرقهم العصبيات وينحازون إلى الرایات؟ ما بال القبائل لا تلبي لألهتها ولا تهيب بأصنامها؟ عجباً، لا تذكر الآلهة حتى اللات والعزى ومناة، ولا تسمى الأوثان حتى ود وهبل؟

كلا، كلا، قد تتبع القوم في سمت وخشوع، فأين الجلة والضوابط، والتفاخر بالأباء؟ وهذه قريش تتجاوز المذلة مع الناس إلى عرفات، فكيف سوت نفسها بالقبائل، ورضيت أن تسير إلى هذه المنازل؟ لست أرى ما يميز قريشاً من غيرهم، ولا الحمس من عداهم، وأين النسأة من كنانة؟ لا ترى لهم شارة ولا موكلاً، ولا تبصر منهم أحداً، ماذا دها العرب فغير سُنّتهم؟ بل من ذا الذي جاءهم فجمع شملهم، ووحد كلمتهم، وأخلص الله دعوتهم! إن هذا لشيء عجاب! كنا قبل سنتين نسمع الضجيج والضوابط، والتصدية والمكاء، ونرى كل قبيلة تتحاز إلى علمها، وتتادي ربها، فمن مشيد بالأوثان، ومن منادٍ: ليك رب كنانة، أو ليك رب همدان! فاستمع اليوم: ليك الله ليك، ليك لا شريك لك ليك!

قد تغيرت الدعوة واحتفل الشعار، وتبدل السيماء والسيرة، وما عهدنا هذا من قبل! والشيطان ذليل حسير، قد آوى إلى صخرة على جانب الطريق يرقب الوفود المتاخية، بل الأخوة المجتمعة، ويرى الجموع بعينه خزياناً، ويغض بنانه حيران، يقول: ويلي من محمد، لقد أخلي بيويتي من هذه الأوثان، ومحا البغضاء والشنآن. لقد ذهب النزاع والخصام، وأفلت من يدي الزمام، ويلي من محمد! ألم يكن بالأمس يغشى هذه المجامعة وحيداً، ويرتد عنها مخدولاً؟ ألم يكن يعرض نفسه على القبائل لتجيده، فيلقى الغلظة

والجفاء، والهze والسخرية؟ ويلي من محمد! لست آسٍ على الحجاز وحده ولا على جزيرة العرب فحسب، إني لأوجس خيفة أن يجاوز هذا التوحيد الجامع، وهذه الأخوة الموحدة حدود الجزيرة، فتدمر منازلي من معابد الوثنية وقصور الجبارين، وتمتد إلى كل بقعة لي تزلزلها الفرقة، ويسيطر عليها الظلم، ويُشَيَّع فيها الفساد، وتتغلغل فيها الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويرفع فيها لواء الباطل فوق كل لواء. ويلي! لقد جاهدت محمدًا في داره ثلاثة عشر سنتًّا، واستنصرت شياطين الإنس والجن، وحشدت جنود الباطل، وخُلِي إلَيْ مَرَأَيَا أَنِّي أَشْرَفْتُ عَلَى الظَّفَرِ، فَمَا هَذِ الْجَمْعُ الَّتِي تَسْيِيرُ وَرَاءَ مُحَمَّدَ، وَتَدْعُو بَدْعَوَةَ مُحَمَّدَ، وَيلِي! إِنَّهُ يَوْمَ لَهُ مَا بَعْدَهُ.

يسير رسول الله ﷺ في عشرة آلاف من الحجاج إلى عرفة، وهذه قبة ضربت له في نمرة فينزل بها.

زالت الشمس فأمر رسول الله بناقته القصواء فرحلت فركب، حتى أتى بطن الوادي؛ وادي عرنة، فوقف، واجتمع الناس وأصاخوا للخطبة التي لم يخطب رسول الله مثلها في مثل هذا الجمع الحاشد، واستمعوا للوصية العظمى التي يوصي بها الرسول أمته في حجة الوداع، والبلاغ الأكبر يوم الحج الأكبر يؤذن الناس بكمال الدين، وتمام النعمة، وتمكن الإسلام،<sup>١</sup> ووقف ربيعة بن أمية بن خلف على مقربة من الرسول يبلغ الحجيج بصوته الجهير مقال رسول الله.

أَللَّهُمَّ الرَّسُولُ أَنَّهُ بَلَغَ الرَّسُولَةَ، وَأَنَّهُ الْأَمَانَةَ، وَأَنَّ الدِّينَ قَدْ كَمِلَ، وَنَعْمَةُ اللهِ قَدْ تَمَتَّ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوكُمْ قَوْلِي؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لِعَلِيٍّ لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبِدًا».

وعلم رسول الله أن التوحيد الذي جاء به الإسلام كفيل بتوحيد الله على مر الدهور، وأن الكتاب الذي بلغه ضمرين أن لا تُعبد الأوثان من بعد، وأن العقول التي حررها تستنكف أن ترتكس في أباطيل الجاهلية، فليس يخشى على أمته الشرك، ولكن يخشى أن يستجيبوا للشيطان فيما عدا التوحيد في أمور يحسبونها هينة، وهي عظيمة الأثر في نظام الجماعة وأخلاقها، حريةً أن توهي القوة، وتفرق الكلمة، وتحل العقدة الصالحة، وتلكم كل كلمة تؤدي إلى فرقة، وكل فعلة من الظلم والعدوان، أو الرذيلة والمنكر. عرف

<sup>١</sup> في هذا اليوم نزلت الآية الكريمة: ﴿إِلَيْهِمْ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ بُعْدَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

هذا خاتم النبيين فقال: «إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم».

ثم وَكَّدَ الرسول ما بلغه وعلمه ثلثاً وعشرين سنة من حرمة الدماء والأموال والأعراض. وَكَّدَ ما أبطل به الحروب المتمادية، والغزوat المستمرة، والثارات المستعرة، وما هدم به جاهليّة العرب هدماً، وردها شرعاً من السلام والوثام، وسلطان القانون العام، فقال: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم حرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا ... وإن كل دم في الجاهليّة موضوع، وإن أول دم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب؛ فهو أول من أبدأ به من دماء الجاهليّة».

ثم عمّ الرسول الذي عَلِمَ البر بالفقير، وجعل له حَقّاً في مال الغني، وعطف القلوب بعضها على بعض وأشعرها البر والمواساة. عمّ إلى هذا الإثم الأثم والجرم المنكر الذي تتبرأ منه الأخلاق والمرءة، هذه الشُّرعة الدينيّة التي تُحَكِّمُ الغني في رقبة الفقير بدرّاهم معدودات، وتتغلغل في الأخلاق والأموال تغلغل السوس، فأعاد ما وَكَّدَه الكتاب والسنة من إبطال الربا، وأعلن أنه سواء منه ما تقدم وما تأخر، قد مَحَقَه الله ومحق آثاره، فقال: «وإن كُلَّ رِبًا موضع، ولهم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله».

ولم ينس النساء وقد أنقذهن من الوأد، وأشركهن في الإرث، وجعل لهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وشرع لهن الشريعة الكافية سعادتهن وسعادة الأمة. لم ينس النساء في هذا الموقف العظيم الذي يوصي فيه بأصول شريعته، قال:

أما بعد، أيها الناس؛ فإن لكم على نسائكم حَقّاً ولهن عليكم حَقّاً ... واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ... فاعقلوا أيها الناس.  
ليت النساء أخذن الحقوق وأدين الواجبات! ليت ثم ليت!

ثم وَكَّدَ نبي التوحيد والأخوة ما بني عليه شرعه من التراحم والتآخي والمساواة والمواساة، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، سواء فيهم الأسود والأبيض، كلهم لآدم، وكلهم عباد الله، وكلهم إخوة في الله، قال الرسول الأكرم: اعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإني قد بلّغت وتركت فيكم ما إن اعتصمت به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه ... أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني قد بلّغت، واعقلوا. تعلمُنَّ أن كل مسلم أخو

ال المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس؛ فلا  
تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغت؟

قال الحاضرون: نعم، قال الرسول: اللهم اشهد.

ذلكم ما أوصى به الرسول يوم الحج الأكبر في حجة وداعه، وتلكم حقوق الإنسان  
دوّت بها أرجاء العالم قبل ألف وثلاثمائة وخمسين سنة. تلكم وصايا الرسول لأمته تدوّي  
بها الأجيال، وتسمعها الآذان، فأين منها الأعمال؟ ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

# في مجلس رسول الله

ثقة الحرّ بالحرّ

دعوة الإسلام تخترق الآفاق، ونور الإسلام يمزق الظلمات، ورسول الله ﷺ ماضٍ في جهاده، دائم على إرشاده، يرى تبشير الصبح في أعقاب الليل، ويبصر بسمة الحق لهزيمة الباطل، ويتلقي وفود الإسلام بعد اثنين وعشرين عاماً لقي فيها هو و أصحابه ما لقوا من جبروت الشرك، وكبراء القوة، وعنت الظلم، ولجاجة الباطل، وهجوم الأهوال، وإحاطة المهالك.

وبني سعد بن بكر في ديارهم شرقي الحجاز إلى الجنوب سمعوا الدعوة الإسلامية، وأحاطت بهم آياتها، وترثوها حتى لم يبق للريث موضع؛ فأجمعوا أن يتعرفوا كنه هذا الأمر، وفيصل هذه القضية.

هذا رئيسهم ضمام بن ثعلبة يشد رحله إلى المدينة ليلقى صاحب الدعوة ويتبين أمره، وهو ذو يسيرة في المدينة يسأل عن الرسول حتى يدخل المسجد راكباً، وينيّخ جمله في فنائه، فانظر إليه في صراحة الرجل الحر يتقدم إلى النبي وأصحابه غير متجلج ولا متدد.

ضمام: «أيكم محمد؟»

الصحابة: «هذا الرجل الأبيض المتكئ».  
ضمام: «ابن عبد المطلب!»  
رسول الله: «قد أجبتك».

- إني سألك فمشدد عليك في المسألة فلا تَجِدْ علَيَّ في نفسك.
- سل عما بدا لك.
- أسألك بربك ورب من قبلك: آلللهُ أرسلك إلى الناس كلهم؟
  - اللهم نعم.
- أنشدك بالله: آلللهُ أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟
  - اللهم نعم.
- أنشدك بالله: آلللهُ أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟
  - اللهم نعم.
- آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر.<sup>١</sup>

لم يطلب ضمام بن ثعلبة معجزة ولا آية ولا برهانًا، ولكنه رأى المعجزة والآية والبرهان في ذمة محمد وصدقه، فتقدم جريئاً حراً يسأل الرجل الحر الذي وثق به ويناشده الله؛ فلما أجابه آمن به غير متعدد ولا مرتاب ولا متريث. سأله الرجل العظيم وناشده بربه فأجابه، وهو أكبر في نفسه وأعظم في رأيه من أن يكتبه أو يخدعه. هل وراء هذا للحر برهان؟ وهل بعد الثقة بيان؟ إن في هذا الحوار لعبرة للأحرار!

<sup>١</sup> الحوار كله منقول من البخاري بنصه.

## على ذكرى المولد النبوى

الذَّكْر العظيمة في تاريخ الأمم نجوم يُهتدى بها في ظلمات الأيام، وأعلام يستبين بها الطريق في ضلالات الزمان، ودعوات إلى الحق والخير تدوى على مر السنين، والزمان بالناس دائم لا يفتر، تعثورهم أحدهما، وتتداولهم غيره، فمن لم يعتصم بسبب من الحق، ويستمسك بعروة من العمل الصالح، ضلَّ وانبهمت عليه السبيل، والتبس عليه الحق والباطل، والهدى والضلال، ومن لم يجعل له قدوة من سِير العظماء تردد وتحير، والزمان لا ينتظر المترددين الحيارى، أو ضل وهلك، والدهر لا يشفق على الضلال والهلكى.

وإن لنا معاشر المسلمين من سيرة رسولنا خاتم النبيين نجوماً نَيَّرات، وأعلام واضحات، وأُسُى تهدي إلى الخير والبر، وإلى التي هي أقوم من أعمال الدنيا والدين. إن لنا من سيرة الرسول الكريم هدىً في كل صغيرة وكبيرة من أعمال الفرد والجماعة. فقد حفظ لنا التاريخ سيرته في بيته ومسجده، وفي سياسة الجماعات، وتربية الأمم، وقيادة الجيوش، وفي الإصلاح بين المتعارضين، والقضاء بين المتخاصمين، وفي السفر والحضر، والشدة والرخاء، وال الحرب والسلام، والغضب والرضا، فما تلقانا حادثة من حادث الزمان، أو عمل من أعمال الحياة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، إلا وجدنا في سيرة سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد - صلوات الله عليه وسلمه - مثلاً عالياً، وأسوة حسنة، ورأياً هادياً، وقضاءً فصلاً، يهدينا إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة. كل فرد منا يجد في سيرة محمد وهديه شفاء دائئ، والتحرر من أهوائه، وإصلاح خلقه، وكل فرد منا يجد في سيرة نبيه الجهاد في الحياة، والصبر على لأوائتها، والطموح إلى معاليها، والاستكبار عن دنايها، والإباء على كل ضيم، والنفور من كل مذلة.

وكل أمة من أمم المسلمين تدوي فيها ليل نهار الدعوة المحمدية، تدعوها إلى أن تقوم في أرض الله على عباد الله بقانون الله ﴿كُنْتُمْ خَيْرًا مِّنْ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وكل أمة على هذه الأرض تجد في هدي محمد ما يطُبُّ لدائها، ويقيم من عوجها. وهل أودى بالجماعات إلا عصبيات باطلة، وأهواء جامحة، وشهوات مسلطة، واستكبار على الحق، ونفور من العدل؟ هل كَبَّ الناس في جهنم إلا ما استغر في قلوبهم من الضغينة، وثار في رءوسهم من الهوى؟ وهل يعرف التاريخ كمحمد رسولًا جاء بالشرع الجامع، والأخوة العامة، والعدل الشامل؟ وهل يعرف التاريخ كمحمد هادياً ألف بين منازع النفس على قانون من العفة والعدل، وألف بين الإنسان والإنسان على شريعة من المودة والأخوة، وألف بين الأمة والأمة على منهاج من الحق والبر والعمل الصالح لخير الناس أجمعين؟

من رفع للناس لواء الأخوة لا يفرق بين الأبيض والأسود، ولا يميز بين المشرق والمغرب؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْثَرَكُمْ إِذْنَ اللَّهِ أَتَقْلَمُ﴾. من دعا الناس جميًعاً إلى التنافس في الخير على اختلاف أديانهم ونحلهم، وأنزل عليه: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِيَتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيْلَوْكُمْ فِي مَا آتَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾.

أين أنتم من هذه الأخوة الجامعة يا ضلال البشر؟ أين أنتم من دعوة الخير العامة يا دُعاة الشر؟ أين أنتم من هذه الرحمة يا قُساة القلوب؟ أين أنتم من هذا الصلاح يا فَسَاد الشعوب؟

المسلمون أحق باللوم، وأجدر بالتعنيف، فهم أهل هذا الدين وأولى الناس بهديه، وهم هم خذلوه وهجروه، وحفظوا ظاهره وضيعبوه ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، فإن ترهماليوم في فرقة وشقاق فيما ضيعوا أخوة الإسلام، وإن ترهم في مذلة وهوان فيما فرطوا في عزة الإسلام، وإن ترهم أتباعاً فقد علمهم الإسلام شرعة السيادة فنبذوها، وأعطاهم أزمَّة القيادة فأضاعوها.

أيها المسلمون، هذه ذكرى نبيكم، وميلاد تاريخكم، ومبدأ مجدهم، ومنشأ سعادتكم، فإن شئتم لأنفسكم السيادة والسعادة؛ فكونوا أهلاً لهذا الشرف، كونوا بأخلاقكم

وأعمالكم جديرين بأن تسموا أمة محمد، ولا تتخذوا الانتساب إلى محمد هزواً ولعباً،  
وتحسبوا بالإسلام أسماء وأقوالاً، فإنما هو الأخلاق والأفعال والجهاد الذي لا يفتر، فمن  
شاء أن ينتمي إلى محمد فهذه سنته، ومن شاء مجد محمد فهذه طريقة! ﴿يَا أَيُّهَا  
الَّذِي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِنْدِنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.



## ذكرى الهجرة

١

يدور الفلك دورانه، ويجري الزمن جريانه، وتكرر الحادثات وال عبر، وتسير الأمور على قدر، ويطرد نهر الحياة في مجرى بين الأزل والأبد، والناس قوافل مجاهدة تضرب في بيداء مجهلة، قد اشتبهت عليهم الأعلام، وانبهمت الغايات، لا يبلغون مديّ، ولا يقيمون على منزل إلا ريشما يُعِدُّون للمسير، ويتوذدون للرحيل، مسيرة لا يفاضي إلى نهاية، ومنازل لا تنتهي إلى غاية. إنما الغاية هذا الدأب المستمر، وهذا الكد المستحر. والأعوام مراحل في هذا الطريق الأبدى، ومنازل في هذا السفر السرمدي، وقصارى الناس أن يقفوا كل عام وقفه لينظروا إلى الماضي فيقولوا: فعلنا ولم نفعل، ويتطلعوا إلى الآتي فيقولوا: نخاف ونأمل، يحمدون الإنجاح، ويأسون على الإخفاق، ويرجون الخير، ويشفقون من الشر.

وليس الناس سواء في سبيل الزمان، وتيار الحدثان: منهم الضعاف المغلوبون، والعبيد الخانعون الذين تصرفهم الحادثات كما شاعت، ويجري بهم التيار أنّى توجه، لا يستطيعون ثباتاً ولا دفعاً، ولا يملكون ضراً ولا نفعاً، كالغثاء يسيل به الماء، إن سُئلوا: لم فعلتم؟ قالوا: سلطان الزمان القاهر، وإن قيل: لم لا تفعلون؟ قالوا: العصر القاسر. ومن الناس الأباء الأحرار، ألو الألباب والعزائم الذين تثبتهم عقولهم وقلوبهم وهمهم، فيقومون المقام الذي يرضون، وينهجون النهج الذين يريدون، يسخرون بالزمان وسلطانه، والعصر وحكمه، يمهدون الطريق للخير، ويسدون الطريق على الشر، ويقفون في مجرى الخطوب كالصخرة في مجرى السيل يجيش الماء حولها ويزبد،

ويصدّمها فينشق عنها، ويمضي وهي مكانها راسخة، ويثبتون كالسد في النهر يحبس ماءه ويصرفه عن وجهه.

هؤلاء أحرار يعبدون الزمان ولا يعبدُهم، ويصرفوه ولا يصرفهم، ويسيطرون على العصور ولا تسيطر عليهم، بل هم يخلقون العصور والأجيال، ويذلّون الزمان والمكان، لا يعتلون بسلطان الزمان وحكم العصر، ولكن يحتاجون بالحق والخير، شاء الزمان أو أبي، ورضي العصر أم سخط، لأنما إرادتهم وعزمهم وحبي الله وسلطان القدر. لهم كل حين قول سديد، وعمل جيد، وجihad في الحق، ونصرة للخير. ورب فرد من هؤلاء قد خلق جيلاً وأنشأ أمة، وبَدَلَ عصراً بعصراً، وزماناً بزمان.

٢

وال المسلمين ما مقامهم اليوم في حكم الزمان، وما شأنهم في مجـرى الخطوب؟ إنـهم في ذلك فرقـ شـتـى: فـريقـ راعـتهـ الحـادـثـاتـ، وـبـهـرـتـهـ النـائـبـاتـ، وـدـهـمـهـ التـيـارـ الصـاحـبـ، فـجـرـىـ معـهـ رـاضـيـاـ بـهـ أـوـ مـقـهـورـاـ عـلـيـهـ، أـوـ يـائـسـاـ مـنـ مـغـالـبـتـهـ، أـوـ اـسـتـهـوـتـهـ الفـتـنـ، وـسـحـرـتـهـ الزـخـارـفـ، وـمـالـ بـهـ الـهـوـىـ، فـأـعـطـيـ الـعـصـرـ عـقـلـهـ وـقـلـبـهـ، وـانـدـفـعـ يـمـرحـ وـيلـعـبـ، وـيـسـتـمـتـعـ جـهـدـ هـوـاهـ وـشـهـوـتـهـ وـفـتـنـتـهـ. وـإـنـ حـاجـجـتـهـ اـعـتـرـفـ بـضـعـفـهـ وـيـأـسـهـ، وـخـنـوعـهـ وـذـلـهـ، أـوـ لـقـيـكـ بـمـلـءـ هـوـاهـ وـفـمـهـ مـنـ حـجـجـ وـاهـيـةـ، وـأـرـاءـ مـأـفـونـةـ، تـدـلـ فـيـ جـمـلـتـهـ وـتـفـصـيـلـهـ عـلـىـ أـنـ مـغـلـوبـ عـلـىـ أـمـرـهـ مـسـحـورـ، لـاـ يـثـبـتـهـ عـقـلـ حـرـ، وـلـاـ نـفـسـ عـزـيـزةـ، وـلـاـ قـلـبـ هـمـامـ.

وـمـنـ الـمـسـلـمـينـ فـرـيقـ هـالـهـمـ الـعـصـرـ الـجـديـدـ، وـأـخـافـتـهـمـ فـتـنـتـهـ، فـأـرـادـواـ أـنـ يـنـجـواـ بـأـنـفـسـهـمـ وـدـيـنـهـمـ بـأـنـ يـجـتـبـواـ هـذـاـ التـيـارـ، وـيـنـتـبـذـواـ مـنـ هـذـهـ الحـادـثـاتـ مـكـانـاـ قـصـيـاـ، وـأـوـلـئـكـ لـمـ يـجـاهـدـواـ، فـلـمـ يـنـتـصـرـواـ وـلـمـ يـهـزـمـواـ. وـإـنـ مـدـ الـبـحـرـ مـدـ لـحـقـهـ، وـإـنـ سـالـ السـيـلـ بـهـ مـرـةـ جـرـفـهـ، بـأـنـهـ لـمـ يـعـدـوـ لـلـحـيـاـ عـدـتـهـ، وـلـمـ يـتـخـذـواـ لـلـحـوـادـثـ سـلاـحـهـ، وـالـأـعـزـلـ فـيـ هـذـاـ المـعـتـرـكـ مـغـلـوبـ، وـالـغـافـلـ فـيـ هـذـاـ الخـضـمـ غـرـيقـ.

وـفـرـيقـ آخـرـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ لـمـ تـجـرـفـهـمـ الـحـادـثـاتـ، وـلـاـ فـرـواـ مـنـهـ، وـلـمـ تـفـتـنـهـمـ الـفـتـنـ، وـلـاـ بـعـدـواـ عـنـهـ، بـلـ هـمـ فـيـ مـجـرـىـ الـخـطـوبـ ثـابـتوـنـ، وـفـيـ مـعـتـرـكـ الـفـتـنـ سـالـمـونـ، عـدـتـهـمـ عـقـولـ دـرـاكـةـ لـاـ يـشـتبـهـ عـلـيـهـ الـحـقـ وـالـبـاطـلـ، وـنـفـوسـ أـبـيـةـ لـاـ تـرـيمـ مـكـانـهـ مـنـ الـعـزـةـ وـالـكـرـامـةـ، وـعـزـائـمـ هـيـ كـفـاءـ الـخـطـوبـ الـمـالـهـمـةـ، وـالـجـهـادـ الـمـدـيـدـ. أـوـلـئـكـ وـتـقـواـ بـعـقـولـهـمـ وـهـمـمـهـمـ وـدـيـنـهـمـ وـتـارـيـخـهـمـ وـسـنـنـهـمـ، يـغـالـبـونـ الـحـادـثـاتـ وـيـشـقـونـ فـيـهـ طـرـيقـهـمـ إـلـىـ غـايـتـهـمـ، وـيـمـكـنـونـ لـحـضـارـتـهـمـ وـأـخـلـاقـهـمـ فـيـ هـذـهـ الـأـرـضـ، لـاـ يـخـشـونـ قـوـةـ وـلـاـ يـعـرـفـونـ

زماناً قاهراً، ولا عصرًا غالباً. قد سموا بأنفسهم فوق الجديد والقديم، والماضي والحاضر، والشرقي والغربي، يأخذون ويتركون مختارين، ويأمرون وينهون على هدى وبصيرة، لا استسلاماً للفتنة وخنوعاً للزمان، ولا عصبية للقديم وغمطاً للجديد.

وهؤلاء الأباء الأحرار والعقلاء الأخيار يجدون في تاريخهم ما يهون عليهم الخطوب، ويذلل لهم الأهوال، ويعصّمهم أن يضلوا، ويربأ بهم أن يستكينوا ويدلوا؛ فما تزال تنزل عليهم من هذا التاريخ العزة والإباء والكرامة، والثبات في الحق، والجهاد في الخير، والتكبر على الأهواء، والتزه عن الدنایا. ما يزال تاريخ الإسلام يوحى إليهم العظمة بالحق، والسيطرة بالصدق، والصبر لكل نازلة، والظفر بعد الصبر، والعدل بعد الظفر. ما يزال تاريخ الإسلام يجلو العزائم كلما صدئت عليها المصائب، ويضيء الآمال كلما دجت عليها الكوارث، ويحرر النفوس كلما همت الرغبة والرهبة أن تستنزلها. ولو لا هذا الوحي المستمر من هذا التاريخ المجيد ما استطاع مسلم أن يثبت في هذه الفتنة، ويصبر على هذه المحن، ويرى الصبح في أعقاب هذا الليل، والظفر وراء هذه النكبات.

وإن الهجرة – هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة – ملياد عصر جديد عَزٌّ فيه الحق وغلب الخير، وسيطرت الحرية، وخلص الإنسان من سلطان الضلال، وتحكم الباطل، وذل العبودية لسادته وأهوائه وشهواته.

إن الهجرة لمبدأ تاريخ عرفت فيه الإنسانية من معاني الحق والخير والحرية ما لم تعرف في غير هذا التاريخ. وما يزال هذا التاريخ علمًا مرفوعًا للفضائل والخيرات تنحاز إليه في عصور الرذيلة والشر، ما يزال علمًا مرفوعًا للأخوة في أزمان يتناحر فيها البشر في كل حين، وتقتتل الأمم في كل بقعة، والمذاهب في كل أمة، والتفكير في كل نفس.

فيما أيها المسلمون لا يهولنكم ما يحيط بكم، واتخذوا من الهجرة عيدها يلد في كل نفس معاني من العزة والحرية تثبت بها في هذا الجهاد، ومعاني من الحق والصدق تعيش بها على هذه الأرض، ومعاني من الخير والبر يسعد بها الناس. استوحوها الهجرة كل معنى كريم يؤهل للحياة الكريمة، وكل خلق فاضل ينشئ الأمة الفاضلة، وكل خلق يجعل الإنسان إنساناً حراً، عزيزاً، برياً، حيراً، لا عبداً ذليلًا ولا وحشاً مفترساً.

ألا إنكم أولى بالحق والخير، والمجد والكرامة، وأجدر بحمل أمانة الإسلام، وتبلغ رسالة محمد؛ فافعلوا وإلا فلستم أهلاً للانتساب إلى الإسلام دين الحق، ومحمد نبي الإنسانية.



# الإسلام

بعد ١٣٥٥ سنة

مضت خمسة وخمسون وثلاثمائة وألف عام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة. طوى التاريخ خمساً وخمسين وثلاثمائة وألف مرحلة منذ خرج محمد وأصحابه يحملون دعوة التوحيد والأخوة، وكلمة الحق والعدل والحرية. ركم الزمان على عام الهجرة ثلاثة عشر قرناً ونصفاً، وما زال يخرق الحجب نوره، ويلوح من خلال الأجيال سناه.

مضت أربعة عشر قرناً في جزر التاريخ ومدّه، وغير الدهر وخطوبه، قامت دول وزالت دول، وقويت أمم وضعفـت أمم، وحيـيت مذاهبـ وماتـت مذاهبـ، والأرض ترـجـفـ باعـتركـ البـشـرـ واحـترـابـ الـأـديـانـ، وتدـويـ بالـآـراءـ تـتصـادـمـ، وـالـأـفـكـارـ تـتقـاتـلـ، وـمـنـ وـرـاءـ هـذـاـ خـلـقـ يـغـلـبـ خـلـقاـ، وـسـنـةـ تـمـيـتـ سـنـةـ، وـآـيـةـ تـنـسـخـ آـيـةـ، وـأـثـرـ يـعـفـيـ عـلـىـ أـثـرـ.

فـأـيـنـ الإـسـلـامـ الـيـوـمـ مـنـ مـبـدـئـهـ؟ أـيـنـ بـلـغـ الـمـسـلـمـوـنـ بـعـدـ أـرـبـعـةـ عـشـرـ قـرـنـاـ؟ قـالـ كـاتـبـ أـورـوـبـيـ مـنـ سـنـتـيـنـ: إـنـ دـعـوـةـ الإـسـلـامـ قـدـ اـنـتـهـتـ، وـإـنـ الإـسـلـامـ وـهـنـ وـلـمـ تـبـقـ فـيـهـ قـوـةـ تـحـرـّكـ الـأـمـمـ وـتـسـيـرـ الـأـجـيـالـ.

أـحـقـ أـنـ الإـسـلـامـ قـدـ اـنـتـهـتـ دـعـوـاتـهـ، وـدـرـسـتـ آـيـاتـهـ، وـلـمـ تـبـقـ إـلـاـ أـسـمـاءـ وـأـوهـامـ، وـرسـوـمـ وـأـعـلامـ؟ هـلـ الإـسـلـامـ الـيـوـمـ لـاـ تـنـبـضـ بـهـ الـقـلـوبـ، وـلـاـ تـمـضـيـ بـهـ الـعـزـائـمـ، وـلـاـ يـقـيمـ الـمـلـلـ الـعـلـيـاـ لـلـعـلـمـ فـيـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ؟ أـصـارـ الإـسـلـامـ تـارـيـخـاـ دـاـبـرـاـ، وـانـقـلـبـ مـجـداـ مـاضـيـاـ؟ هـلـ طـفـيـتـ

الـنـارـ، وـأـقـوـتـ الـدـيـارـ؟

ما هي دعوة الإسلام؟ دعوات ذات شعب تنتظم العقائد والأعمال، وتهيمن على العقل والقلب، وتحيط بالجماعة من أقطارها، وتشمل الأمم جميعها، ولكنها في أصولها ترجع إلى أمرتين: التوحيد، توحيد الله وتوحيد النفس، بخليلتها من الأوهام المتنازعة والخرافات المتهافة، وإقامتها على طريق بينة لا حيرة فيها ولا ضلال، ثم توحيد الأفراد في الجماعة بالعدل الشامل والتسوية التامة، وإعطاء كل ذي حق حقه، لا عبد ولا حر، ولا سائد ولا مسود، ولا رفيع ولا وضعيف، ثم توحيد الجماعات فلا شرقي ولا غربي، ولا عربي ولا عجمي.

والأمر الثاني: العمل الصالح: أن يسير الفرد والجماعة والأمم إلى الخير، أن يجاهدوا لإقامة الحق وهدم الباطل، ونشر العدل ومحو الجور، أن تمتلئ القلوب ناراً تحفزها للعمل، ونوراً يهديها السبيل، وأن تسمو النفوس عن الصغائر والدنيا، وتتطهّر من الأحقاد والضغائن، وتتحرر حتى تأبى على القيود، وتنتسّع على الحدود، وتنطلق في الكمال إلى أبعد غاية.

فهل انتهت هذه الدعوة الإسلامية؟ هل أظلم قلب المسلم؟ هل ذلت نفسه؟ هل ذهب الخنوع بأمامه؟ هل رده الدهر إلى الصغار، وأنزله اليأس إلى القرار؟ هي يئس المسلم من السيادة، ورأى أن يسلّم قياده؟

كلا، كلا، إن في الإسلام من المثل والأخلاق والفضائل والعزة والإباء والسمو والتاريخ الوضاء ما يملأ المسلمين حياة وأماماً وطموحاً واعتزاماً. لم تنته دعوة الإسلام ولكنها اليوم تقوى وتعظم، وقد تهيأ الزمان لها، ومهدت الحادثات سبلها. بدأ الإسلام دعوته منذ أربعة عشر قرناً، ولكنها لم تبلغ غايتها، وأجدر بها اليوم أن تبلغها.

ما تزال النفوس الإنسانية طماحة إلى السمو، نزاعة إلى الخير، مفعمة بحب الحق والعدل، تواقة إلى الأخوة والحرية، فلن تقف دعوة الإسلام.

ما يزال المسلم الحق يرى نفسه خليفة الله في الأرض، مكلفاً أن يقيم العدل بين الناس، موكلًا بنصرة الخير ومحاربة الشر، لأنّي كان ومتى استطاع. كل الأرض داره، وكل الزمان وقته، فلن تقف دعوة الإسلام.

ما يزال المسلم ينطوي على عزة تقهّر الخطوب، وأمل يغلب الزمان، ونفس لا تسف، وقلب لا يذل، وما تزال سيرة محمد في عقله وقلبه، ولا يزال مجد الإسلام مليء جوانحه، ولا تزال كلمة الحق والعدل مليء ضميره، فلن تقف دعوة الإسلام.

إن دعوة الإسلام لا تقف حتى يموت الخلق العلي، والقلب الأبدي في نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون أنهم حماة الإسلام: <sup>١</sup> ما أذل الإسلام إن ابتغى في غير أولاده حماة! وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! يا حسرة على الحق إن التمس من الباطل حاميًا! ويا خسران العدل إن ابتغى من الظلم واليًا! وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه ومن أجيالهم العصور من أئنته وأبطاله!  
 إن في دين المسلم، وإن في قلب المسلم، وإن في خلق المسلم، ما يربأ به عن كل دنية، ويقصد به إلى كل هول، ويثبت به في كل كارثة، ويسمو به إلى مقصد جلل.  
 أيها الحماة الأبرار! لقد أدرت موتها على المسلمين حرباً طاحنة في الشرق والمغرب، وغزوتموها بالسلاح والفتنة والفرقة، وكثُرتم لهم في السر والعلانية، واستبختتم فيهم كل منكر، حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلوا، وينسوا وملوا، قلت: هلم أيها الضعفاء، فتحن الحماة الأقوباء!

أيها الحماة! شدّ ما قسوتم على المسلمين ثم شدّ ما رفقت بهم!  
 أيها الحماة! لقد تعلمون أن بضعة ألف من بنى الإسلام ثبتو لكم، وسخروا بقواكم وفنونكم، وأساطيلكم وجيوشكم وطياراتكم أكثر من عشرين عاماً، ولم يكن سلاحهم إلا عزة الإسلام ومجد الإسلام.<sup>٢</sup>

سلاحهم عزيمة الجهاد  
 وقوتهم ما سلبو الأعادي  
 يصابرون الأكيد الصوابي  
 ويأكلون الجوع في البوادي  
 قد ينسوا يأساً من الأمداد  
 إلا ثبات القلب في الجلاد  
 ونصرة الرحمن للعباد

\* \* \*

أبْتَ لَهُمْ كَرَامَةَ الْإِسْلَام

<sup>١</sup> روی عن موسولیني يومئذ أنه قال: إنه حامي الإسلام أو المسلمين.

<sup>٢</sup> يعني مجاهدي طرابلس.

أبى إباء العرب الكرام  
أن يسلموا الأوطان دون الهاام  
مُنذيتهم مشارع الحمام

فلما تكسر في أيديهم كل سلاح، وأعوزهم كل قوت، وضاق على عزائمهم كل مجال،  
خرجوا من ديارهم أنففة أن يروا الصغار في الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلة أرض، وهم  
اليوم مشردون في الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم ونعيتهم ويعتزمون وجسمهم،  
ولم تنل من أنفسهم، فكل منهم عَلَمْ جهاد، وصحيفة فخار، وسجل مآثر، وشهادة  
ناتقة بما تتجاهلون من العزة الإسلامية، والأنفة العربية.

ألا إن الإسلام لم تنته دعوته ولم تضعف كلمته، وسيبقى كلمة الله في الأرض،  
ودعوته إلى الحق، وحجته على الخلق، في أمره بالتوحيد والأخوة والحرية، والعمل في  
الحياة على أق蓬 السنن، إلى أكرم الغايات.

ألا إن الإسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحرية لا تستعبد، ودعوة إلى  
العزة لا تذل، ودعوة إلى العمل لا تفتر.

ألا إن الإسلام دعوة إلى السلام والإخاء، وإلى الصدق والوفاء، فإن دارت به الأكاذيب،  
واجتمعت عليه الأباطيل، وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزة والإباء،  
والصبر على اللاإباء، والموت في سبيل الحق، والخلود من وراء الموت.

## لا غالب إلا الله!

ذهبت البارحة إلى مسرح الحمراء، وقد سمي الأوروبيون كثيراً من ملاهيهم باسم الحمراء بعد أن حرّفوه إلى الهمبرا، سألت نفسي في الطريق: كيف حُرف الاسم هذا التحريف؟ قالت: إن الزمان ليطمس الأعيان ثم يذهب بالأثار، فما إبقاءه على الأسماء؟ أشفقت من هذا الحديث أن أتغلغل فيما وراءه من آلام وأحزان فقلت: فيم الفرار من الكد والعناء إلى الله! إن بدأت حديثه بالمراثي وال المصائب؟

أخذت مكانى بين الجالسين، فسررت طرفي في نسق عربى من البناء والنقوش، وإذا منظر يفتح لي من التاريخ فجاجاً ملائى بالأهوال وال عبر.

لبثت أتأمل البناء متحرزاً أن أجتازه إلى ما وراءه من خطوب التاريخ، وما زلت أصوب النظر وأصعده في المسرح حتى جمد البصر على دائرة في ذروته لاحت فيها أحد رف، فكنت وإياها غريبين في هذا الجمع «وكل غريب للغريب نسيب». بل كنت وإياها نجيين في هذا الحفل لا يفهمها غيري، ولا تأنس من الوجوه الحاشدة بغير وجهي، أجهدت البصر الكليل في قراءة الأحرف فإذا هي: «لا غالب إلا الله».

يا ويلناه! شعار بني الأحمر الذي حلو به قصورهم ومساجدهم، ويل لهذه الكلمة الجليلة الغريبة في هذا اللهى الأعمم؟ قرأت هذا الكلمة فإذا هي عنوان لكتاب من العبر قلبته صفحة صفحة ذاهلاً عما حولي، فلم أنتفع بنفسي في مشهد اللهو واللعب، ولم تحس أذني الموسيقى والغناء، أغمضت عيني عن الحاضر لأفتحها على الماضي، وصممت الأذن عن ضوابط المكان لتصبح إلى حديث الزمان، وناهيك بجولان الفكر طاوياً الأعصار، منتظماً البوادي والأمسكار، واثباً من غيب التاريخ إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى غيب التاريخ.

شهدت في ساعة جيوش طارق غازية من الزقاق إلى الburيات، وشهدت مصرع عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء، وشهدت جلاد الأجيال من المسلمين والأسبان، ورأيت عبد الرحمن الناصر في حربه وسلمه ملء العين جلاً ورعباً، وملء القلب عدلاً ورحمة. ورأيت البطل ابن أبي عامر يحالف الظفر في خمسين غزوة، ويُبعد المغار حيث نكست لهم والعزم من قبله، ورأيت دولة الأمويين تُزلزل فتصدع فتهاجر، وأبصرت ملوك الطوائف يتنازعون البوار والعار، ويؤدون الجزية إلى ألفونس السادس صاغرين. ثم سمعت جلبة جيوش المرابطين يقدمها يوسف بن تاشفين، وشهدت موقعة الزلاقة القاهرة، ثم رأيت راية المرابطين تلتف رياط ملوك الطوائف.

وهذه دولة الموحدين، وهذا المنصور يعقوب بن يوسف في موقعة الأرك يحطم جيوش الأسبان بعد الزلاقة بمائة عام، ورأيت موقعة العقام وقد دارت على المسلمين دوائرها، والناصر بن يعقوب يفر بنفسه بعد أن اقتحمت عليه المنايا دائرة الحراس.

ورأيت غرناطة وحيدة في الجزيرة يتيمة قد ذهبت أتراها، وصارت كما قال طارق يوم الفتح: أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، ولكنها، على العلات، ورثت مجد المسلمين وكربلاهم، فجالدت الدهر عن نفسها مائتين وخمسين عاماً، وحملت حضارة المسلمين على رغم التواب وكلب الأعداء، ثم رأيت أشراط الساعة: رأيت أبي الحسن وأخاه محمدًا يتنازعان السلطان على مرأى من العدو ومسمع، ورأيت أبي عبد الله ينافذ أبوه الحسن ذلك الملك المائل، والظل الزائل، ورأيت العراك المديد بين أبي عبد الله وعممه الزغل كما تناطح الخراف في حظيرة القصاب، وتلك جيوش فرديناند وإيزابلا تنيخ على مدينة بعد أخرى، وتدرك معقلًا بعد آخر.

ومالقة تجاهد الكوارث جهاد المستمي، والزغل يشق الأهوال إليها لينقذها، فيقطع أبو عبد الله طريقه ويريد جنده. مالقة في قبضة العدو وأهلها أسارى يباعون في الأسواق ويتهادهم الملوك والكبار، وهو هو الزغل يُسلم وادي آش إلى العدو على منحة من الأرض والمال، ثم يعيَا بأعباء المذلة والهوان فيهاجر إلى المغرب.

ثم شهدت يوم القيامة: الجيوش محيطة بغرنطة وأهلها يغرون على العدو جهاد البطولة والاستبسال والصبر، ثم يغلق عليهم الضعف أبواب المدينة. وهذا شهر ربيع سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وأبو عبد الله يسير إلى فرديناند في كوكبة من الفرسان لا محاربًا ولا معاهدًا، ولكن ليسلم إليه مفاتيح الحمراء. نظرت الصليب الفضي الكبير يتلألأ على أبراج القلعة، وبكيت مع أبي عبد الله وهو يودع معاهد المجد وملاعب الصبا

من الحمراء وجنة العريف، وسمعت أمه عائشة تصرخ في وجهه: «ابك اليوم كالنساء على ملك لم تحفظ به احتفاظ الرجال.» فينهُل دمعه، وتتصاعد زفراته على الأكمحة التي يسميها الأسبان اليوم «آخر زفرات العربي».

وهذا أبو عبد الله، وهو الذي باع بأوقار من العار والذل، تأبى فيه بقية من الشم العربي أن يقيم على الضيم فيهاجر إلى المغرب، ويرسل إلى سلطان فارس من بنى وطاس رسالته الذليلة المسهبة يدفع عن نفسه ما قُرِف به في عرضه ودينه، ويشكو إلى السلطان حزنه وبته ويقول:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم  
رعياً لما مثله يرعى من الذم  
جار الزمان عليه جور منتقم  
بك استجرنا، ونعم الجار أنت لمن

عيَ رأسِي وقلبي بهذه الأحداث الكاربة، والخطوب المتلاحقة، وهالتنى هذه المشاهد المفظعة، فخرجت من هذه الغمرة مرتاباً كما يستيقظ النائم عن حلم هائل.  
نظرت أمامي فإذا المسرح، وصعدت بصرى فإذا الدائرة: «لا غالب إلا الله!»



## بِلَالْ يُؤْذِن

كاد الليل ينساخ عن النهار، وبشرت بالصبح أنفاس الأسحار، والدجى مهود وسنان،  
يخشى في المشرق ذنب السرحان<sup>١</sup>، والناس هاجدون كأنهم أيقاظ، وكأن آذانهم مصيحة  
تلقاء المسجد، تتحين دعاء المؤذن، وكأن قلوبهم إبر المغناطيس ترصد قطبيها، وتتجه  
إلى إمامها، والإمام هاجد يرعاه ربه، تنام عيناه ولا ينام قلبه، وملء الأرض والسماء  
السكينة والسلام.

وسرى في أحشاء الليل سارٌ كطيف الخيال في ظلمات الليل، اتخذ من الليل إهاباً،  
وطوى من الصبح قلباً وجَاباً «آدم شديد الأدمة، نحيف طوال أجناً، كثير الشعر، خفيف  
العارضين، به شَمَط» تحمل جمّته الشمطاء تباشير الصبح الوضاء.

ويرتقى جدار المسجد مقلباً وجهه في السماء ثم ينتفض قائماً، فيبعث في حواشي  
الظلماء صوتاً يجلجل في الأرجاء: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر! أترى فلول الظلم  
مذعورة تلوز بالباطل المنزه، أم ترى الباطل مذعوراً يلتف في تلك الظلم؟ أترى ذلك  
النور المنبثق من الأفق الشرقي، باسمة الفجر الصادق لهذا الصوت الإلهي؟ أم ترى ذلك  
النور الوضاء استجابة النهار لهذا النداء؟ ليت شعري أيهما الصباح، وأيهما أذان بلال  
بن رباح؟

ويمضي بلال يচدّع قلب الظلم بشهادتي الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد  
أن محمداً رسول الله، ثم يحيّل بالصلوة والفالح، ثم يعيد التكبير في تمديد، فيختتم  
 بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

<sup>١</sup> ذنب السرحان الفجر الكاذب.

ويحسب بلال أن صوته لم ينفذ إلى القلوب، فلم تتجاف عن مضاجعها الجنوب،  
فيثُب بالقوم: الصلة خير من النوم.

يتهلل وجه الرسول ﷺ لصوت الحق مدوّياً في أعقاب الباطل، يبسم لصوت الحق  
عالياً طليقاً يملأ ما بين الأرض والسماء، والشرق والغرب، يبسم حين يسمع دعوة الحق  
في قلب الجزيرة العربية على لسان عبد حبشي، وهل في شرعة الإسلام عبد وحر؟ وهل  
في سُنة محمد عربي وحبشي؟ وتتبّعث في كل آذن من هذا الصوت بُشَرَى، وفي كل قلب  
من هذا النور إشراق، فيهب الأصحاب من مراقدhem تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم،  
ف تستيقظ كل دار بأهبة الصلة من الرجال والنساء والولدان.

وينزل بلال فيقف بباب الحجرة النبوية قائلاً: «حي على الصلة، حي على الفلاح،  
الصلة يا رسول الله.»

ويسفر النهار، وتنثال الجموع إلى المسجد، فانظر من ترى: يخرج نفر إلى المسجد  
من خوخات في دورهم، وهذا adam الرَّبْعَة عظيم العينين ذو البطن علي بن أبي طالب  
يخرج من حمرة فاطمة، وهذا الطويل الجسيم الأصلع عمر الفاروق، وهذا الأسمر  
الرقيق البشرة، ضخم المنكبين، كثير شعر الرأس، عظيم اللحية؛ عثمان ذو النورين،  
والصادق كان في السُّنْح هذه الليلة، فيقدم مسرعاً، فتراه أبيض نحيفاً معروق الوجه،  
غائر العينين، خفيفعارضين أجناً.

ويقبل من دوربني زهرة بجانب المسجد ثلاثة: أحدهم قصير دجاج ذو هامة  
عظيمة، شثن الأصابع، كثير الشعر، يخضب بالسواد هو سعد بن مالك بن أبي وقاص،  
والثاني آدم نحيف قصير له شعر يبلغ ترقوته، يلبس ثوباً ناصعاً البياض، تتضوّع منه  
ريح الطيب، يمشي في وقار وسمت، هو عبد الله بن مسعود، والثالث ضخم طويل شديد  
الأدمة هو المقاد بن الأسود.

وانظر هذين الرجلين: هذا الطويل الجسيم خالد بن الوليد، وهذا القصير الألجل  
الأدجع عمرو بن العاص، وفي أثرهما رجل جميل، عظيم الهمة، مكتحل، يخطر في  
مشيته، هو معاوية بن أبي سفيان، وبجانبه رجل نحيف طوال معروق الوجه، خفيف  
اللحية، أجناً، أثرم الثنائيين، هو أبو عبيدة بن الجراح.

ويقبل من ناحية الحرة الشرقية رجال: سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن  
عبادة سيد الخزرج. وهذا الرجل الطويل النحيف، كثير الشعر، الذي عليه سيماء الحزن  
هو سلمان الفارسي، ووراءه رجل ربعة أحمر شديد الحمرة، كثير شعر الرأس، يخضب  
بالحناء هو صهيب الرومي.

وانظر بين الجمع طلحة والزبير وأبا موسى الأشعري وأبا أيوب الأنباري.  
ويأتي بنو الصحابة: فهذا الغلام الطويل الأحمر عبد الله بن عمر، وهذا الغلام  
الطويل الأبيض المشرب بالصفرة، الجسيم الوسيم، الصبيح الوجه عبد الله بن عباس،  
وهذا الصبي الذي يشبه أبا بكر عبد الله بن الزبير.

ويخرج رسول الله - صلوات الله عليه - فيقيم بلال الصلاة، فيسوّي الرسول الصفوف، ويُسد الفُرج فيها، ويُكْبِر فيكبرون، ويذهب هذا التكبير نغمة متسلقة بين ضوضاء العالم وجلبته، ودعوة للحق بين أكاذيبه وأباطيله. يذهب هذا التكبير في الأرجاء طمأنينة لقلوب، ورعدة لقلوب، ورجاء لقوم، وخوفاً لآخرين، يبشر الضعفاء والمظلومين بملكوت الله في الأرض، وينذر الجبارين والظالمين بالقصاص العادل. إنما مزق شمل الظالمين هذه الصفوف لا صفوف القتال، وإنما زلزل عروش الجبارين ذلك التكبير لا وقع النبال، ويقرأ الرسول في الركعة الأولى آيات من سورة النور منها: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الدَّيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْفَنُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْفَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَ لَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلُهُمْ مِنْ بَعْدِ حُوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ويقرأ في الركعة الثانية آيات من سورة الحج منها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ حَوَانٍ كُفُورٍ \* أَذْنَ اللَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ \* الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَأَنَّهُ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بِعَصْمِهِم بِعَيْنِ لَهُدْمَتْ صَوَامِعَ وَبَيْعَ وَصَلَواتُ وَمَسَاجِدُ يُدْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقُوَيْ عَزِيزٌ \* الَّذِينَ إِنْ مَكَانُهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

هذه جماعة يمحصها الله ليورثها أرضه، ويعلمها لتقوم بين الناس بعدله. هذا الصف من العباد يجمع خلفاء الأرض وأمراءها وولاتها وقضاتها وعلمليها وقوادها وجندها، تلك الشرذمة من الزهاد ورثة العروش والتيجان عما قليل، يقسم الله رزقه بأيديهم، ويصرّف حكمه في الأرض بأسنتهم. جماعة تضمهم جدر المسجد الاليوم، ولا يسعهم العالم غداً، جماعة تحويهم أرض ضيقه بين لابئين، ينتشرون بين المشرقين والمغاربيين، وستجف الأرض بحملاتهم، وتقرّ بعدلهم، وتضيء بإيمانهم.

قضيت الصلاة وانتشر المصلون.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَأَعْزَّ جَنْدَهُ، قَدْ فُتُحَتْ بِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ  
الْأَكْثَرَارَ، وَعُمِّرْتَ بِهِمُ الْأَمْسَارَ. هَذَا عُمَرٌ فِي الشَّامِ قَدْ أَزَالَ عَنْهَا سُلْطَانَ الرُّومِ، ثُمَّ جَاءَهَا  
لِيُبَرِّمَ الْعَهْوَدَ، وَيَتَفَقَّدَ الرُّعْيَةَ، وَهَذَا بَلَالٌ فِي جَيْشِ الْمُجَاهِدِينَ غَازِيًّا، يَنْظَرُ عُمَرَ إِلَى بَلَالِ  
يُودُّ أَنْ يَسْمَعَ أَذَانَهُ، وَيَهَابُ أَنْ يَسْتَمِعَ لِمَؤْذِنِ رَسُولِ اللَّهِ، وَيَقُولُ النَّاسُ لِعُمَرَ: لَوْ أَمْرَتَ  
بِبَلَالٍ أَنْ يَؤْذِنَ! فَيَقْرَحُ عُمَرٌ عَلَى بَلَالِ الْأَذَانِ، فَيَنْهَضُ الشَّيْخُ ابْنُ السَّبْعِينِ تَحْتَ أَعْبَاءِ  
السَّنْنِ، فَيَدْعُوهِي فِي الْأَرْجَاءِ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ.

لقد كان أذان الشام تصدق أذان المدينة، أجل أجل، لقد صدق الله وعده ففتحت  
الجامعة الصغيرة المالك، ودوى أذان المدينة في الآفاق.

ولكن انظر إلى عمر، ألا تراه ينمشج؟ ألا ترى دموعه تبُلّ حيته؟ ألا ترى القوم في بكاء ونحيب؟ فما أبكاهم؟ لقد نصرهم الله، ومكّن لهم في الأرض وأغناهم وأعزهم، فما دهاهم؟ وما أبكاهم؟

يُبَكِّونَ إِذْ رَأُوا الْمُؤْذنَ وَلَمْ يَرُوا إِلَيْهِمْ، يَكُونُ إِذَا سَمِعُوا مُؤْذِنَ رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ نَظَرُوا فِيمَا يَجْدِعُونَ اللَّهُ.

## الكعبة

هذه الْبَنِيَّةُ الْمَكَرَّمةُ، هذَا الْبَيْتُ الْمُعَظَّمُ، هذَا الْكَعْبَةُ الْمَشَرَّفَةُ لَا يَعْرُفُ لَهَا تَارِيخُ الْبَشَرِ مُثِيلًا، بَيْتٌ فِيهِ أَمَارَةُ التَّوْحِيدِ الْخَالِصُ وَالْحَنِيفَيَّةُ السَّمْحَةُ، خَلَا مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَالصُّورِ وَالزَّخَارِفِ وَالنَّقْوَشِ، وَقَامَ رَمْزًا لِتَوْحِيدِ اللَّهِ، وَلَاتِحَادِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. تَهْفُو إِلَيْهِ أَفْئَدَةُ الْمُؤْمِنِينَ حِيثُمَا كَانُوا، وَتَخْفَقُ لَهُ قُلُوبُهُمْ أَيْنَمَا حَلَوْا، وَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ قُلُوبُهُمْ أَنَّى تَوَجَّهُوا، فَلَوْ أَنْ بَيْتًا صُورٌ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنَيْنِ أَوْ سَوِيدَاوَاتِ الْقُلُوبِ لَكَانَ هذَا الْبَيْتُ الْكَرِيمُ. لَا تَمْرُ سَاعَةً مِنْ لَيلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا وَالآلَافُ مِنَ الْوُجُوهِ وَالْقُلُوبِ مُتَوَجِّهَةٍ إِلَى هذَا الْبَيْتِ، مُرْتَفِعَةٍ إِلَى رَبِّهِ قَرَاءَتِهِمْ وَتَسْبِيحَهُمْ، مَرْسَلَةٍ إِلَيْهِ أَمَالَهُمْ وَآلَاهُمْ، كَذَلِكَ هُوَ مِنْذُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِ دِينَهُ، وَدَعَا النَّبِيَّ إِلَى هذَا الدِّينِ، وَاسْتِجَابَ الْمُسْلِمُونَ لِهَذِهِ الدُّعَوَةِ، فَهُلْ يُعْرَفُ بَيْتٌ أَخْرَى عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، وَعَلَى طُولِ التَّارِيخِ، تَطْمَحُ إِلَيْهِ الْأَبْصَارُ، وَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْأَفْئَدَةُ بِضَرِاعَتِهَا وَدُعَائِهَا وَاسْتِغْفَارِهَا، وَبِرْجَائِهَا وَأَمْلَهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ؟

إِنَّ كُلَّ مَغَناطِيسِيْسَ عَلَى الْأَرْضِ يَتَجَهُ إِلَى الْقَطْبِ أَبْدًا، إِنَّ أَدْرَتَهُ عَنْهُ دَارَ إِلَيْهِ، وَإِنَّ صَرْفَتَهُ جَهَدُ طَاقَتِكَ لَمْ يَنْصُرِفْ عَنْهُ، وَإِنَّ أَحْطَتَهُ بِآلَافِ الْحَجَبِ فَهُوَ مُوصَولُ بِهِ نَازِعُ إِلَيْهِ، فَمَا أَشْبَهَ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوْجِهِهَا إِلَى الْكَعْبَةِ بِالْإِبْرِ الْمَغَناطِيسِيَّةِ الَّتِي تَتَجَهُ إِلَى قَطْبِهَا لَيلَ نَهَارٍ عَلَى بُعْدِ الْأَقْطَارِ، وَالْخُلُفَاءِ الْأَمْصَارِ، وَشَتَانَ بَيْنِ الْقُلُوبِ النَّابِضَةِ وَالْإِبْرِ الْجَامِدَةِ.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ هذَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، حَرَّمَهُ وَحْرَمَ الْبَلْدَ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَحْرَمَ أَرْضًا حَوْلَ هذَا الْبَلْدَ، جَعَلَهَا أَمْنًا لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيْوَانِ الْأَعْجَمِ وَالْبَنَاتِ، فَزَائِرُ هذَا الْبَيْتِ فِي حَرَمَاتِ مَضَاعِفَةِ، وَقَدْسِيَّةِ مُوكَدَةِ، وَأَمْنِ مَظَاهِرِهِ. وَقَدْ جَعَلَ حَوْلَ الْأَرْضِ الْمَحْرَمَةِ مَوَاقِيتَ

يُحرِّم منها القاصد إليها، فيتحرر من اللباس والزينة حتى لا يمتاز قوم من قوم، ولا غني من فقير؛ ليدخل الناس إلى هذا الحرم ثم إلى هذا البيت أمة واحدة تعبد إلهاً واحداً، اتحدت ظواهرها وبواطنها، وعوائدها وعواطفها، واجتمعت على البر أيديها وألسنتها وقلوبها وأعمالها، وإن في ذلك آيات.

وتؤمّن وفود المسلمين هذا البيت الذي اتجهوا إليه على بعد الديار، فيرون قبلتهم عياناً، وبيتهم جهرةً، يصلون حوله في كل جهة، قد امْحَت المسافات والجهات، فهم عند هذا البيت كأبر المغناطيس إذا بلغت قطبها، تدور في كل جهة، لا شمال ولا جنوب ولا شرق ولا غرب. ومن دخل البيت صلٍ في مكانه إلى كل الجهات؛ إذ بلغ المركز الذي تتجه إليه وجوه المسلمين وقلوبهم في الأقطار كلها، مركز الدائرة التي تجمع المسلمين على العقائد الحقة، والعمل الصالح، والخلق البر، والجهاد لخير الدنيا والآخرة، والأخوة والمودة. إنها الوحدة الحسّة، والأخوة المحسّنة، والمحبة الممتلأة، لا يعرف لها حاضر البشر مثيلاً، ولا يذكر لها ماضيهم نظيراً.

ما أبصرت هذه الكعبة الكريمة إلا تخيلت بناء من العقيدة المحكمة، والتوحيد الخالص، وإن تمثلت أدعية الداعين في الشرق والغرب، وأهات الضارعين بالليل والنهار تهوي عليها، وتطيف بها في الغدو والآصال والبكر والأسحار، مع أنفاس الطائفين، ومع أشعة الشمس والقمر ونسمات الهواء.

وما طفت حولها إلا تمثلت هذه الدائرة الإسلامية الجامحة تدور حول هذا المركز الحق الذي لا يتبدل ولا يتغير.

وكم عبرة وذكرى في هذه الوجوه الطائفة، بل القلوب الخائفة، بين غني وفقير، وقوي وضعيف، وقدر وعجز! أغناهم في هذا المقام أفقرهم، وأقواهم أضعفهم، وأقدرهم أعجزهم، بل لا غني ولا فقير، ولا قوي ولا ضعيف، ولا قادر ولا عاجز. إخوة متساوون، وجماعة موحدون، وأفراد على الحق يجتمعون، قد امْحَت بينهم الفروق، وضلت الأشخاص والأعداد، وبقي الخضوع لله الواحد القهار.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

# الحج

﴿وَأَذْنَنِ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ﴾ .  
ما يزال هذا الأذان مدوياً في الآفاق، تصيخ إليه الآذان، وتستمع إليه القلوب،  
ف تستجيب له أقطار الأرض باعثة بأفواجها تفيض بهم السبل، ويحملهم البر والبحر  
والهواء صوب الأرض المقدسة، شطر القطب الذي إليه تتوجه قلوب المسلمين، نحو مركز  
الدائرة الإسلامية الذي يدور حوله المسلمون وإليه ينتهيون.

ما يزال هذا الأذان مدوياً يجلجل في جوانب الأرض، فتصيخ إليه الآذان والأفئدة،  
و تستجيب أفواج البشر مُيمِّمة أرض الحجاز، وما تزال هذه الدعوة مستجابة تهفو بها  
أفئدة المسلمين إلى هذه البقعة المباركة من هذه الجزيرة العظيمة جزيرة العرب.  
هذه البوادر تمخر في اليم من أرجاء الأرض مشتقة إلى الحرمين لا تبعد عليها  
غاية، ولا يثنى من عزائمها هول.

وهذه الطائرات في أجواز الفضاء كالطير مسخرات في جو السماء تطير بالشوق  
والحب إلى مهوى الأفئدة ومطمح الأ بصار.  
وهذه السيارات تخدُّ البراري والصحاري، تشق سهلها وحزنها، وعامرها وغامرها،  
وجردها ووعتها، تذلل ما صعب، وتقرب ما بعد. عليها وفود البيت الحرام يجوبون  
الفلوات، ويحتملون المشقات، ويستسلهون كل صعب إلى مقصدتهم العظيم.  
ثم هؤلاء المؤمنون الصابرون، أولو القوة والعزم، وأهل الجلد والصبر الذين لا  
يجدون ما يحملهم فتحملهم عزائمهم، ويحملون أوزارهم وهمومهم ﴿أَمَّنِ الْبَيْتُ الْحَرَامَ  
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ ، غير مبالين بالشقة البعيدة، والفيافي القاحلة، هازئين  
بالجوع والعطش، والحر والبرد، والنصب والجهد. إيمانهم وأمالهم وعزائمهم أوسع من

كل صحراء، وأثبتت من كل هول، وأحر من كل بيداء محرقة. تراهم في السبل يحملون أزوابهم راجلين بالليل والنهار لا يفكرون في شيء ولا يبالون بشيء إلا المقصود العظيم، والغاية الجليلة التي خرجوا إليها. إنه الإيمان الذي لا يتزعزع، والعزم الذي لا ينتهي، والصبر الذي لا يقهـر.

إن البصر والخيال ليريان هذه القوافل تشق البر والبحر والهواء شهوراً متواالية لا تخلو ساعة من ليل أو نهار من قُصَاد الحجاز، حاجج البيت، وفود الأرض المقدسة يحملهم الشوق على طائرة أو بآخرة أو سيارة أو على الأقدام.

**يُؤمِّنُ هؤلَاءِ الْجَيْجَ عَلَى اختلاف أقطارهم وألوانهم الأرض التي نشأَ فيها دينهم،  
وعاشَ فيها نبيهم، ووُلدَ تاریخهم، ويقصدون القبلة التي يتجهون إليها على نأي الدار  
وينبع المزار، وتحتفق لها قلوبهم، وتتهفو إليها أفئدتهم.**

يدخلون إلى هذه البقاع وقد جمعهم توحيد الإسلام، وربطت بينهم أخوته، وأخلصوا دينهم لله، وتجردوا من أزياء الأوطان وشارات الأقوام، سواء قربتهم وبعدهم، وشرقيهم ومغاربيهم، وأسودهم وأبيضهم، وغنيهم وفقيرهم، وقويهם وضعيفهم، فإنما هو التوحيد الخالص، والأخوة الجامحة، والقلوب المتجمعة، والمقاصد المتفقة، لا تشغلهن ديار ولا أهل، ولا تفرقهن منازع ولا عصبيات ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ أَمْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونَ﴾. هنا الإسلام الحق الذي وحد الله، وسوى بين خلقه، وأخى بين عباده. إنك لا ترى أجساماً، ولكن معانى يجمعها كلها توحيد الله وأخوة المؤمنين.

ولو ترى هذه الوفود طائفين بالكعبة ليل نهار، مصلين حولها صباح مساء، وتخيلت الجماعات الإسلامية من ورائهم متلاحقة متواتلة، وقلوبهم ووجوههم إلى هذا البيت؛ لتمثل الأمة الإسلامية كلها جماعة واحدة قائمة تصلي شطر البيت الحرام، وعرفت جلال هذا الدين، وعظمة هذا الحج، وحكمة هذه القبلة، وتوحد هذه الأمة، وتبينت غفلة المسلم الذي لا يبصر هذه الجماعة، ولا يدرك هذه الأخوة، ولا يقدر هذه الشعيرة، بل غفلة المسلمين جميعاً حين لا يبلغون بالحج مقصده، ويسيرون به إلى غايتها من التأليف بين المسلمين، والجمع بينهم، والائتمار فيه بما ينفعهم، والتشاور فيما يحزنهم، والعمل لما يسعدهم في دينهم ودنياهم.

وَتَمْثِيلُهُمْ وَقُوفًا في عِرَفَاتٍ حَاسِرِينَ خَاشِعِينَ، مُلْبِينَ دَاعِينَ، تَكَادُ تَتَقَوَّلُ خَفَقَاتُ قُلُوبِهِمْ اتِّفَاقَ كَلْمَاتِهِمْ وَنِسَاطِهِمْ، تَمْثِيلُ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ فِي صَعِيدٍ، وَالْإِسْلَامُ جَمِيعُهُ فِي مَوْقِعٍ. قَدْ

اجتمعت أوطان المسلمين في هذه البقعة، وحشر تاريخهم في هذه الرقعة؛ أليست هذه الوقفة تجمع أوطان الإسلام جميعها؟ أليس هذا الاجتماع حلقة في سلسلة من التاريخ أولها وقوف رسول الله ﷺ مع أصحابه قبل سبع وستين وثلاثمائة وألف سنة اتصلت بها حلقات لا تقطع، وعرى لا تنفص حتى يومنا هذا. هنا الإسلام حاضره وماضيه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

إن هذا الحج لجدير أن يجرد المسلم من عصيانه وأهوائه، ويصفي نفسه، ويظهر قلبه، ثم يربطه صافياً ظاهراً بأخواته، ويؤلف بينه وبين غيره في جماعة المسلمين المؤتلفة، وأخوة المؤمنين المحكمة، ولكن هذه الجموع المحتشدة من أقطار الأرض، وهذه الأفواج المجتمعة من آفاق البلاد لا ييسر لها التعارف والتعاون إلا نظام محكم، وخطة جامعة يتتسنى بها التزاور والتعارف والاجتماع والتشاور في أمور المسلمين وأحوالهم. فلا بد أن يعمل المسلمون لهذا، ولا بد أن يتهيأ لخاostenهم الاجتماع بعد الحج؛ لينظروا في أدوات المسلمين، ويطبو لها، ويتعرفوا الصالح والفاسد من أمورها، فيتوسلوا إلى حفظ ما صلح، وإصلاح ما فسد، ويطلعوا على المسلمين كل عام بالرأي السديد، والدواء الناجع فيما يحزبهم في هذا العالم المضطرب التي تُتحسن فيه العقائد والسنن الإسلامية بالأراء الفتنة، والمذاهب الضالة، والفتنة الفاشية التي لا يثبت لها إلا من ثبته الله بعقل حكيم، وخلق قويم.

إن المسلمين اليوم في غمرة من الفتنة المحيطة، والمكايد المحدقة، والأهواء المضلة، فلينظروا لأنفسهم، وليسارعوا إلى العمل لصون عقائد الإسلام وشرائعه وسننه وآدابه. إن موسم الحج لأجدر المجامع أن ينتفع به المسلمين، وأنجع الوسائل للتشاور فيما يهمهم، والعمل لما ينجيهم؛ فليعملوا ثم ليتعلموا، والله يهبي لهم الرشد، ويهديهم سواء السبيل.



## يوم عرفات

أتري الحجيج زرافات يهربون إلى عرفات، بعثتهم الأرجاء البعيدة إلى ساحة القرب، وأرسلتهم البلاد المختلفة إلى أرض الوحدة؟ قد خلعوا ثيابهم فخلعوا الفرقة والخلاف، وطربوا كل ما صنعوا لأنفسهم من عظمة وحقارة، وسيادة وعبودية، ونبذوا ما خاط عليهم الزمان من عداوة وبغضاء، وتنزعوا ما في صدورهم من غلٌ، وما في نفوسهم من شهوات، والتلّفوا في ثوب من المساواة واحد، وصيغوا جميعاً صوغ إنسان فرد، عبيداً لله وإخوة في الله. هذه الإنسانية في أبهى حقائقها وأخفى أسرارها.

اتحد الفكر في رءوسهم، والشوق في ضمائرهم، تكاد تتفق خفقات قلوبهم، ويتحدد تردد أنفاسهم، فهم نغمات موزونة، ولحون منظومة، وقصيدة موحدة الروي، مؤتلفة القرى، بل هم واحد ذو أسماء متعددة، أو ظلال لحقيقة واحدة. ليس في أفئدتهم وعقولهم إلا الله الواحد، وليس في نزعاتهم إلا الأخوة الشاملة.

أتسمع التلبية يسيل بها كل واد، وتتنزع بها الوهاد، وتدوي بها النجاد، ترفعها الأodieة إلى الهضاب، وتسيلها الهضاب إلى الأodieة؟ فما الهواء إلا نبرات هذه القلوب، وزفرات هذه الصدور، والأرض راجفة خاسعة كأنما اختلاج الناس على جلدتها، قشعريرتها ورعدتها.

أتري الناس على عرفات ألفاظاً كثيرة من أحرف قليلة، أو كلمات عدة ترافت على معنى واحد، وقد تجلى هنالك الله وحده، فلست ترى هنالك إلا عبده.

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. اللهم هذا جنابك الذي يهفو إليه الناس،  
فيصيغ العصاة حتى أبو نواس:

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك لبيك قد لبيت لك<sup>١</sup>  
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك  
ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك لولاك يا ربى هلك  
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك  
كلنبي وملك وكل عبد سألك سبّح أو لبّي فلك  
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك  
والليل لما أن حلك والسابقات في الفلك على مجاري المنساك  
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك  
يا خاطئاً ما أغفلك اعمل وبادر أجلك واختتم بخير عملك  
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

لبيك ربنا قد تركنا الأقوام والشعوب، ونبذنا الأضغان والحقود، وطرحنا الباطل وزخارفه، والزور ووساوسه، والتكلب على الحطام، والاعتراك على الشهوات والخصام، وتركنا الأنبياء يفترس الأنبياء، والناس يقودهم إبليس، وجئنا إلى ساحتكم بأبصار كليلة تبغي نورها، وتغوص علية تطلب بُرءها، وقلوب صدئة تلتمس جلاءها، وعقول مظلمة ترجو ضياءها، جئنا بأوقار من الذنوب، وأوزار من العيوب، فامحق الأوزار، وأرجعنا من الأطهار. اللهم بصيصاً من هداك ينير الظلمات، وقبساً من علمك يكشف الشبهات، وقطرة من رحمتك تحيي الموات.

اللهم وهذا مقام رسولك الأمين، وهذا صوته المبين، لا يزال يرن في الآفاق ويخترق السبع الطياب: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد». «أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرنون من أعمالكم».

<sup>١</sup> تلبية نظمها أبو نواس حينما حج.

«فلا ترجعنَّ بعدِي كفارًا يضرُّ بعضاً مِّنْ رقابِ بعضٍ؛ فَإِنِّي قدْ ترَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخْذَتُمْ بِهِ لَنْ تَضْلُّو بَعْدَهُ: كِتَابَ اللَّهِ أَلَا هُلْ بَلَغْتَ؟ اللَّهُمَّ اشْهِدْ».٢  
«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنْ أَبْاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لَآدَمُ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ. أَكْرَمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقُكُمْ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجْمَيٍّ إِلَّا بِالْتَّقْوَىٰ. أَلَا هُلْ بَلَغْتَ؟ اللَّهُمَّ اشْهِدْ».٢  
اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ الْحَجَّاجُ عَطَاشُ وَرَدُوا شُرْعُوكَ، فَانْقَعُ غَلْتُهُمْ، وَسَفَرَ لَوْحَتُهُمُ الشَّمْسُ،  
وَلَفْحَتُهُمُ السَّمُومُ، فَهَرَعُوا إِلَى ظُلُكِ فَأَظَلُّهُمْ، وَضُلُّالُ ابْنَهُمْ عَلَيْهِمُ السَّبِيلُ، فَأَرَهُمُ الطَّرِيقَ  
لَاهْبَةً، وَالصُّوَىٰ وَاضْحَةً، وَأَعْدَاءُ فَآلَفُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَمُخْتَلِفُونَ فَوْحَدُ كَلْمَتُهُمْ، وَمُتَنَاكِرُونَ  
فَعَرَّفُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا.  
اللَّهُمَّ هَذَا تَجْلِيكَ، فَمَا زَانَ تَغْنِيَ الْكَلْمَ، اللَّهُمَّ قَدْ عَيَّ اللِّسَانُ، وَوَقَفَ الْقَلْمُ.

٢ جمل مقتبسة من خطبة الوداع.



## من مؤته إلى اليرموك

١

في العام الثالث بعد الستمائة من الميلاد، وذلكم قبل بعثة رسول الله بست سنين، اشتعلت الحرب بين الروم والفرس. وهي حلقة من سلسلة طويلة من الحروب بدأها منذ ظهور الرومان في غرب آسية، واستمرت بين الرومان والأشكانيين، ثم ورثها الساسانيون والبيزنطيون حتى شغلت من التاريخ سبعة قرون بين الاشتغال والخمود. وهذه الحلقة الأخيرة التي سبقت البعثة واستمرت بعد الهجرة سبع سنين، وقد اهتم بها العرب ونزلت فيها آية من القرآن: ﴿غَلَبْتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَقْبَلُونَ \* فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. انتصر الفرس في عهد كسرى برويذ على الروم زهاء عشرين سنة متواتلة، فسلبوهم كل ما ملكوا في آسية، وفتحوا بيت المقدس وأخذوا الصليب الكبير، ثم غلبوهم على مصر، وظهرت جيوش الفرس على أبواب القسطنطينية مرات، وظن الناس أن الروم لا تقام لهم قائمة.

ثم أجمع الروم أمرهم، وقادهم هرقل من ظفر إلى ظفر خمس سنين أنت على كل ما ناله الفرس في الحروب المتمادية، وخلع كسرى برويذ بعد أن أخرجته الهزائم من دار ملكه، ومات ذليلاً حزيناً وخلفه ابنه قباز الثاني، فصالح هرقل على أن يرد على الروم كل ما سلبوه في آسية ومصر، وأن يرد الصليب المقدس، وسار هرقل في أعظم مواكبته إلى بيت المقدس ليضع الصليب موضعه في ديسمبر سنة ٦٢٩ م. وبلغ هرقل من العزة والهيبة والصيت ما بلغ.

في جمادى الأولى سنة ثمانٌ من الهجرة، بعد غزوة خيبر بشهرين، وجه رسول الله ثلاثة آلاف من أصحابه إلى الشام، وجعل القيادة لزيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة. وكان هذا إيداناً بعد الشقة، وجسامنة المطلب، وعظيم الخطير.

لماذا سرّ الرسول — صلوات الله عليه — جيشاً لحرب الروم في أرض بعيدة؟ يقول المؤرخون: إن الغسانيين قتلوا رسوله إلى أمير بصرى، ولكن أحسب الأمر أوسع من هذا، فقد أراد المسلمون أن يُرهبوا الطامعين فيهم، ويعرفوا موقف القبائل العربية الضاربة في سلطان الروم: أحرب هم أمن سلم؟

سار المسلمون إلى معان، فإذا هرقل الذي حالفه الظفر خمس سنين حتى رد إلى سلطان الروم ما أخذته الفرس، وزلزل سلطان كسرى في ديار كسرى، قد جمع في مأب جموعاً حاشدة من الروم والعرب. وتشاور المسلمون وهموا بأن يكتبوا إلى الرسول، ولكن ابن رواحة قال: «يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجمت له، خرجمت تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينين: إما ظهور، وإما شهادة».

التقى الجماعون عند مؤتة، وهي قرية في البلقاء التي تسمى اليوم شرق الأردن إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت، واستعرت الحرب وقاتل زيد بالراية حتى قتل، وتقدم جعفر للشهادة فقاتل حتى نالها، وتلاه ابن رواحة فقتل، فاجتمع الناس على القائد المحكّ المظفر خالد بن الوليد، فقاتل كما يقاتل خالد حتى تراجع بالجيش الصغير، فأنقذه من الجموع المطبقة عليه، فَعَلَ القائد الحازم لا يهلك جيشه في معركة خاسرة.

ثم شغل المسلمون بفتح مكة وما تلاه من الأحداث، وبعد سنة من موقعة مؤتة دعا الرسول إلى غزو الروم «في زمن عسرا من الحر، وجذب من البلاد»، زمن تدعوه فيه إلى الحرب ضرورة لا بد منها، وعلم الناس أنهم يُدعون لغزو الروم، غزوبني الأصفر، وهو يعلمون من سلطانهم وقوتهم وانتصارهم على الفرس ما يملؤهم هيبة، حتى قال بعض

المنافقين: «أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟! والله لكانى بكم غداً مقرنين في  
الحال».»

سار الجيش إلى تبوك، وكانت على حدود البلاد الخاضعة لسلطان الروم في الشمال، فأقام بضع عشر ليلة، وصالح الرسول – صلوات الله عليه – أهل دومة الجندي وأيلة وجرباء وأذرُّح، ورجع المسلمين وقد صالحوا من صالحوا، وأرهبوا القبائل الضاربة في الشمال، وأعلموا الروم أنهم غير عاجزين عن الجمع والسير للقتال. وكانت غزوة ذات أثر في تمكن هيبة المسلمين في القبائل الشمالية، ومحو ما أصاب المجاهدين في مؤتة، والتمهيد لإقامة سلطان الإسلام في تلك الأرجاء.

٤

ثم أعد الرسول جيشاً للمسير إلى البلقاء حيث تراجع المسلمين في غزوة مؤتة، وجعل عليه أسامة بن زيد أول قائد للمسلمين في تلك الغزوة، وتوفي الرسول واشتعلت الفتنة في الجزيرة، وسأل الناس أبا بكر أن يبقى الجيش ليقيي المدينة غارات القبائل المرتدة، ولكن خليفة رسول الله أصر الإصرار كله على أن ينفذ الجيش الذي أعدده رسول الله، فسار الجيش إلى حيث أمر الرسول، فغنم وسلم. وذلك في السنة الحادية عشرة، وهو تدبير عظيم لم يلقه الروم ومن والهم من العرب بكفایته من الاهتمام والتفكير.

٥

وبعد سنة وأشهر من رجوع جيش أسامة، وذلكم أوائل السنة الثالثة عشرة، عزم المسلمون على فتح الشام، وسيَّر أبو بكر جيوشاً أربعة لهذا الفتح، وتتابعت الواقئ إلى الموقعة الحاطمة موقعة اليرموك، التي جعلت هرقل يodus الشام وداعماً لا لقاء بعده. وقد أدار هذه الموقعة الفاصلة خالد بن الوليد، القائد الذي شهد مؤتة وانحاز بجيشه فخلصه من براثن الموت. ولو لا ضيق المجال لفصلت القول، وسردت الحوادث، مبيناً عن الصلات الجامعة والقرابة الواشجة بين هذه الأحداث.

تلکم صور متفرقة في كتب التاريخ، شتیة في رأي مطالعه، ولكنها في الحق أوجه لحقيقة واحدة، أو أمواج من بحر واحد، أو فصول متتابعة من كتاب، أوجه من هذا اليقين الذي ملاً قلوب العرب المسلمين، وأمواج من هذا الجهاد الذي اعتزمه العرب

ال المسلمين، وفصول من هذا المجد الذي سطّر العرب المسلمين قصته؛ أولها خالد ينحاش بجيشه ليقيه غائلة الروم، وأخرها خالد يقدم بجيشه ليمحو سلطان الروم، ويمد سلطان المسلمين على الشام وما وراء الشام، وفي ثناياها حقائق من الأخلاق والسنن والتاريخ، هي التي تجلت سريعاً فجمعت في سلطان العرب المشرق والمغرب، و«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ».

# أيام العروبة تبدأ في سوريا!

سورية الكريمة العزيزة، سورية الجميلة الجليلة، سورية العربية الأبية، سورية الشجاعة الجريئة المجاهدة، تغسل عنها العار، وتستقبل الكرامة، وتبسم للحرية بعد أن طال عبосها للعبودية، وتطوي صحفة لعدوها سواداء؛ لتنشر صحفة لنفسها بيضاء، وتحتم جهاد المعذين لتبدأ جهاداً في الحياة السعيدة المجيدة، وتستأنف سيرتها العظيمة لتصل حاضرها الكريم وماضيها الخالد بمستقبلها الوضاء.

دمشق العتيقة الحديثة، دمشق الماضية الحاضرة، التي ثبتت للخطوب ثبات «قاسيون»، وابتسمت للمحن ابتسام مروجها وجنانها:

دمشق! مجتمع الأحداث قد زخرت فيها كما اندفقت في البحر أنهار

دمشق، قد استدار لها الزمان، ورد عليها الدهر مجدها المنشود، فهي اليوم ظافرة، فرحة، تأسو جراها، وتُعد للمستقبل عدتها، قد انجلت عنها الغمرات، كما ينجل النقع عن البطل المرزاً يصعب جراحه، ولواء النصر في يده:

مرزاً بتلقي الخطب منصلتاً تتشق عنه من الأهوال أجفان

ليت شعري كيف الغوطة والربوة ودمُر والهامة، اليوم؟!

أترى أشجارها تتمايل طرباً، وأوراقها تصفق فرحاً! وكيف قاسيون ذو القمة  
الجرداء والسفوح الأخضر؟

نَسْرٌ يُرَى اللَّوْحَ مِنْهُ هَامَةٌ عُطْلًا      لَكِنَّهُ ذَنَبُ الطَّاوُسِ جَرَارًا

كيف هذا النسر اليوم؟! أتراه شمخ برأسه عزة بعد أن رمى عنه آثار المذلة، وحلّ  
على الرياض فرحاً في هذا النهار بعد أن وقع كثيراً في ذلك الليل!  
وكيف «بَرَدِي» ذو الفروع السبعة؟! فهو اليوم جذلان مطرد يصفق ماؤه بنسيم  
الحرية، وتمحو جريته الظلال البغيضة التي تراءت على صفحته في سني الاستعباد؟!  
وليتني أرى الآن جامع بنى أمية، هل نطقت جوانبه تسبيحاً وتهليلًا؟  
وهل تهم قبة النسر بالتحليق كما يحلق الطائر الوحشي قطع الشرك أو انفتح عنه  
المحس؟!<sup>١</sup>

وكيف أبطال تاريخنا في المدينة وحولها؟! كيف معاوية والوليد؟ وكيف نور الدين  
وصلاح الدين؟! وكيف الظاهر والعادل؟!  
وكيف أبطال الجلاد في عصرنا، الذين نازلوا الباطل المدجج عزلاً فزلزلوه حتى  
هدموه؟!  
وليت شعري هل انبعث الأذان من قبر بلال في مقبرة الباب الصغير إيذاناً بالفجر  
من هذا العهد المبارك؟

وحلب الشهباء، مدينة سيف الدولة والمتنبي، حلب التي أمدت الثغور بأبنائها قروناً،  
ودفعت الروم عن الشام عصوراً، كيف جذلها اليوم وأين متتببيها، ينشد قصائد المجد  
ليرويها الدهر؟

وكيف قلعة حلب اليوم وقد لفظت المذلة، واعتزت بما فيها من آثار المجاهدين  
الأولين؟

<sup>١</sup> قبة المحراب في الجامع الأموي تسمى قبة النسر.

أيام العربية تبدأ في سوريا!

لقد دخلتها أول مرة — قبل خمسة عشر عاماً — ورأيت جنود السنغال فيها  
يخطرون، وينهون ويأمرون، فأنشدت وفي النفس ما فيها من حسرات:

سادات كل أناس من نفوسهم      وسادة المسلمين الأعبد القزم

فقد رفعاليوم عليها لواء الحرية، ورحضر عنها عار العبودية، فحالت بناءً جديداً،  
ومرأى حميداً، وكأن كل شيء فيها قد استحال!  
ليت شعري هل نقطت فيها الآثار الصامتة، وضحك على بابها الأسد الباكي؟<sup>٦</sup>

وليتنياليوم في حمص أقف في روضتها، كما وقفت من قبل أستمد من ضريح خالد بن  
الوليد كل معنى جليل!  
ليتنياليوم على قبر خالد أبشره أن الزمان قد استدار، واستقلت الشام بأبنائها  
الأحرار!

فليصفق نهر العاصي طرباً، وليزهر الديماس فرحاً، فقد أقبل الربيع بربيع الحرية  
الناضر، وعهدها الظاهر:

يا دار هذا أوان السعد فاغتبطي      لا عادك النحس بعد السعد يا دار

وحماة المجاهدة، هل تبدل أذين نعيرها غنا، واستحال دموعها في البساتين ماء؟!  
ما أجمل غناء النوعي في حماة اليوم!  
قد مضى عهد البكاء، فليدم اللهم هذا الغناء! وكيف أبو الفداء في قبرهاليوم؟  
يا أبو الفداء، لقد طال الهجود، فقم وأضف إلى تاريخك هذا الفصل الجديد!

يا سوريتنا الجميلة الحبيبة، حيا الله فيك كل مدينة وقرية، ونضر كل دارة وبقعة،  
وحباك السعد مطرداً مع الزمان، دائراً مع السنين.  
ورحم الله كل مجاهد أمدك بحياته، وسقى ترابك بدمه، وثوى في الأرض كلمة باقية  
في سطور تاريخك الخالد.

<sup>٦</sup> في مدخل القلعة صورتان من الحجر لأسميين يقال: إن أحدهما يضحك، والآخر يبكي.

ونَضَرَ اللَّهُ وِجْهَ الْمُجَاهِدِينَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ صَبَرُوا وَصَابَرُوا، وَبِسْمِ الْخُطُوبِ السُّودِ  
فِي الظُّلَامِ الْمَكْفُورِ، حَتَّى تَلْجَ الصَّبَاحَ: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا  
وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.

وَحْيَا اللَّهُ هَذَا الرَّئِيسُ الْأَمِينُ، الطَّاهِرُ الْقَلْبُ، الْمَبَارِكُ النَّاصِيَةُ «شَكْرِي»، شَكْرُ اللَّهِ  
مَسَاعِيهِ، وَحْيًا أَصْحَابَهُ الْكَرَامُ، وَحْيًا كُلَّ مَنْ شَارَكَ فِي تَحرِيرِ سُورِيَّةَ، بِيَدِهِ أَوْ لِسَانِهِ.  
وَبَعْدَ: فِيَا سُورِيَّتَنَا الْعَزِيزَةِ، قَدْ رَفَعَ الزَّمَانُ الْأَعْبَاءَ عَنْ كَوَافِلِ الْأَعْدَاءِ، فَوَضَعَهَا عَلَى  
كَوَافِلِ الْأَبْنَاءِ، فَلَيَحْمِلُوا أَعْبَاءَ الْوَاجِبِ؛ وَلَيَؤْدُوا تَكَالِيفَ الْمَجْدِ، وَلَيَبْنُوا مَسْتَقْبَلَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ  
لِأَبْنَائِهِمْ، وَلَيَعْلَمُوا أَنَّ حَاضِرَ الْعَرَبِ يَؤْمِلُ فِيهِمْ، وَمَاضِيَ الْعَرَبِ يَنْظَرُ إِلَيْهِمْ، وَمَسْتَقْبَلُ  
الْعَرَبِ يَنْتَظِرُهُمْ، فَلَيَجْمِعُوا الْقُلُوبَ وَالْأَيْدِيَّ، فَلَيَجْيِدُوا الْكِتَابَةَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ  
أَلَا إِنَّهُ قَدْ فَتَحَتْ لَهُمْ صَحَافَةً فِي التَّارِيخِ جَدِيدَةً، فَلَيَجْيِدُوا الْكِتَابَةَ فِي هَذِهِ الصَّحَافَةِ  
الَّتِي تَخْلُدُ كُلَّ شَيْءٍ؟

إِنَّهُمْ يَبْنُونَ أَجْيَالًا، وَيَكْتُبُونَ تَارِيْخًا، فَلَيَنْظُرُوا كَيْفَ بَنَاءُ الْأَجْيَالِ وَكِتَابَةُ التَّارِيْخِ؟  
يَا سُورِيَّةَ الْجَمِيلَةِ، إِنَّ أَبْنَاءَكَ الْيَوْمَ فِي رَجْعَوْنَ مِنَ الْجَهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجَهَادِ الْأَكْبَرِ.

## مكانة العرب بين الأمم

تخلد الأمم على وجه الأرض وتحيا على مر الدهور وتثبت في صفحات التاريخ بأسباب وقوانين، ويختلف حظها من الخلود ومن المجد باختلاف هذه الأسباب المواتية، والقوانين السارية، قوّةً وضعفاً، وإبطاءً وإسراعاً، وضيقاً واتساعاً، وهي أسباب متصلة متشابكة، يؤدي بعضها إلى بعض، ويمسك بعضها ببعض، من هذه الأسباب صلاحية الوطن، والقوة الحسية والمعنوية، والثبات للحداثات، والاحتفاظ بالخصائص، والاعتداد بالنفس والثقة بها، وحضارة الأمة وأثرها في العالم، وقدرتها على الأخذ والإعطاء في معرك الأمم، والمكانة بين الناس، وعظم التاريخ على مر الدهور.

فأما الوطن فقد منح الله العرب موطنًا فسيحاً وسطاً بين المواطن، فياضاً بالخيرات، بعيداً من الآفات الطبيعية المدمرة. موطن العرب جزيرتهم التي ولد فيها تاريخهم، ومثواهم القديم الذي عرفهم فيه التاريخ منذ تحدّث عن البشر، بين نجد إيران وجبال طوروس إلى البحر الأبيض، ثم متقلبهم الذي نشرهم فيه الإسلام إلى بحر الظلمات وأواسط إفريقياً.

وهو موطن شاسع الأرجاء، يقع معظمه في الإقليم المعتمد، وقليل منه في الإقليم الحار، وتجري فيه ثلاثة من أعظم أنهار العالم: النيل ودجلة والفرات، وتتقسمه السهول الخصبة والبراري والصحاري والجبال، وتمتد سواحله على بحر العرب، والبحرين الأحمر والأبيض. هذا الوطن العظيم يكفل الحياة القوية، والعيشة الغنية، والثبات على الخطوب، والبقاء على الزمان.

وقد جعل الله مهد العرب جزيرة ممتازة محدودة بالبحار من معظم جهاتها، فحفّظت هذا الجنس القوي بمعزل من تقلب الجماعات، بعيداً من طرق المهاجرات، فبقي يطبع الأجسام القوية، والطبع السليم، والفتر الخالصة، ثم يمد بها أجزاء

الموطن العربي الكبير، كلما نالت الخطوب من أهلها، أو أترفthem الحضارة، وما يزال يقذف بهم موجة بعد موجة كالنهر العظيم المتافق من قن الجبال، بعد ينبعه من الشوائب، واطرد مجراه إلى الغاية المقدورة له، ونبتت على عربه الزورع والأشجار، وحيث الأمم.

ما تزال جزيرة العرب خلقة ولادة فياضة ممدة لأقطار العرب بالقبييل بعد القبييل، فإن بليت الأمم فهذه الأمة لا تبلى، وإن أفنت الأقوام الحوادث فالعرب لا تفنى، وإن نصب معين الأمم فلن يغيب الدم العربي الخالص ما دامت أنهار الله جارية في أرض الله، وما دامت شموسه وهواؤه وأرضه تبني الأجسام، وتطبع الأقوام.  
وأما الثبات للحوادث الطبيعية والإنسانية، فما دام هذا الوطن العظيم يعرف بعضه بعضاً، ويتصل بعضه ببعض، فستجد كل ناحية في النواحي الأخرى ما يسعفها بمتطلباتها إن قحطت، وما يدرأ عنها الأحداث إن طفت عليها، ومحال أن تعمها كلها الحوادث، إلا أن يكون حادث القيامة حين يرث الله الأرض ومن عليها.

وأما احتفاظ الأمم بخصائصها، فعلى قدر ما في أجسامها وعقولها من قوة، وعلى قدر ما فيها من اعتداد بالنفس وثقة بها، والعرب من أقوى الأمم أجساماً وعقولاً، وأكثراها أنفة وإباءً، وعجبًا وفخرًا. والعربى منذ العصور الأولى يغلو في الاعتداد بنفسه، ويأبى أن يسويها بالأمم، ويربأ من مصادرتها، وقديماً أبى النعمان أن يزوج كسرى، وحديثاً قال أحد مجاهدي العرب في طرابلس الغرب، وقد عُقد صلح بين أهل طرابلس والطليان، وامتنَّ هؤلاء على العرب بأن سووهم بأنفسهم في الحقوق، قال هذا العربي المجاهد وهو ليس رئيساً ولا زعيماً: «وا سوأنا! أَسْوَى أَنَا بِالرُّومِي؟! إِنَّه لَذُلْ عَظِيمٌ». بل كان من آفات العرب الغلو في هذه الكرباء، فصعب أن ينقادو ويسلسوا القياد. فبهذا الشعور بالعلا والعظمة يعتزون بأنفسهم، ويمتازون بخصائصهم، ويتمسكون بأخلاقهم، وقديماً قال شاعرهم:

وإنني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وقدِّيماً رهن حاجب بن زرارة التميمي قوسه ملك الفرس ضمَّاناً لما التزم من خراج،  
وحارب بنو شيبان الفرس إباءً أن يسلموا سلاح النعمان بعد أن قتله كسرى، وقال أبو  
تمام يمدح بنبي شيبان:

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها  
فأنتم بذى قار أمالت سيوفكم  
وزادت على ما وطدت من مناقب  
عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

والمثل أكثر من أن تُذكر في هذا المقام، وأبین من أن تبين. إذا حاطت الأمة القوية  
أنفسها وخصائصها بأخلاقي قوية كفلت دفع الخطوب عن حوزتها، ولا سيما الأخلاق  
الإنسانية العزيزة التي تأبى للأمة أن تخضع فتنل فتنقى، والعربى في جاهليته وإسلامه  
أبى حر، يأْنف أن يستعبد أو يستعبد، وقد أمدَّ الإسلام بفضائل سيرته على وجه الأرض  
كالنجم: لا يضل ولا يكل، وجعلته قانوناً من قوانين الله يسير إلى غايته مسيرة الشمس  
والقمر في حبك السماء.

وكلاماً آخرجت الأمة من عمل أيديها، وأظهرت من نتاج عقولها، ونشرت من ثمرات  
أخلاقها وأدابها، زادتها صناعاتها وعلومها وأدابها رسوهاً على الأرض، وثباتاً على مجرى  
الخطوب.

ولا يعرف التاريخ أمة أثرت على وجه الأرض، وشادت في الآفاق وفي الأنفس أكثر  
من العرب.

لا يعرف التاريخ أمة حملَته أكثر مما حملوا، أو جملته أحسن مما جملوا، أو  
سيطرت عليه أعظم مما سيطروا، أو سطَّرت على صفحاته أجلَّ مما سطروا.  
فإذا تركنا التاريخ القديم: من معين، وسبأ، وحمير، ومن بابل، وأشور، فهل يحدثنا  
التاريخ عن أمَّة طلعت على العالم بمثل ما طلع العرب؟ همة ذلك المشرق والمغرب في  
سنين، ونية تريد الخير للناس أجمعين، وعدلاً يسوّي بين الجبارين والمستضعفين، بل  
يمحو من الأرض كل جبار ومستضعف، ويقف الناس جميعاً إخوة على سنن من العدل  
المطلق، والمساواة الكاملة، والأخوة الشاملة.

هل يعرف التاريخ أمة جمعت في سلطانها ما جمع العرب من أمم وأقطار، ثم آخذت  
بینهم وحفزتهم إلى الفضائل والآداب والعلوم والصناعات، فإذا معظم العالم المتحضر  
تعاون على نسج حضارة واحدة عظيمة، كل أمَّة على قدر مواهبها وقوتها، فوصلت  
ما انقطع من سير الحضارة، وقطعت ما اتصل من سير الجبروت والاستعباد، والشر

والفساد، وما فعلوا هذا كله إلا ابتغاء وجه الله، وقصدًا إلى إصلاح الناس وعمان الأرض؟ وقد ربط التاريخ ذكرى العرب وتاريخ العرب بهذه المأثر، وتلك الفضائل والأخلاق والمكارم، وضمن لهم الخلود ما بقي للناس سيرة في الفضائل والمعالي.

لا أقول: إن الإسلام صُنْعُ العرب، فالإسلام صُنْعُ الله، ولكن العرب كانوا أول من حُمِّلوا هذه الأمانة فحملوها، ودعوا إلى هذه المعالي ففقهوها، وكلفوا نشرها فنشروها، فكأنما خلقت لهم، أو خلقوا لها، وكانوا أحق بها وأهلها. وللأمم الإسلامية بعد هذا فضل لا ينكر. ثم أدب العرب، هل يعرف العالم أعظم منه سعة رقة، وطول مدة وجمالاً وجلاً؟

وإذا ثبَّتت الأمم ببنيانها على كر العصور بالسَّير المديدة، والمثل العالية، فعند العرب سَيرٌ رجف بها الزمان، وأقر لها الحدثان! وإن مكنت الأمم لأنفسها بالصناعات والعلوم والأداب، فعند العرب ما يكفل لهم التمكن في الأرض، والخلود في سجل التاريخ.

وبحسب المجادل أن يسير فكره بين هضب إيران وبحر الظلمات وجبال البرانس وغابات إفريقيا، ويعبر التاريخ في هذه المواطن كلها أربعة عشر قرنًا؛ ليرى مجد العرب، ويبصر حجة العرب.

ولا نقول: إن العرب خلقوا ولم يقلدوا، وابتدعوا ولم يتبعوا، وأعطوا ولم يأخذوا، وأغاروا ولم يستغروا، ولكننا نقول: إنهم أحسنوا الخلق والتقليد، وأجادوا الابتداع والاتباع، والأخذ والعطاء، والإعارة والاستعارة. والأمم تدل على فضائلها بالأخذ كما تدل عليه بالعطاء، وتثبت حياتها بالمحاكاة كما تثبتها بالخلق. وإنما حياة الأحياء على قدر ما تؤثر في غيرها وتتأثر. الذي لا يأخذ ولا يعطي جماد، والنبات يأخذ قليلاً ويعطي قليلاً، وانظر بعد هذا الحيوان الأعمج والإنسان، ثم اعتبر هذا في تاريخ الأمم يصح الاعتبار، ويطرد القياس.

تخلد الأمم بأفعالها وأثارها، ويقينها في أنفسها، ويزيدها مكانةً وتمكيناً في الخلود أن يزيد على مر العصور مجدها، وتعظم على كر الدهور بين الأمم مكانتها، حتى تعلو على أحداث الزمان ومطامع الإنسان، فتقر لها الأمم بالفضل، وتخلي لها سبيلاً في الحياة.

وللعرب من هذا كله نصيب موفور، وسعى بين الأمم مشكور، إلا من ضل به الهوى، أو جار به الحسد. وهم جديرون اليوم بتاريخهم، حقيقون بسيرتهم، ولن يكونوا إلا كما

كانوا من قبل دعاة حرية وأخوة، وهداة مدنية وعمران، وأئمة أخلاق وآداب، وأنصار فضيلة وحق، ولن يكون نهوضهماليوم إلا خيراً للبشر، وسلامة للناس أجمعين.

ولهذه الأمة الكريمة الخالدة لغة كريمة خالدة، أنضجها الزمان المطابق في البقاء الشاسعة من الجزيرة، وأخرجتها الفطرة السليمية، والإحساس المرهف، والإدراك النافذ، لغة كاملة معجبة عجيبة، تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثل كلماتها خطرات النقوس. تكاد تتجلّى معانيها في أجراس الألفاظ، وتمثل في نبرات الحروف، لأنما كلماتها خطرات الضمير، ونبضات القلوب، ونبرات الحياة، فالمعاني المحسنة والمعقوله مبينة في الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المشابهة، فتضع للشبيه لفظاً غير ما وضعته لشبيهه، إدراكاً للفرق الدقيق بينهما.

فإذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلاً كلمة واحدة، وضفت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم، وإذا دلت اللغات على صفات الوجه الإنساني مثلاً بكلمات مركبة لكل صفة، دلت العربية على كل حلية في الإنسان، وكل صفة في عينه وحاجبه وأنفه وفمه وأسنانه وغيرها بأسماء خاصة. وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل.

ثم هذا الإحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات، يتجلّى في التركيب مدهشاً، فكل كلمة لها في الجملة مكانة يحس بها المتكلم، أو تحس بها الكلمة نفسها؛ لتعطي صوتاً مكافئاً لهذه المكانة، فالكلمة الأصلية لها أقوى الأصوات وهو الضم، والآخريات لها الفتح والجر، وما أرى هذا إلا ضرباً من الحياة في الألفاظ والتركيب يبين عن أدق الإحساس وألطفه.

وإذا اشتغلت اللغات على كلمات هي مادتها، ففي اللغة مادة وقوالب يستعملها أصحابها حين الحاجة، فيها مادة وزن، فخذ المادة أو أخلاقها أو استعرها من لغة أخرى في قالب من قوالب الأسماء والأفعال، وصوّرها بالقوالب والأوزان ماشاء، فلغتنا تدل بالمادة والوزن، وبالصيغة والهيئة، فمن سمع فاعلاً أو مفعولاً أدرك أن هذا الوزن في حركاته وسكناته له معنى يلازمه في الموارد كلها. وبهذا حدث اللغة، واستبيان خصائصها، حتى نفت عن نفسها كل كلمة أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانيينها.

للأسماء أوزان وللأفعال أوزان، مما لا تزن هذه الأوزان فهو أجنبي، وبهذا بقيت على الدهر المطابق خالصة نقية، صحيحة قوية.

قيل: إن لغتنا صعبة بهذه المفردات، وبهذه التراكيب والأوزان، وإنها تكاد تأبى على دارسها، وتعجز طالبها. وهذا حق لا ندفعه، وإن عُدَّ عيباً فلا ننكره، ولكنه ليس من

نقصان في خلقها، أو اختلال في بنيتها، أو عجز في مواتها وأوزانها، ولكن نتيجة التطور الكامل، والنمو التام؛ فأدنى الأشياء في هذا العالم أيسرها وأقلها تركيباً، والكمال يصحبه التركيب والتفصيل، والأشكال والإعصار. اعتبر هذا في النبات والحيوان، في الحيوان ذي الخلية الواحدة والإنسان، ثم انظر المراتب بينهما، واعتبر هذا في البداوة والحضارة، وفي أنواع الحضارات التي تجد النقص بساطة ويسراً، والكمال تركيباً وصعوبة. الكمال في هذا العالم لا ينال إلا بتطور تلده الأحقيات، وتتواء به العزائم بعد العزائم، فلغتنا صعبة، ولكنها كاملة حية دقيقة مؤاتية، حية حساسة، موسيقية متلائمة.

وقد امتحنت هذه اللغة الحضارة الواسعة، واختبارها التاريخ الطويل، فلم تعجز ولم تعي ولم تضيق بكل ما أدركه الإنسان من علم، وثقفه من صناعة، بل وسعت حضارة القرون المطوالة، والأمم المختلفة، غير كارهة ولا مكرهة.

وقد أراد الله لها أن تكون لغة كتابه، وترجمان وحيه، وبلاغ رسالته، فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصوّراً كلمات وأيات، وجزيت على هذا خلوّاً ما خلد في الإنسان عقل وقلب، وما استقام له إحساس وإدراك. وتقلب الزمن، وتواتت المحن، وثارت الفتن وهي ثابتة، ناضرة، رائعة، ثبات قوانين الله، وروعة كواكب، خمسة عشر قرناً محت لغات، وخلقت لغات، وبدلت لغات، وحرفت لغات، والعربية هي العربية لم تمح ولا تُبدل، ولم تُغير، وما آية الخلود بعد هذا؟

ولم تبق هذه العربية لغة العرب وحدهم، بل ثقفتها الأمم الأخرى، وأولتها من الحفاوة والعناء أكثر مما أولت لغاتها أحياناً، فصارت لغة العلوم والأداب للعرب وغير العرب حقّاً طويلاً، ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق.

وقد حوت على مر العصور أدباً لا تحويه لغة أخرى، أدب موطنه ما بين الصين إلى بحر الظلمات، وزمانه أربعة عشر قرناً، ولا نعرف في آداب العالم قديمها وحديثها أدباً اتسعت به المواطن هذا الاتساع، أو امتد به الأعصار هذا الامتداد.

فالعربية بأهلها، وموطنها، وخصائصها، وأدابها، وتاريخها، والعربية بقرآنها خالدة باقية على الخطوب والعصور لغة دين وعلم وأدب وحضارة وإنسانية. فهل تنصرها هم أبنائها؟ و تستجيب لها عزائمهم؟

## وديعة مدينة سالم

١

محمد بن أبي عامر، شاب عربي، آباؤه من معافر، وخولته في تميم، دخل جده عبد الملك بن عامر الأندلس في جند طارق بن زياد، وارتقت بأسرته الأمور، حتى عدت في أسر الوزارات في الأندلس.

نشأ محمد نجيبياً، طموحاً، هماماً، تبشر مخايله بنباهة شأنه، وتعد همته بعظيم مستقبله، بل تكفل آماله سؤدده، ويضمن عزمه مجده. سهر ليله وهو طالب علم يفكر فيما يولييه القضاء إذا آل إليه أمر الأندلس. والمرء حيث يضع نفسه.

صار من أعون قاضي «قرطبة» محمد بن السليم، ثم وكيلأً لولي العهد هشام بن الحكم المستنصر، وتدالوت كفایته وحزمه المناصب إلى أن ولي شرطة «قرطبة» سنة إحدى وستين وثلاثمائة، فضبط الأمور، وقمع الأشرار، ثم دعاه الغزو فلبي، فاجتمعت له الشرطة وقيادة الجيش.

فأما حزمه في الشرطة، فقد قال فيه صاحب «البيان المغرب»:

فضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة من سلف من الكُفاة وأولى السياسة ... ولقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله ويكتبدون من رواعات طرائقه ما لا يكابد أهل التغور من العدو، فكشف الله عنهم - بمحمد بن أبي عامر وكفایته وتتزهه - فسد باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والدعارات، حتى ارتفع الباس، وأمن الناس، وأمنت عادية المجرمين من حاشية السلطان، حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلداً مبرحًا كان فيه حمامه، فانقطع الشر في أيامه جملة.

وأما الغزو فكان قائد المظفر، وبطله المحب. وسيأتي حديثه.  
ما زال ابن أبي عامر يرقى منصباً إلى منصب، ويعلو مجدًا إلى مجد كالنصر يعلو  
مرقباً إلى مرقب حتى يوفى على القنَّة، فلما توفي الحكم المستنصر وأل الأمر إلى طفله  
هشام، اجتمع له الأمر كله، وظفر بأعلى مناصب الدولة: حجابة الخليفة، ثم وكله إلى إله  
ابنه عبد الملك، وجعل له القيادة العليا وسائر مناصبه، وجعل ابنه عبد الرحمن وزيراً،  
وسما هو إلى السلطان الأعلى وتسمى المنصور، وأمر أن يُكتب عنه: «من المنصور بن أبي  
عامر — وفَّقه الله»، ثم كُتب إليه باسم: «الملك الكريم».

٢

ملك ابن أبي عامر الأندلس ستة وعشرين عاماً، يدبر شؤونها بعده، ويعمرها ببره،  
ويحملها بأبنيته، ويضرب أحسن الأمثال في البأس الذي لا يخالطه جور، والعدل الذي لا  
تشوهه هواة، والإنصاف الذي لا يميز قريباً من بعيد، والحكم الذي لا يعرف إلا النصفة  
والمساواة، والنفاذ على كل الناس في كل الأحوال.

ولم تكن سياساته العادلة الحازمة أعظم من قيادته المظفرة، حتى لقد جاوزت  
غزواته أقصى غزوات الناصر، وحارب حيث لم يحارب قبله أمير من أمراء الأندلس.  
غزا خمسين غزوة، كانت الثامنة والأربعون منها إلى «شتت يعقوب» على البحر في  
أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب، ولم يحاولها قبله ملك عربي في الأندلس.  
قال صاحب «البيان المغرب»:

ومن أوضح الدلائل على سعاده أنه لم ينكب قط في حرب شهدتها، وما توجهت  
قط عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً، على كثرة ما زاول من  
الحروب، ومارس من الأعداء، وواجه من الأمم. وإنها لخاصة ما أحسب شركه  
فيها أحد من الملوك الإسلامية. ومن أعظم ما أعين به سعة جوده، وكثرة بذلك،  
فقد كان في ذلك أُعجوبة الزمان.

هذه سنة ثلاثة وتسعين وثلاثمائة من الهجرة، والمنصور بن أبي عامر يعزم على غزو «جليقية» في أقصى الشمال والغرب وهو مريض، ولكنه كما قال أبو الطيب:

وقد علمت خيله أنه إذا هم — وهو عليل — ركب

وسار من «طليطلة» إلى «قشتيلة»، فأبعد الغارات فيها، ودخول بلاد «شانجة» زعيم الأمراء المناوئين هناك.

وازداد بالبطل مرضه «فاتخذ له سرير خشب، ودع عليه أعضاءه، وسوى مهاده، متطاول الشكل، يمكنه الانضغاط عليه متى خارت قواه، وكان يحمل سريره على عنق الرجال، وسجفه منسدل عليه، وعساكره تحف به وتطيع أمره»<sup>١</sup> وكانت تحمل سريره السودان الرقاقة؛ للين مشيهم. بذلك قطع أربعة عشر يوماً حتى وصل إلى مدينة سالم.<sup>٢</sup>

المنصور في قصره من «مدينة سالم» قد استوى على الأمد من مجده، وأوفي على الغاية من عمره، ينظر إلى الحوادث الجسمان قد اتخذها درجاً إلى المعالي، ويتمثل الزمان رخاءه وشدة، وسلمه وحربه، ويرى الأندرس كلها وأصنافاً من المغرب طوع حكمه، وتحت أمره، ويشفق من تبعات هذا التاريخ المتطاول، وأعباء هذا السلطان العظيم، ويرى كل شيء وراءه، ولا يرى أمامه إلا الموت، يقول:

إن زمامي يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالاً مني. وددت أن  
أقال زلتني وأنا كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريري.

وأخذ الرجل العظيم يوصي أمراءه وجنوده، وخلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه، ويقبض على يده، وكلما ذهب عنه استرده مستدركاً بوصيته، وعبد الملك يبكي، فينكر عليه ذلك ويقول: هذا أول العجز والفشل.<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> في أحد متاحف أوروبا صورة ابن أبي عامر محمولاً على سريره.

<sup>٢</sup> ما بين الأقواس منقول عن «الذخيرة» عن ابن حيان المؤرخ الأندلسي.

<sup>٣</sup> عن الذخيرة.

أوصى عبد الملك وصية الخبير المحنك الأريب المُجَرْب، وأفرغ في أدنه وقلبه تجاريب عشرات السنين، ولم يترك عظيماً من أمور مملكته وأسرته إلا بيَّنه.  
ثم أمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر، ويعود هو إلى «قرطبة» ليتدارك أمور الملك.

٤

ابن أبي عامر في «مدينة سالم» في أقصى الجزيرة الأندلسية، كالأسد أبعد في مسراه، والنسر غالى في تحليقه، يختم مجده مجيداً، وينهي جهاده مجاهداً، ويختتم قصيدة طفراً ببيت رائع، وسجلّ مجده بسطر بليق، قصيدة مطلعها الطموح، ومقطعها الظفر، وسائر أبياتها الهمة التي لا تُقْهَر، والعزمية التي لا تُنْثَنِي، وسجل مقدمته طموح طالب علم في «قرطبة»، وخاتمه ملك حازم، وقائد مظفر، ومجاهد غازٍ في أقصى التغور.  
ليلة الاثنين لثلاث بقين من رمضان عام ثلاثة وتسعين وثلاثمائة في «مدينة سالم» مات الرجل النابغة، والعقربى الذاهية، ودفن في قصره هناك، وكان أوصى أن يدفن حيث يقبض، ولا ينقل تابوتة. وأراد أن يجعل قبره في التغر القصي دعوة إلى الجهاد دائبة، ومثلاً في المجد سائراً، وحرزاً على التغور حريراً، ورباطاً على الحدود مشهوداً!  
ليت شعرى أين قبر المنصور من قصره من «مدينة سالم»؟ بل ليت شعرى أين تاريخ ابن أبي عامر من صدور شبابنا، وكتب مؤرخينا، وأقلام كتابنا، وقصائد شعرائنا؟ يا شعراً العربية، من ينظم القصيدة الرائعة التي عنوانها: «وديعة مدينة سالم»؟!

# لا تحزن!<sup>١</sup>

هذه أبيات لحافظ الشيرازي الشاعر الفارسي ترجمتها نظماً، وحافظت فيها على وزن الأصل وقافيته، لأجعلهما مثلاً لما في الشعر الفارسي من أوزان وقوافٍ.  
فأما الوزن: فهو الرّمل المثمن؛ أي ذو التفعيلات الثمان، والمعروف في العربية أن الرمل لا يزيد على ست تفعيلات.  
وأما القافية: فهي المردوفة، والرديف — في العروض الفارسي — كلمة وكلمات تكرر في أواخر الأبيات، فيلتزم قبلها روئيٌّ يعتمد عليه النظم:

يوسف — المفقود في أوطانه — لا تحزن  
عائد يوماً إلى كنعانه، لا تحزن  
بيت الأحزان تراه عن قريب روضة  
يضحك الورد على بنائه، لا تحزن  
رأسك الأشعث يوماً سوف يلقى زينة  
ويفيق القلب من أحزانه، لا تحزن  
هذه الأخلاق إن دامت على غير المنى  
لا يدوم الدهر في حدثانه، لا تحزن

---

<sup>١</sup> بيت الأحزان: بيت اتخذه يعقوب ليعتكف فيه حزناً على يوسف.

أبها البلبل يأتيك ربيع ناضر  
تستظل الورد في أغصانه، لا تحزن  
لست تدرى الغيب في أسراره، لا تيأسن  
كم وراء الستر من ألوانه، لا تحزن  
وإذا جزت إلى الكعبة يوماً مهمها  
فدهاك الشوك من سعاداته، لا تحزن  
ومحيل الحال يدري حالنا بين العدى  
والهوى والحب في هجرانه، لا تحزن  
يا فؤادي إن يسل بالكون طوفان الفنا  
«فُلك نوح» لك في طوفانه، لا تحزن  
منزل جد مخوف ومراد شاحط  
لم يدم فج على ركبائه، لا تحزن  
حافظ! ما دمت في الفقر وليل حalk  
في دعاء الله أو قرآن، لا تحزن

## في معرك الخطوب

الحوادث في عراك دائم، والتاريخ في سيل مستمر، وإنما تبقى الأمم في معرك الحوادث، وتثبت في سيل التاريخ، بعقل يرشدها، وخلق يثبتها، وعمل تدفع به عن حياتها، وتؤثر به على الأرض آثارها، وتسيطر به في التاريخ ذكرها. كم أمة جرفتها الحادثات، وذهب بها الزمان كما يذهب السيل بالغشاء! وكم أمة ثبتت في مجرى الأحداث كالصخور ينشق الماء عنها ويذهب وهي باقية راسخة!

والأرض ترجماليوم بخطوب جسام، وتزلزل بأهواه لم يشهد التاريخ مثلها، تتصادم فيها الأمم بعدها من العلم والصناعة والخلق المتين، والنظام المحكم، والجد الدائب، تحترب الأمم في معارك على الأرض، وفي الماء والهواء، وتحترب في المدن والقرى، وفي المصانع والدور، ووراء هذا كله تتحارب بعلمها وخلقها. وقد خرت بعض الأمم على قوتها وكثرتها في هذا الجلاد، وثبتت أمم لا تزال تتناحر وتتفاني بكل ما عرف العقل والعلم والصناعة، وبكل ما أدرك الشيطان من وسائل التدمير والتخريب والقتل والفتک، ترسل بناتها إلى الواقع حطباً لهذا الجحيم، ويُصب عليها العذاب من السماء صباً، وكم تحطم طائرات وسفن، ومدافع ودببات، وخرت حصون وتهدمت بيوت، ولكن إرادة الإنسان، وعزيمة الإنسان، وعناد الإنسان، لم تتحطم أو تكل.

وقد دلت بعض الأمم في هذه الحرب على أن صبر الإنسان لا يهزم، وخلق الإنسان لا يدمر، فهزئت بالحوادث وهي هائلة، واستخفت بالهزائم وهي ماحقة، واستنارت بالأمل والظلم مطبقة، واستمسكت بالصبر والخطوب مزللة، واعتصمت بالعزوة والإباء في العواصف الهوجاء، وما زالت حتى أخرجت من الهزيمة نصراً، ومن القلة كثرة، ومن الضعف قوة، وأثبتت للجاحدين أن الله مع الصابرين.

وما تزال الخطوب متصادمة، والأخلاق متلاحمة، والحوادث متلاحقة، عبرة لمن يعتبر، ومثلاً لمن يمتنع، وذكرى لمن كان له قلب. ما يزال الزمان يشهد أعظم وقائعه، ويرى أكبر عبره، وينطق بأكبر عظاته، وفي الأمم من اتعظت ببنفسها، وفيها من اتعظت بغيرها، وفيها من مرت بها العطشان وهي غافلة، وزلزلت الأرض تحتها وهي راقدة، لأن الذي حولها أحلام هائلة.

وهذه الأمم المتناحرة المتفانية تلقي عيناً على الحاضر، وأخرى على المستقبل تدبر هذه الواقعات الدمرة، وتعد لما بعد الحربخطط المعمرة، وتقبس من هذه النار الحاطمة؛ لتثير المستقبل المرجو، ولا يذهبها يومها — وهو مذهب — عن غدها، ولا يشغلها حاضرها — وهو شاغل — عن مستقبلها، ولا ينسيها العالم الشقي صورة العالم السعيد الذي تنشده.

ونحن — والحمد لله — في عافية مما ابتلي به غيرنا، نسمع ضوضاء المعارك وأنباءها، وتحيط بنا خططها وأثارها، ولا ندفع في مضائقها، ولا نصل بnarها، ولا نحمل مصائبها. نحمد الله على هذا، فهل نحمده كذلك على أننا في عافية من عنة التفكير والتدبر والتشاور والقطع برأي في حاضرنا ومستقبلنا؟ وفي عافية من أن نشارك العاملين للمستقبل برأي نشير به، أو خطة نضعها، أو مطلب نصر عليه؟! لعلنا أوفر أمم العالم نصيباً من الفراغ في هذا الوقت، فلماذا لا نكون مثئهم تفكيراً في المستقبل، وشغلاً بالحاضر؟ لماذا لا نتأمر بیننا، ونذير الرأي فيما عسى أن تلقى بعد الحرب من مشاكل ومصاعب. إننا ننتظر القضاء؛ قضاء الناس لا قضاء الله! وفي الناس من يقضي عليه ولا يقضي. وقد رضينا أن نصدق قول الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب كعب      ولا يستأمرون وهم شهدوا

أقول: نحن، وأريد الأمة العربية كلها، نحن لا نلقى الحوادث بعدها وكفايتها من التفكير والحزم وجمع الكلمة. لا يجتمع أهل المملكة الواحدة على رأي جامع، وخطبة عامة تلتقي عندها مطالبهم أو أماناتهم، ولا يسارع أهل الأقطار كلها إلى البت برأي فاصل فيما يحزبهم من أمور الحاضر، وما يهمهم من قضايا المستقبل، وحسبي مثل واحد من أمثال.

تشعر البلاد العربية بحاجتها إلى التعاون والتقارب، والسير على خطة واحدة في الأمور التي تعمها، وقد أوحى إليها هذا الشعور معرفتها أنها على اختلاف الأقطار أمة واحدة، يؤلف بينها ما يؤلف بين الأمم الواحدة على هذه الأرض، والحقائق الماثلة تصدق هذا، والتاريخ يؤيده، والضرورات وال حاجات تدعوه إلى ذلك. وقد فكر قادة الرأي في الأقطار العربية في أن يحققوا هذه الأمانة، فيوحدوا بين العرب ويجمعوهم على نظام واحد، أو نظم متقاربة في أمورهم المشتركة.

ولا ننكر أن الإنكليز نبهونا إلى هذا مرة بعد مرة، وقد مضت سنوات وأوشكت الحرب أن تنتهي، فماذا فعلنا؟ لا أدرى! إن الأمر فيما أرى أوضح من أن تضطرب فيه الآراء، وأيسر من أن تقع دونه الهم، والزمان ضئيل بفرصه، والحوادث لا تعرف الهوادة. إننا لا نصنع أشياء، ولا نلتفق أمناً تصادم الحقائق أو تخالف الرغبات، ولكننا نعالج حقائق ماثلة معترضاً بها، نريد أن ننظمها وننفع بها. ومن تنصره الحقائق وتواتيه الرغبات لا يجد عسرًا فيما يحاول.

لو اجتمع ممثلو البلاد العربية الرسميون، أو أتيح للقادة غير الحكوميين أن يجتمعوا، ثم وضع هؤلاء أو هؤلاء خطة، وجعلوها للعرب ميثاقاً لا يقبل جدلاً ولا ردًا، لو فعل هذا للقينا الحادثات بما تطلبه، وأعطينا الفرصة ما تستحقه، ولأخذنا السبيل على القال والقيل، واسترحنا من الرجم بالظنون والأقوال.

إن لنا الثقة كل الثقة بمن تصدوا لهذا الأمر، واضطلعوا بهذا العبء، واحتملوا مختارين هذه التبعية العظيمة في الوقت الحرج، ورأوا في أنفسهم الكفاية لحمل هذه الأمانة التي تسألهم عنها الأجيال الحاضرة والآتية، ولكننا نسألهم سؤال الحرير على طلبه، ونستعجلهم استعجال القلق على أمنيته.

إنه لا يجدر بنا أن ننام والحوادث يقظى، ونبطئ والخطوب تسرع، ولا نلقى الحادثات بعدها من التدبر والعزم، وجمع الكلمة، وإجماع الرأي، وسرعة الفصل.



## التأليف والنشر في مصر

حدثني بعض الأصدقاء أن أحد أصحاب المعالي ووزراء الدولة في الحكومة القائمة، دعا إليه جماعة من الكتاب، وحدهم في تنشيط التأليف في مصر ومكافأة المؤلفين، ووعد في هذا وعوداً حسنة إلخ.

وهذا رأي محمود نرجو أن يتلوه العمل، فيؤتي ثمراته بعد حين، وهذه فرصة أنتهزها للتنبيه إلى أمر طالما أهمَّ المفكرين من قراء العربية في الشرق والغرب، وطالما ترددت منه الشكوى، وأخذت به مصر قبل الأقطار الأخرى، ذلكم أمر النشر، نشر الكتب القديمة والحديثة التي مات مؤلفوها، فهو أمر تتحكم فيه الفوضى، يستطيع الواحد من تجار الكتب أن يعمد إلى كتاب من الأمهات في الأدب أو في التاريخ أو غيرهما، ويعهد به إلى من يصححه ويقدمه للطبع، وحسب هذا المصحح أن يستطيع قراءة الكتاب قراءة يتصرف فيها خياله وحظه القليل من العلم، ونشاطه الذي تحده المكافأة القليلة التي ينالها من الناشر، ووجوده الذي لا يحفل بالأمانة العلمية كثيراً.

وأحياناً يتصدى لنشر الكتب بعض العارفين بأساليب النشر الحديثة، فيعهد في تصحيحه إلى بعض الأسماء النابهة، ويتخذ من وسائل الترويج ما يشاء له طمعه في الربح والصيت، فيستبشر الأدباء ويرجون خيراً، ويترbcون على قلق حتى يظهر الكتاب، فيكبوا على قراءته، فإذا الأمر لا يعدو ما ألفوه من طرق النشر التي لا تصوب غلطًا، ولا تزيل شگًّا، ولا تناول طمأنينة القارئ. لا يعزز الباحث أن يتبع الأدلة من الكتب المشوهة، أو الكتب التي يُدلُّ في تصحيحها جهد قليل قصر بها دون الغاية.

نشر بعض الناشرين كتاباً قدّيماً في الفرق الإسلامية، فمر على أغلاطه لم يعرض لها، وحرف بعض عبارات ظنّها غلطًا وهي صواب، وحسبى أن أذكر من فعلاته هذه الواحدة:

ذكر المؤلف رجلاً فنسبه إلى قبيلة، وقال: إنه «من ثور همدان»؛ أي قبيلة ثور إحدى قبائل همدان، لا قبيلة ثور الأخرى إحدى قبائل مصر، فحرف الناشر الكلمة إلى «ثغور همدان»، وامتن على القراء في الحاشية بأنه أدرك الحق في هذه الجملة المحرفة! وأذكر أن ناشراً عمد إلى ترجمة كتاب «كلستان» للشيخ سعدي الشيرازي، الشاعر الفارسي العظيم، فطبعه وكتب على صفحة العنوان: «كتاب جلستان، بقلم العلامة جلستان الفارسي».

وليس العهد بعيداً بكتاب «معجم الأدباء» وما أهمل من غلطاته، وحرف من عباراته، وزيد عليه من شرح يتجلّى فيه الخطأ والفضول، وقد أخرج للناس في موكب من التشهير والترويج، وهو في الحق حريٌ أن يكون عيباً لمن أخرجه، وعانياً على وزارة المعارف التي احتملت التبعية فيه، فكتبت على صفحة العنوان: «راجعته ووزارة المعارف». وكانت كتبت خمس مقالات في نقض الجزأين الأول والثاني، ثم وعدت القارئ أن أعود إلى النقض بعد أن تُطبع الأجزاء الأخرى؛ لأبين أهي خير من هذين الجزأين أم مثهماً؟ ولعلي أفي للقراء بهذا الوعد بعد هذا المطال الطويل.

بل كتب الأدب التي بأيدي الطلاب في مدارس الوزارة فيها كثير من الغلط، وإذا وقع الغلط والتحريف في مثل هذه الكتب، فماذا يرجي من الكتب السوقية التي يتولى نشرها تجار أكبر همهم النفقه القليلة والربح الكثير؟

كان أسلافنا يكتبون الكتب بأيديهم، إذ لم يكن عندهم من وسائل الطبع والتصوير ما عندنا، فكان عليهم أن يصححوا كل نسخة من كل كتاب، وقد اضطلاعوا بهذا العمل الفاحح جهد طاقتهم، وبدلوا فيه من فكرهم وعافيتهم ونومهم وراحthem ما تشهد به آثارهم وأخبارهم!

كان المتأدب منهم يقرأ الكتاب على أديب ثقة، ويكتب عليه أنه قرأه على فلان، ويغلب أن يكون الشيخ الذي قرئ عليه الكتاب قد قرأه على آخر، وهكذا حتى تنتهي القراءة إلى المؤلف أو الشاعر أو الكاتب ويُكتب هذا السندي المتصل على الكتاب، فيعلم قارئه أن بيده كتاباً عمدة يطمئن إليه، بل فعلوا هذا في الدواوين المتواترة التي يتناولها الحفظ والنسخ كل حين، كديوان المتبي. وعندنا اليوم نسخ منه تحمل سندها من أبي الطيب إلى سبعة قرون أو أكثر من بعده.

وهذا العكيري<sup>١</sup> شارح الديوان في القرن السابع لم يجز لنفسه أن يشرحه حتى قرأه على شيخين من شيوخ الأدب: مكي بن ريان بالموصل، وعبد المنعم بن صباح التيمي بمصر.

وقد وضع أسلافنا أصولاً اصطلحوا عليها وسموها «أصول السماع»، بينوا فيها كيف يثبت راوي الخبر أو راوي الكتاب حتى يتحرز عن الغلط جده.

ومن عجيب ما يروى في هذا ما حدثني به بعض الثقات، أن القاضي عياضاً ذكر في كتابه «الإلاع في أصول السماع»، أن أبا علي القالي صاحب الأمالى أغار الحكم المستنصر الأموى خليفة الأندلس كتاباً من كتبه، وطالت غيبة الكتاب عنه، فلما رُدَّ إليه أبطل الرواية به وقال: لا آمن أن يكون قد أصابه تحريف وهو في يد غيري.

ذلكم جهد السلف وذأبهم في التثبت، على ما حملهم هذا من عناء ونصب، فكيف وقد تيسر طبع الكتب بما خلقت المدنية الحاضرة من وسائل، كيف نتهاون في التصحيح والتحقيق، فنخرج كتاباً تنوء بأغلاطها؟ إن ناشر الكتاب اليوم يكفيه أن يصحح نسخة واحدة لتصح له آلاف النسخ، فيتواتر الكتاب، ويؤمن عليه الغلط والتحريف والزيادة والنقص من بعد. ليت شعري بأي عذر نعتذر، وبأي تعلة نتعلل؟ لا عذر، ولكنه التهاون والكسل، أو القصور والجهل! وفيها خيار لم تخير.

فالذى نرجوه أن تؤلف الحكومة أو تكل إلى الجامعة تأليف جماعة لمراقبة النشر، وبخاصة نشر الكتب القديمة، فلا يؤذن لناشر أن ينشر كتاباً حتى تستوثق هذه الجماعة أن القائمين على تصحيح الكتاب أهل لتصحیحه وإخراجه على حال يسكن إليها أولو العلم والأدب، ولهم في لجنة التأليف والترجمة والنشر أسوة حسنة، ومثال صالح.

ذلكم أقرب إلى التحقيق، وأبعد من الفوضى، وذلكم أجرد بنا وأولى بسمعتنا، وأحفظ لتاريخنا وأدابنا، فإن توهم متوهם أن الخطب في هذا أمر يوكل إلى الزمن إصلاحه، ولا يحتاج إلى عنابة الأمة والحكومة، فليسأل الباحثين من علمائنا وأدبائنا؛ ليشكوا إليه ما قاسوا من الكتب المحرفة والنصوص المضللة، وإنما لراجون أن تبادر الحكومة إلى تبشير الأدباء بما تعزم في هذا الأمر العظيم، ثم تتبع البشرى العمل، والوعد الإنجاز.

<sup>١</sup> نشر مقال طويل في مجلة المجمع العلمي العربي في سنة ١٩٤٦-١٩٤٧ يثبت فيه كاتبه أن هذا الشرح لابن عدlan المصري، وليس للعكيري الكوفي هذا، فإن لزم التنبيه على ذلك؛ فليرجع إلى هذا المقال.



# زواج أمير عربي من أميرة هندية

١

ماذا يخط القلم في هذا الفرح المتلائى، والسرور المزدهر، والقلوب الخافقة، والأيدي الصافية، والزيادات الساحرة، والأضواء الباهرة؟

ماذا يخط القلم في أمة — بل أمم — خفقت قلوبها حبًّا، وانطلقت ألسنتها دعاءً، وتوجهت إلى هذا الوجه الأغر، والطلعة المباركة، إلى الملك الشاب الصالح، جلاله الملك «فاروق»؟!

ماذا يخط القلم، إلا أن يشارك العيون متعتها، والنفوس بهجتها، والقلوب أدعيتها، فيجول في مجال واسع من الفرح الحاضر، أو يقلب صفحات التاريخ عن صفحة من الجمال والسرور للأاءة، أو يطمح في المستقبل إلى حقب من المجد وضاءة، تظللها السعادة واليسر، والصفاء والبشر.

قلبت صفحات التاريخ، فعبرت من عرس إلى عرس، حتى وقفت على عرس كان في الهند في القرن الثامن الهجري، ورأيت من غرابته وظرافته ما يؤهله لأن يعرض على قراء «الرسالة» في هذا الأسبوع المبارك.

كان السلطان محمد بن غياث الدين تُغلق شاه يملك «دهلي» وما يتصل بها، وببلاد «الدكن»<sup>١</sup> في الربع الثاني من القرن الثامن الهجري «٧٥٢-٧٢٥هـ»، وكان ملّا ذكياً سخيناً، عظيم البطش، جبار السطوة!

وكان يحتفي بالغرباء الوافدين عليه، ولا سيما العزب، وخاصة من انتمى منهم إلى بيت النبوة، كان يبذل لهم من ماله، ويوطئ لهم من كنفه، ويبلغ من إكرامهم وإجلالهم ما يملأ النفس عجبًا!

وكان آل ربيعة من طيء أمراء على قبيل عظيم من العرب في أطراف الشام في عهد الدولة الأيوبيّة ودولة المماليك ... كان ملوك مصر يستجدونهم في اللزيات، ويفرضون عليهم الرياسة على القبائل، ويبالغون في إكرامهم إذا وفدوا عليهم، وقد قدم منهم: فرج بن حية على العز «أبيك»، فأنزله بدار الضيافة أيامًا، وأنفق على ضيافته وهداياه ستة وثلاثين ألف دينار! وكان من أمرائهم في القرن السابع والثامن آل مهنى بن عيسى، «وكلهم رؤساء أكابر، وسادات العرب ووجوهها، ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة، وصيت عظيم، إلى رونق في بيوتهم ومنازلهم.

من تلق منهم تقل: لاقيت سيدهم      مثل النجوم التي يسري بها الساري<sup>٢</sup>

قدم الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهنى على السلطان محمد، فأكرم وفادته، وأنزله بقصر في «دهلي» يسمى «كشك لعل»؛ أي القصر الأحمر، وجزل له العطايا، وأكثر الهدايا، ثم زوجه أخته الأميرة فيروز.

<sup>١</sup> دكن، ومعناه الجنوب: القسم الجنوبي من بلاد الهند.

<sup>٢</sup> صبح الأعشى، ج ٢.

وكان الرحالة ابن بطوطة إذ ذاك مقيماً بدهلي في كنف هذا السلطان، فشهد العروس العظيم، وتولى بعض شئونه، ووصف زفاف الأمير سيف الله والأميرة فิروز. فانظر كيف وصف:

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غدا، عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها «الملك فتح الله»، وعيتني للازمته للأمير غدا، والكون معه في تلك الأيام، فأتى «الملك فتح الله» بالصيوانات، فظلل بها المشورين<sup>٣</sup> بالقصر الأحمر المذكور، وضرب في كل واحد منها قبة ضخمة جداً، وفرش ذلك بالفرش الحسان. وأتى شمس الدين التبرizi، أمير المطربين، ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص، وكلهن مماليك السلطان.

وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين والشربدارية والتنبول داران،<sup>٤</sup> ودبّحت الأنعام والطيور، وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً، ويحضر الأمراء الكبار والأعزاء ليلاً ونهاراً.

فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين<sup>٥</sup> من دار السلطان ليلاً إلى هذا القصر، فزيّنه وفرشنه بأحسن الفرش، واستحضر سيف الدين، وكان عربياً غريباً لا قرابة له، فحفن به، وأجلسه على مرتبة معينة له. وكان السلطان قد أمر أن تكون أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته، وأخرى مقام عمه، وأخرى مقام خالته، حتى يكون كأنه بين أهله، ولما أجلسه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن، وانصرفن إلى قصر الزفاف، وأقام هو مع خواص أصحابه.

وعين السلطان جماعة من الأمراء تكون من جهة «الأمير»، وجماعة يكونون من جهة الزوجة، وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة

<sup>٣</sup> المشور: كلمة يستعملها ابن بطوطة في معنى فناء الدار.

<sup>٤</sup> الشربدارية: الفيءون على الشراب، والتنبول: نبات هندي أحمر يؤكل كثيراً ويقدم للضيوف، والتنبول دار: من يتولى تقديم التنبول.

<sup>٥</sup> الخواتين: جمع خاتون، وهي السيدة باللغة التركية.

على باب الموضع الذي تكون به جلوتها على زوجها، ويأتي الزوج بجماعة، فلا يدخلون إلا أن يغلبوا أصحاب الزوجة، أو يعطونهم آلاف الدنانير إن لم يقدروا عليهم.

ولما كان بعد المغرب أتي إليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة، قد غلبت الجوادر عليها، فلا يظهر لونها مما عليها من الجوادر، وبشاشة مثل ذلك، ولم أمر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة، وقد رأيت ما خلعة السلطان على سائر أصحابه مثل: ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني، وابن ملك العلماء، وابن شيخ الإسلام، وابن صدرجهان البخاري، فلم يكن فيها مثل هذه.

ثم ركب الأمير سيف الدين في أصحابه وعبيده، وفي يد كل منهم عصا قد أعدها، وصفوا شبه إكليل من الياسمين والنسرین، وله ررف يغطي وجه المتتكلل به وصدره، وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه، فأبى ذلك، وكان من عرب الباادية لا عهد له بأمور الملك والحضر، فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه.

وأتي بباب الصرف، ويسمونه بباب الحرم، وعليه جماعة الزوجة، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية، وصرعوا كل من عارضهم فغلبواهم، ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات — وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله — ودخل إلى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عالٍ مزين بالديباج، مرصع بالجوادر، والمشور ملآن بالنساء والمطربات، وقد أحضرن أنواع الآلات المطربة، وكلهن واقفات على قدم إجلالاً له وتعظيمًا، فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر، فنزل وخدم<sup>٦</sup> عند أول درجة منه، وقامت العروس حتى صعد، فأعطيته التابنول بيدها، فأخذه وجلس تحت التي وقف بها. ونثرت دنانير الذهب على رءوس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النساء والغنيمات يعني حينئذ، والأطبال والأبواق والأنقار تضرب خارج الباب.

ثم قام الأمير وأخذ بيده زوجته، ونزل وهي تتبعه، فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه، وجعلت العروس في محفة، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره، والخواتين بين يديها راكبات،

<sup>٦</sup> خدم: حيا بالانحناء.

## زواج أمير عربي من أميرة هندية

وغيرهن من النساء ماشيات، وإنما مروا بدار أمير أو كبير خرج إليهم، ونثر عليهم الدنانير والدرارم على قدر همته، حتى أوصلوها إلى قصره.  
ولما كان من الغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدرارم، وأعطى السلطان كل واحد منهم فرسًا مسرّجًا ملجمًا وبدرة دراهم من ألف دينار إلى مائتي دينار، وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر، وكذلك لأهل الطرب — وعادتهم ببلاد الهند لا يعطوا أحدًا شيئاً لأهل الطرب، إنما يعطونهم صاحب العرس — وأطعم الناس جميّعاً ذلك اليوم، وانقضَّ العرس.  
وأمر السلطان أن يُعطى للأمير غداً بلاد المالوة والجزرات وكنبالية ونهر واللة، وجعل فتح الله المذكور نائباً عنه عليها، وعظمه تعظيمًا شديداً. ا.هـ.



## على حافة الفجر وشاطئ النيل

الليل قد مضت ساعاته، ودارت دورتها نجومه، بين بعيد عن القطب قد غرب أو كاد، وقريب منه تراور عن الأفق الغربي شطر الشمال والشرق. هذه بنات نعش الصغرى طائرات صوب الشرق، والفرقدان يتطلعان إلى أشعة اليل الوليد وراء الأفق:

فاسأل الفرقدين عنن أحسا  
من قبيل وأنسا من بلاد  
كم أقاما على زوال نهار وأنارا لمدخل في سواد

وبنات نعش الكجرى كانت تلامس الأفق، وكأنها جواد محضر على حافة الأفق يبغي  
مستقره قبل الصبح.  
وها هي الثريا جاوزت جوز السماء، نازعة إلى أفقها البعيد في المغرب، تذكر بقول  
ذى الرمة:

وردن اعتسافاً والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء مطلق<sup>١</sup>

ووراء الثريا الدبران يحث قلاصه؛ ليدرك خطيبته بهذا الصداق، لم ييأس منها على  
طول إعراضها، ولم يمل على تمادي المسير.<sup>٢</sup>

---

<sup>١</sup> ابن الماء: طائر.

<sup>٢</sup> في أساطير العرب أن الدبران خطب الثريا، وساق إليها مهرها من الإبل، وما يزال يتبعها بهذا المهر، وهذه الإبل نجوم تظهر بين الدبران والثريا.

وهناك المجرة نهر السماء الذي لا يسبر لجه، ولا يدرك غوره، بل نهر الزمان يسيل بالعصور والدهور، يحسر الفكر على شاطئه، ويعيا الوهم دون منبعه وغايته، عالم وراء العالم، وفلك فوق الفلك. وصور أخرى رائعة هائلة تتجل بـها السماء في هذا الصفاء. يرقى الفكر إلى هذه المشاهد العلوية، فيوغل فيها ثم يوغل حتى ينبعـر، فيهـوي حسـيراً مرتـاعاً كشـيطان الرجم يلتـمس مكانـه على الأرض، يهـول الفكر هذا العـظم الذي لا يـحد، والجـلال الذي لا يـنتهي، والغـور الذي لا يـبلغ، والـحـجاب الذي لا يـخـترق، ويـفـزـعـه جـو تـحـطـمـ فـيـهـ الأـجـنـحةـ، وـمـدـيـ يـعـيـاـ الطـيـرانـ فـيـ أـوـلـهـ، فـيـفـرـ منـ هـذـهـ السـعـةـ الـهـائـلـةـ التي يـفـنـيـ فـيـهـ المـكـانـ إـلـىـ الـأـرـضـ، ثـمـ إـلـىـ مـكـانـهـ الصـغـيرـ مـنـهـ، وـيـعـتـصـمـ فـيـ هـذـهـ الـكـونـ الـفـسـيـحـ الـذـيـ يـتـيـهـ فـيـهـ الـزـمـانـ إـلـىـ الـزـمـنـ، ثـمـ إـلـىـ سـاعـةـ مـنـهـ، يـحـتمـيـ بـهـذـهـ الـحـدـودـ، وـيـأـنـسـ بـهـذـهـ الـقـيـوـدـ.

ثـمـ تـطـمـحـ النـفـسـ الـإـنـسـانـيـ، بلـ الشـعـلـةـ الـإـلـهـيـةـ إـلـىـ الـعـلـاءـ طـمـوحـ النـسـرـ إـلـىـ مـتـقـلـبـهـ منـ جـوـ السـمـاءـ، فـتـقـطـعـ قـيـدـ بـعـدـ قـيـدـ، وـتـجـازـ حـدـاً بـعـدـ حـدـ، وـتـخـرـجـ مـنـ دـائـرـةـ بـعـدـ دـائـرـةـ، فـإـذـاـ هـذـاـ جـسـمـ الـمـحـدـوـ، وـالـعـقـلـ الـمـكـدـوـ هـاجـمـ فـيـماـ وـرـاءـ الـحـدـودـ، يـحـاـوـلـ الـأـمـرـ الـذـيـ لـاـ يـنـتـهـيـ، وـالـعـلـمـ الـذـيـ لـاـ يـنـالـ.

ثـمـ يـعـيـاـ وـيـنـبـهـ، فـيـهـيـطـ إـلـىـ أـرـضـهـ وـمـكـانـهـ، وـوقـتـهـ وـزـمـانـهـ، وـلـكـنـ بـصـرـهـ إـلـىـ السـمـاءـ، وـهـمـتـهـ إـلـىـ الـعـلـاءـ، وـطـمـوـحـهـ إـلـىـ الإـدـراكـ، فـيـ الـأـفـلـاكـ وـمـاـ وـرـاءـ الـأـفـلـاكـ، وـهـكـذاـ يـعـلـوـ وـيـسـفـلـ، وـيـقـدـمـ وـيـحـجـمـ، وـيـنـزـعـ وـيـرـجـعـ، حـائـرـاًـ بـيـنـ كـوـنـهـ الـمـحـدـوـ، وـطـوـقـهـ الـمـجـهـوـدـ، وـبـيـنـ طـمـوـحـهـ الـذـيـ يـأـبـيـ الـقـيـوـدـ، مـتـرـدـداًـ بـيـنـ عـالـمـ الـأـصـغـرـ وـالـعـالـمـ الـأـكـبـرـ، بـيـنـ نـفـسـهـ الـصـغـرـىـ وـالـحـقـيـقـةـ الـكـبـرـىـ، بـلـ بـيـنـ الـإـنـسـانـ وـالـلـهـ.

أـفـزـعـنـيـ هـذـاـ الـمـرـادـ، وـهـالـنـيـ هـذـاـ الـجـهـادـ، فـأـوـيـتـ إـلـىـ الـحـدـ بـعـدـ الـحـدـ، وـالـسـتـرـ مـنـ وـرـاءـ الـسـتـرـ، حـتـىـ أـمـنـتـ عـلـىـ نـفـسـيـ فـيـ مـوـقـيـيـ الـضـيـقـ، عـلـىـ هـذـهـ الـبـقـعـةـ الـصـغـرـىـ، فـوـقـ هـذـهـ الـأـرـضـ الـمـحـدـوـةـ، فـنـزـلـتـ مـنـ الـحـقـائـقـ الـوـاسـعـةـ إـلـىـ الـدـوـائـرـ الـضـيـقـةـ، مـنـ الـوـجـودـ الـمـطـلـقـ إـلـىـ الـوـجـودـ الـقـيـدـ، وـمـاـ زـلـتـ أـجـتـازـ أـجـنـاسـاـ إـلـىـ أـجـنـاسـ، وـأـنـوـاعـاـ إـلـىـ أـنـوـاعـ، فـإـذـاـ أـنـاـ مـطـلـ منـ دـارـيـ عـلـىـ شـاطـئـ النـيلـ، فـيـ لـيـلـةـ مـنـ لـيـلـاـيـاـ رـمـضـانـ وـقـتـ السـحـرـ.

وـأـشـفـقـتـ أـنـ تـرـفـعـنـيـ صـورـ النـجـومـ فـيـ الـمـاءـ إـلـىـ حـقـائقـهـاـ فـيـ السـمـاءـ، وـأـنـ يـسـلـمـنـيـ نـهـرـ النـيلـ إـلـىـ نـهـرـ الـمـجـرـةـ، وـأـنـ تـرـدـنـيـ إـلـىـ حـيـثـ فـرـرـتـ، هـذـهـ الـصـلـاتـ الـوـثـيقـاتـ بـيـنـ الـصـغـيرـ وـالـكـبـيرـ، وـالـمـطـلـقـ وـالـقـيـدـ، وـبـيـنـ الذـرـةـ وـالـشـمـسـ، فـأـلـحـحتـ عـلـىـ الـفـكـرـ أـنـ يـحـبـسـ، فـيـ هـذـاـ الـمـشـهـدـ الـمـحـدـوـ، وـأـلـزـمـتـ الـعـقـلـ الـإـلـخـلـادـ إـلـىـ هـذـهـ الـأـرـضـ.

ثم كدت أسيء مع النيل إلى منتهاه فيصلني بالأبد، أو أرجع معه إلى منبعة، فيسلمني إلى الأزل، فحبست عياني على ما أمامي، وفكري في مرأى، كما يحبس الطائر الوحشي في قفص، ويلهى بالحب عن أطباقي الجو.

رأيت النيل رهواً تراءى في صفحاته مصابيح ساكنة خافتة مطلة من شاطئ الجيزة، ورأيت الزرع نائماً تمسحه نسمات الفجر رفيقة مشفقة، لأنها أم توقظ طفلاها، وأنسني الليل الساجي، والمنظر الصامت، والمشهد المصغي، والطبيعة النائمة، بل الخلقة الحاملة، لا أسمع ركزاً إلا صيحات متفرقة من ديكاًة متبااعدة، لأنها قبل صيحاتها للفجر نغمات متقطعة يمهد بها الموسيقي لألحانه المتصلة، وإن نقيق ضفادع قليلة مشتتة، وإن صرير الجنادب بين الزروع موحداً متصلةً خافتًا، لا يقطع الفكر، بل يسايره مطرداً بأنه مرور الزمان.

ثم انغل الفكر في الناس، فإذا هم بين يقطان انطوت على البر جوانحه، وعمر بالخير قلبه، ونطق به لسانه، يسبح الله، ويفكر لخير نفسه وخير الناس في مثواه، وأخر يقظة الصل، ينساب في مجاثم الظلم إلى الآثام، وإذا هم بين نائم يستجم بالرقاد؛ ليستأنف الجهاد، ونائم أنامته البطالة، وأمامته التخمة، لا يفتقده نائماً عمل ولا أمل، ولا تحمد يقظته حركة ولا سكون.

وإذا هم بين حالم سودت أعماله أحلامه، ينشره النهار للضر، وبطيويه الليل للشر، ويسلمه النهار الأثيم إلى الحلم الأثيم، وأخر أضاءات روياًه نيته، وازدهرت بالحلم الطيب طويته، فهو خير اليقظة والنوم، ظاهر الحقائق والرؤى، وضروب أخرى من البشر طاف بها الخيال، واسع المجال، ثم اثنى قلقاً مضطرباً.

وكاد يخل هذا التفكير المتنافر بهذا المشهد المتألف، ويقطع الهم المضطرب هذا النغم المنسجم، فعدت إلى النيل أطالعه، والزرع أراقبه، والخلقة آنس بها، وأسكن إليها، وأتغلغل فيها وأناجيها.

ودوت الأرجاء بالصياغ، من ديكاًة الصباح، وانبجست النواحي بالأذان، يتजاوب في القلوب والأذان، وسرت في الخلقة قشعريرة هزت يقطانها وهاجعها، وأنعشت حيها وهامدها، وتوهمت أشعة الفجر الخفية، تخالط هذه الأصوات الندية، بل خلت الأشعة استحالت أصواتاً، أو الأصوات تحولت أشعة.

استحال العالم كله بعيداً، وبدا كل شيء راكعاً أو ساجداً، فهذه الأضواء، وهذه النسائم، وهذه المياه، وهذه الزروع، والديكة المؤذنة، والجنادب الصارة، كلها في خشوع

وقنوت، وتسبيح وتهليل، والنجوم الغاربة على الأفق ساجدة، والسماء المحدودة الخاشعة،  
لجلال الخالق راكعة، سمعت من الخلقة ومن قلبي ومن لساني الآية الكريمة، تفسيراً  
لما أرى وأسمع وأتوهم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنِ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ  
إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

لم أجد غيري خالياً من الصلاة، ولم أر سواي شذوذًا في هذا النغم، فرددت نظرات  
في العالمين، ثم أسرعت لأكون من الساجدين.

## وديعة ميافارقين

١

سيف الدولة علي بن حمدان، أمير حلب والعواصم، يخط بسيفه مملكة في ثغور الروم، ويقزها على الزلازل، ويثبتها على الأهوال، ويمكناها في مضطرب الأمواج، ومدارج السيول. لبث الرجل عشرين عاماً يغزو الروم، ويدفع غزواتهم، ويجاهد وحده هذا العدو الذي جاهده العرب وجاهدهم، منذ زال سلطان الروم عن الشام. لا تفتر همة علي بن حمدان، ولا يكل عزمه، ولا تفل شباته، وجيوش الروم وأتباعهم تطغى على البلاد العربية، موجة بعد موجة، فتتكسر على هذه الصخور من الشجاعة والعز، والجهاد والصبر، ويسيل السيل بعد السيل، فيصد هذا السد الذي مكتنه شجاعة سيف الدولة وجنده القليل، وكم نكبت جيوش سيف الدولة فما وهن ولا استكان، ولا ساير الزمان، ولا أخلد إلى السلامة، ولا آثر العافية! ولكن الحوادث انجلت عن هذا الوجه الوضاء بساماً للخطوب، وهذه العزة القعسae راسية على الأهواز:

وقفت وما في الموت شك لواقف  
كأنك في جهن الردى وهو نائم  
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة  
ووجهك وضاح وثورك باسم

وبني بويه في بغداد، والإخشیديون ثم الفاطميون في مصر بمعزل عن هذه الحوادث،  
أسلموا الأمير الحمداني لهذا الجلاد الدائب، وال伊拉克 المتواصل:

أنت طول الحياة للروم غاز  
فمتى الوعد أن يكون القفول

فعلى أي جانبيك تميل؟ ك وقامت بها القنا والنصول كالذى عنده تدار المنايا	وسوى الروم خلف ظهرك روم قد الناس كلهم عن مساعي ما الذي عنده تدار المنايا
--	--

٢

هذه سنة ثلاثة وخمسين وثلاثمائة والسيف العربي الذي قارع الروم عشرين عاماً لم يفل، والعزم الذي استكبار على الغير حقبة طويلة لم يضعف، ولكن سيف الدولة مريض، عرضت علة لجسده، وكبرت عن العلل روحه، وقد حاصر الروم طرسوس، واستغاث أهلها الأمير العليل، فلم يقدر به مرضه، ولا بعث للعدو قائداً غيره، بل ركب في الجيش المرزاً بالسيوف المفللة يجيب الصريح، ويغيث أهل التغور:

وغير الدمشقي قول العدا إذا هم — وهو عليل — ركب	ة: إن علياً ثقيل وَصِبَّ وقد علمت خيله أنه
---	---

وخف الروم لقاء الأمير الذي عرفوه، وقتل الجيش الذي خبروه، فتركوا طرسوس وقفوا إلى ديارهم، وانفرجت الغمة عن طرسوس وما يليها.

وبمنفعة الغوث قبل العطب ولو لم تغث سجدوا للصلب وكشفت من كرب بالكردي	سبقت إليهم مناياهم فخرروا لخالقهم سجداً وكم ندت عنهم ردى بالردى
---	---

وبقي الأمير العليل يستقل بأعباء الجهاد، ويحمي وحده التغور.

أرى المسلمين مع المشركي وأنت مع الله في جانب	ن إما لعجز وإما رهب قليل الرقاد كثير التعب
---	---

علي بن حمدان مريض، يحارب عدواً شديداً، ويلقي خطوباً سوداً، ولكن على الأسد أن يحمي غيله، والفالح يحمي شوله معقولاً. يمضي الرجل في جلاده على العلات، وعلى رغم العلل والحوادث، وأمراء العرب والمسلمين من خلفه كما قال أبو الطيب لهذا الأمير العظيم:

ألهي الممالك عن فخر قفت به      شرب المدامنة والأوتار والنغم

٣

في شهر صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة في مدينة حلب يمرض ابن حمدان البطل مرضه الأخير، وينظر وراءه إلى ثلاثة وعشرين سنة من المجد والكد، ويتمثل الخيل المغيرة والنفع المثار، والسيوف المتضاربة، والرماح المتطاعنة، والكر والفر، والهزيمة والظفر، ويذكر من ثبت ومن فر، ومن وفى ومن غدر، كما يتمثل الشعراء أمامه يسجلون وقائعه، ويخلدون مآثره، والعلماء والأدباء يأتونه من كل صوب، ينشرون العلم في كنفه، ويتحمرون من الحوادث في جانبه، وتتمر بخياله الحوادث حلوها ومرها، والأيام خيرها وشرها، فيبسم بسمة الرجل أدى واجبه، ووفى بعهده، وترك وراءه صيتاً بعيداً، وذكراً حميلاً.

وهذه الساعة الثالثة من يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة، والأمير العظيم على فراش الموت يود لو جمع تاريخه في كتاب، وأحصيit وقائمه في سجل يأخذه بيده في ساعته الأخيرة؛ ليلقى ربه بما قدمت يداه في سبيل الله! بل يود لو صُورت الخطوب، ومُنْتَلَّت الحوادث، وطوى التاريخ في صورة مجسمة ليصحبه في قبره، ويؤنسه في وحشته، ويمضي معه حجة ناطقة، وشهادة ناصعة، وكيف تصور الخطوب، وتمثل الحوادث، ويطوى التاريخ مجسداً؟!

يقول سيف الدولة: هاتوا اللبنة، قد نفست دروعي بعد الواقع، وجمعت ما عليها من الغبار، وصنعت من الغبار لبنة. عليًّا بهذه اللبنة لأراها، فإذا مُتْ فضعوها في لحدِي تحت خدي.<sup>١</sup>

<sup>١</sup> ابن خلكان.

ونقلت جثة الأمير الكبير، ولبنة الرجل المجاهد إلى ميافارقين، فدفنا في التربة التي  
دفن فيها سيف الدولة والدته.  
فيما ليت شعري أين في ميافارقين قبر سيف الدولة؟ وأين من تربتها تلك اللبنة؛ تلك  
الهمة المجسمة، والمجد المجسد؟!

أين تلك اللبنة التي يشاد عليها صرح من المجد منيف، وبينى بها ملك من العزة  
شامخ، تلك الحجة التي لم يدل بمثلها بطل، ولا ظفر بنظيرها مجاهد؟!  
لقد صور سيف الدولة من غبار الواقع لبنة، فليصور كتابنا وشعراًونا هذه اللبنة  
جهاداً وعزماً، وعزة ومجداً، ول يجعلوها في المفاخر مثلًا سائراً، وفي الأدب نثراً بليغاً،  
وشعرًا رائعاً<sup>٢</sup> ليقرءوا فيها شعر أبي الطيب في سيف الدولة، أو فلينشدوا فيها شعرًا  
أروع من شعر أبي الطيب، فما أنفذ شاعرنا مجد أميرنا وإن قال:

شاعر المجد خدنه شاعر اللف — ظ كلانا رب المعاني الدقاقي

<sup>٢</sup> سمعت من الشاعر الأديب رفيق الخوري أبياتاً في قصة هذه اللبنة ونحن في مهرجان أبي العلاء.

## على قبر الزهاوي<sup>١</sup>

بعد أن وُوري في التراب شيخ الشعراء وفقيد العرب، وقف على قبره الدكتور عبد الوهاب عزام، فنثر عليه هذه الزهورات:

اليوم يقع هذا النسر بعد طول تحليقه!  
اليوم يصمت هذا البيل بعد طول تغريده!  
اليوم يظفر هذا الجواد بالجمام!  
اليوم يستريح هذا الفارس من الآلام!  
اليوم تسكن هذه النفس الثائرة!  
اليوم يرقد الزهاوي في قبره!

كل نفس دائقة الموت، وإنما الله وإنما إليه راجعون.  
 وإنما الخالد من خلنته آثاره، وسيبقى شعر الزهاوي مدويًا بعد مماته، كما كان مدويًا في حياته؛ ليبعث العزائم الراقدة، ويشعل النقوس الخامدة. ستلتقي مصر والبلاد العربية نعي الزهاوي كما تلقى العراق والعرب نعي شوقي، فتتجاوب بلاد العرب بالرثاء، وتتبادل العزا، ونسأل الله أن يعوضها في شاعر العربية خيرًا.

<sup>١</sup> نشرت في ص ٣٤٨، العدد ١٣٩، السنة ٤ سنة ١٩٣٦ من مجلة الرسالة الغراء.

الأوابد

أيها الشاعر العظيم، ستدّهُ وذكركَ بيننا خالدة!

**أجمل لا تبعد فذكرك خالد** **الذكر للإنسان عمر ثان!**

# أوراق<sup>١</sup>

شرعت منذ ساعتين أقلب أوراقي في خزانة كتبِي وأرتبها، وأمزق ما لا أحتاج إليه. وأنا وأمثالِي من الأوراق في جهاد دائم، إن أغضبت قليلاً تراكمت على المكتب والكراسي، وكان منظرها هماً، والتفكير فيها ألمًا، ونفخت علينا العمل، فلا بد أن يتعهد الإنسان أوراقه بين الحين والحين، وإلا غلبه وتراكمت حوله تراكم الهموم.

وفي طبعي إلف يدعوني إلى الاحتفاظ بأوراق لا غناء فيها، وكلما طال عليها الزمن، وبعد العهد بما فيها، زادت قرباً إلى نفسي، وحباً إلى قلبي، وعزت على عزة الذّكر القديمة، والحوادث التي تؤرخ الحياة الماضية.

وقد عثرت — وأنا ماضٍ في نقد الأوراق وتمزيق بعضها، وقد غلبني التعب والملل، فهان عليّ تمزيق أوراق ضنت بها زماناً طويلاً — على ظرف فيه وريقات شتى، فجلست بها أقلبها، وأتسلى بذكرياتها، فإذا هذه الورiqات تمثل تقلب الإنسان في هذه الدنيا بين أعمال مختلفة، وشواغل شتى إن جمع بعضها إلى بعض كانت مفارقات مضحكَة، أو عظات مبكية.

هذه الورiqات في هذا الظرف الصغير ترجع إلى سفري في تركيا قبل تسع سنوات، فهذه أثباتات فيها كتب تركية في موضوعات شتى، ومعها بيان أثمانها. بين هذه الكتب نسخة عربية مخطوطة من «أمثال الميداني»، ونسخة جليلة من «كتاب المثنوي» — أغلبظن أنها كانت في يد العالم الشاعر والصوفي العظيم الشيخ عبد الرحمن الجامي —

<sup>١</sup> نشرت في ص ٣٠١، العدد ٧١٥، السنة ١٥ سنة ١٩٤٧ من مجلة الرسالة الغراء.

ذكرتني هذه الورقة بمجالس لي عند الوراقين في «حي بايزيد» من أحياط إسطنبول، وهو أحب أحياطها إلى نفسي.

ورقة أخرى فيها أسماء أربع عشرة من خزائن الكتب في هذه المدينة العظيمة «إسطنبول»، وقد دخلتها كلها، ونعمت بالقراءة والبحث عن الكتب القيمة فيها.

أوراق أخرى من هذا الضرب الذي شغلنا في السفر والحضر، واليقظة والنوم.

ورقة فيها قطع من الشعر التركي خطها أديب عالم تركي ظفرت بصحبته في تلك الرحلة هو المرحوم «فرييد بك». وكان — رحمه الله — متشارقاً كثير السخرية. ومن هذه الأبيات، وأحسبها من نظمه:

كجدى دنيدان آداملق دوره سى  
اعتماد إيت كل بو قول راجحه  
شمدى حيوانقلده درفيض ورواج  
روح إنسانيته الفاتحة

وترجمتها: مضى من الدنيا دور الإنسانية، اعتمد على هذا القول الراجح، والحيوانية الآن في فيض ورواج، فلروح الإنسانية الفاتحة.

وبعدها ورقة فيها بيان بكتب مخطوطه قديمة محللة رأيتها عند واحد من ولادة الترك السابقين، ورأيت كيف يعتز بها ولسان حاله يقول:

وقد تخرج الحاجات يا أم عامر      كرائم من رب بهن ضنين!

ثم ورقة تذكر بزيارة بيـت الشـعب في «أنقرة»، وما لقيت هناك من رجال وآراء، وتحف وأثار.

وبطاقة فيها ذكر كتب وأثار رأيتها في «مدينة قونية»، حينما زرت ضريح جلال الدين الرومي، ودار الملووية التي صيرتاليوم متحفـاً. وكم لي في دار الملووية من وقفـات وعظـات! وكم لها في النفس من ذكريـات!

وصورة صغيرة لرجل كريم رافقـته في طـريقـي من «إسـكـيشـهـر» إلى «قـونـيـة»، وساـيرـته في قـونـيـة ساعـات، فـحفـظـتـ الـودـ، وأـهـدـىـ إـلـيـ صـورـتـهـ، وـعـلـىـ ظـهـرـهـ كـلـمـةـ تـُـعـرـبـ

عن أخوته وصداقته، وتاريخها: ١٣ أيلول سنة ١٩٣٧، وقد افترقنا ولم يعلم أحدنا عن صاحبه من بعد شيئاً، ورحم الله حافظاً الشيرازي، يقول:

اغتنم الصحبة، فإننا حين نفترق من هذا المنزل ذي الطريقين لا نستطيع أن  
نلتقي أبداً!

وكل منازل الحياة ذات طريقين، بل طرق، إن افترقت بالمجتمعين لم  
يكونوا من اللقاء على يقين.

وبيدي الآن صفحة كتبت بخط نسخي جميل وباللغة التركية، وهي رسالة من أحد أدباء الترك إلى آخر يُعرب عن تحسّره على الشاعر الكبير الصديق المرحوم محمود عاكف. ولست أتذكر الآن المنشئ ولا الكاتب.

وهي صحيفة جديرة أن تترجم إلى العربية وتنشر تجديداً لذكرى شاعر الإسلام عاكف، الذي سعدنا بصحبته في مصر سنتين. وهاتان ورقتان نشرتهما، فإذا أبيات لي في وصف دمشق، إحدى ذكرياتها مسطورة بالرصاص، وللمداد فيها إصلاح وتغيير كالتمثال، ولا يزال يعمل في جوانبه إزميل النحات، وأول الأبيات:

وبسمة القلب والجبين	دمشق يا قرة العيون
ساعاً من الدهر ذي الشجون	لله يوم خلست فيه
عاد بها غابر السنين	دخلت خلف العصور داراً
يفيض بالشعر والفنون	رأيت تاريخنا تجلى

... إلخ.

وهي أبيات كثيرة، وصفت فيها داراً قديمة من دور دمشق ذات الحدائق والنوافير، والنقوش والزخارف التي تمثل تاريخنا يوم كنا نبني بأيدينا وعقولنا لأنفسنا، قبل أن نسلب الاستقلال في كل شيء، ونعني بالتقليد في كل شيء! وأخر الأبيات:

خرجت منها، يقول قلبي للرجل: بالله أنظريني

ومن الأوراق كتاب من «النادي العربي بدمشق» يتضمن شكري على محاضرة ألقيتها فيه، موضوعها: النهضة العربية.

وأوراق غير هذه، فيها حساب الفنادق، وما لي وللحساب؟!

هذا ظرف صغير نشرت منه هذه الذّكر كلها، وقد مضت عليها تسع سنين، وكأنما وقعت  
أمس.

وكل حياتنا ملأى بالواقع والفِكَر والعب، ولكنها تمر سريعة من الزمان، وينحى  
عليها الزمان المَحَاء بالمحو والنسيان، فهل من مدّكر؟!

أثارت هذه الورقيات ذكريات في نفسي تتصل بها ذكريات، وكشف النسيان عن حوادث  
عفى الزمان على آثارها، فسارعت بكتابة هذه الكلمة قبل أن يمحو الزمان الذّكر، ويفجع  
بعد العين بالأثر!

عبرة الحادثات

المدنية الأوروبية — على خيراتها — وما أجدت على الناس من علمها ورفاهيتها: مدنية مادية، دعائمها المعادن والأحجار، يصاغ قلبها من الذهب والحديد وأشباههما، ويغذى بالفحم والنفط وأخواتهما، وتدور بها دوالib المصانع والمغازل والمناسج.

قد استحكمت فيها الآلات، وأتقتن الصناعات، حتى أغنت عن الإنسان أدواتها، ونافسها عتادها، فثارت العداوة بين الآلات وصانعيها، وعمالها ومالكيها، وقد أوحى ذلك إلى بعض الأميركيين فاخترعوا إنساناً آلّياً يخدم خدمة الإنسان، ويتحرك حركاته. وهل الإنسان في المصانع إلا آلة سريعة العطب؟!

واستكليت هذه الآلات على غذائهما، وتنافست في أقواتها، وأحس كل أنها القوة لا العدل، والغلبة لا الإنصاف، فنفخوا في الأمم روح العصبية وغورو العنجيهة، وزعم كل قبيل أن أوله خير الأولين، وأنه سيد الحاضرين، وأن بنيه سادة الآتين، وأن الأرض كلها له، وأن الويل لمن جادله، ثم ما شئت من أناشيد مثيرة، وتربيبة هائجة، وإيقاظ الوحشية في النفوس، وإشعال البغضاء في الأفئدة، حتى صار الناس — على رغم العلم والفلسفة، وعلى ما قربت بينهم الوسائل الحديثة — أمييل إلى الحرب والجلاد، وأحب للتخرير والتدمير من أناسى القرون الخالية!

فبينا تراهم في ظاهر من السلام والوئام يتغدون بحضارتهم، ويعكفون على دراستهم، ويتكلمون في العدل والحرية والأخوة؛ إذ تحكم التجارب قبح الزناد، فإذا النار تحت الرماد، تغلب عليهم الطياع الحربية، وتسيطر عليهم الحياة الآلية، فإذا الأمم

كلها جنود ومصانع للسلاح والمدمرات، وإذا الأوروبي كالذئب الذي لبس جلد الشاة ثم خلعه.

ومهما يكن حظ القوم من العدل والنصفة، ونصيبهم من المودة والألفة، فذلك فيما يشجر بينهم من خلاف، فأما أهل الشرق سكان آسية وإفريقية من الأمم الملونة، فليس لهم في العدل حماية، ولا في القانون نصفة ﴿نَذِلَكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمَمِينَ سَبِيلٌ﴾.

وما يزال صدى الأحداث يدوي في آذاننا، وحسبك حروب طرابلس والبلقان والريف؛ فإن ساغ لأوروبي أن يطمئن إلى عدل أوروبية وإنصافها وقوانينها وجماعة أممها، فليس للشرقي أن يسكن إلى ذلك! فهو مال مباح، ودم مهدر.

و تلك أمة ينفح قادتها فيها الغرور والعجب، ويدكرونها مجد الرومان وغابر الزمان، حتى انتفخت أوداجها، وورمت أنوفها، ثم صاحوا فيها قد بطننا بطرابلس عشرين عاماً حتى دُوّخناها، وذللتانا دانيها وقصاصيها، ولكنها لا تفي بحاجتنا، ولا تسد مطامعنا. ونظروا فإذا في إفريقيبة دولة واحدة مستقلة حُفظ عليها استقلالها من دون أمم إفريقيبة. إنها دولة نصرانية، لم يستبع المغيرون أن يجعلوها كال المسلمين، ولكنها – على نصرانيتها – أمة سوداء، ضعيفة، تسكن أرضًا واسعة، صاح زعيمهم: هلم إلى الحبشة، فانبرت العقول تخترع الأوهام والتَّعلَّات، والألسن تفترى الكذب، والأقلام تخط الأبطال، وطفقوا يعيدون قصة الذئب والحمل حيناً، ويصرحون بمكون ضمائركم حيناً، وسار الشر إلى الحبشة في جيوشه ومفتياته.

ويشقق بعض الدول من هذه الغارات، ويختلف عقباها، فيستغيث الحق والعدل، وحماية الضعيف، والاقتراض من القوي، وتتوالى نذر الحرب، وتطيف بمصر مقدماتها، وتقف مصر بين دولة محتلة، وأخرى مجاورة، تشقة الطريق بين الحبشة وإيطالية. تهيب مصر بجيشهما، فإذا جيش ضئيل، وسلاح كليل، وتدعوا بنها، فإذا نفوس أبية، وسواعد قوية، ولكنها لم تدرب للقتال، ولم تعد للنضال، ولم تشهد الزحف، ولم تعتد التعرض للحتف، لم تحمل السلاح، ولم تتمرس بالآلات الكفاح: أنفس عزيزة، وأمة ذليلة! ويقول من أبي على الأمة أن تأخذ للأيام أهبتها، وتعد للخطوب عدتها: لا تراعوا، هأنذا أدفع عنكم! فاشكروني ولا تكفروني.

ولو ترك لنا من قبل، أن نعُبِّئُ جيوشنا، ونعد سلاحنا؛ لكان شكرنا أعظم وأجدى،  
وكنا في أنفسنا أعز وأقوى، وأنى يُعَزُّ من يدفع عنه في عقر داره، ولا يعول عليه في  
حماية نفسه:

ودرى من أعزه الدفع عنه      فيهما أنه العزيز الذليل

هذا موقف الذلة والمهانة، والضعة والاستكانتة، موقف من لا يملك لنفسه نفعاً ولا  
ضرراً، ولا يجلب لها خيراً ولا شرّاً:

رب عيش أخف منه الحمام!

ذلكم درس للحوادث مبين، وعظة للخطوب بلية، فعل المcriين راعيهم ورعايتهم،  
ودهمائهم وقادتهم أن يفهموا الدرس ويعوه، ويتدبروا الموعظة، وينتفعوا بها، ومهما  
تنجي عن السحب المكفحة، وتنكشف عن الحوادث المنذرة؛ فليعملوا برأي واحد، ويد  
واحدة، ويتوسلوا بالعزم والحكمة، حتى لا يقفهم الزمان هذا موقف مرة أخرى **﴿إِنَّ فِي**  
**ذَلِكَ لَذِكْرٌ﴾**.



## لِعَات

إلى الفيلسوف الشاعر محمد إقبال

جواباً لكتابيه «أسرار خودي» و«رموزي خودي»:

### ١

للصوفية فلسفة عالية في العالم والإنسان والخلق، ولهم آراء حكيمة في الأخلاق والمجتمع، وقد صاغوا كثيراً من آرائهم في صور شعرية جميلة، تجلّى فيها القلب الإنساني في أرقى مداركه، وأصفى منازعه، وصور فيها خفايا النفس الإنسانية.

وفي العربية كثير من الشعر الصوفي مفرق في الكتب، وفيها دواوين خصت بهذا الضرب من الشعر، أسمّيها ذكرًا ديوان ابن الفارض، ودواوين ابن عربي، وديوان النابلسي.

ولشعراء الفارسية المقام الأسمى في الشعر الصوفي، وقد حاكاهم فيه شعراء التركية والأردية، وأعظم شعراء الفارسية في هذا مجـد الدين سنائي، وفريـد الدين العطار، وجـلال الدين الرومي، وهو زعيم شعراء الصوفية وفلسفتهم جـمـيـعاً.

وكان الله - سبحانه - أراد أن يبعث مولانا جلال الدين في هذا العصر، مزوداً فلسفته وعلومه إلى فلسفة الصوفية وصفاء نفوسهم، بعثه في صورة شاعر الإسلام وفيلسوفه: محمد إقبال الهندي.

ولإقبال منظومات كثيرة معظمها بالفارسية، وببعضها بالأردية، وقد ضمنتها من الفلسفه والتوصوف والأخلاق والاجتماع والسياسة ونقد المدنية ما يملأ القارئ إعجاباً. والرجل حر يكره التقليد، ويحذر منه، فعقله وقلبه ظاهران في كل ما يكتب.

ومن منظوماته كتابان سماهما: «أسرار خودي» و«رموزي خودي»؛ أي أسرار الذاتية، ورموز اللا ذاتية. ومدار البحث في الأول أن العالم قائم على «الذاتية»، وأن حياة الإنسان بإبراز ما أودع فطرته من الموهاب، وتنمية نفسه، ومدار البحث في الكتاب الثاني بيان ائتلاف الأفراد في الجماعة، وما تقوى به الجماعات. وقد شرح ذلك شرحاً مبيناً، وضرب الأمثل، واستشهد التاريخ، وسما إلى الدرجة العليا في الشعر.

وقد ترجمت في مجلة «الرسالة» صفحات من الكتابين، ومن ديوانه «بيام مشرق» الذي جعله الشاعر جواباً للشاعر الألماني جوته.

وقد بدا لي أن أنشر في الرسالة منظومة أهديها إلى إقبال، وأجعلها صدى لكتابيه المذكورين آنفًا.

وأريد مع هذا أن أنهج بها في العربية نهجاً جديداً، وأجعلها مثلاً للمعاني السامية التي يتناولها الشعر إذا أطلق من عقاله، وحرر من الموضوعات الضيقة التي اعتادها جمهور الشعراء، ولا سيما المعاني التي تكثر في أشعار الصوفية العظام، ثم أريد أن أجعلها مثلاً للاقافية المزدوجة التي قصرها شعراء العربية على الرجز المشطور، كما قصرروا الرجز على نظم العلوم كالآلية والجواهر المكنون والتاريخ، كمنظومة ابن عبد رببه في أمراءبني أمية، والقصص كتاب كلية ودمنة، والصادح والباغم. وينبغي أن يسري هذا الضرب من التقافية إلى أبحر الشعر الأخرى، حين تعالج الموضوعات الواسعة، وهذا الذي سنى لشعراء الفارسية وغيرهم أن ينظموا عشرات الآلاف من الأبيات في قصة واحدة أو كتاب واحد.

وقد اخترت وزن الرمل ليُسره وخفته، واقتداءً بجمال الدين في المثنوي، ومحمد إقبال في بعض كتبه، ولا سيما «أسرار خودري» و«رموزي خودري».

## ٤

ثم التفعيلة الثالثة في الرمل تأتي تامة «فاعلاتن»، ومقطوعة «فاعلات»، ومحذوفة «فاعلاً»، والكافية المزدوجة تجعل كل شطرين متتفقين في الروي منفصلين ببعض الانفصال عن غيرهما.

فينبغي أن يسوغ الجمع في المنظومة الواحدة بين أبيات على فاعلاتن، وأخرى على فاعلات أو فاعلاً تيسيراً للناظم، ولكن الجمع بين فاعلاً وفاعلات حسن لا عيب فيه؛ لأن الحرف الأخير في فاعلات لا يتأنى إلا بعد مد. وبهذا المد يتم الوزن، فيأتي الحرف بعد المد نهاية للصوت، فلا يشعر المنشد باختلاف النغمة بين فاعلاً وفاعلات، مثل هذا:

البيتان الآتيان:

ليس في الناس عليه محرم	رب معنٌ في ضمير يكتم
أتراني مسمعاً من في القبور؟	وقلوب رمسها هذى الصدور

البيت الأولبني على فاعلا، والثاني على فاعلات، لكن الراء في كلمتي الصدور والقبور واقutan بعد مد، فتأتيان في نهاية الصوت كأنهما لا تحسنان في وزن البيت، وليس الأمر كذلك في الجمع بين فاعلاتن وغيرها؛ ففي البيتين الآتيين:

وطغى قلبي بمد بعد مد	كان لي الليل مداداً فنفذ
وغزاني الوجد فوجاً بعد موج	جاشت الظلماء موجاً بعد موج

إذا سكنت الجيم في موج وفوج يُبني البيت على فاعلات، فتجده قريباً جدًا مما قبله، وإذا حركت الجيم يُبني على فاعلاتن، فيبعد عما قبله بعض البعد، فينبغي أن يجتهد الناظم ألا يجمع بين فاعلاً أو فاعلات وبين فاعلاتن في منظومة واحدة؛ رعاية لانسجام النغمات.

وإنني أدعو أدباء العربية إلى العناية بهذا المثال الذي أقدمه في المعاني والقوافي  
ليقبلوه على بيته، أو يردوه بالحجّة، والله ولي التيسير.

كم حنت منك علينا أضلع!  
وملأنا الليل همماً وشجاً!  
وكرهت النجم عيناً رانيه!  
في شاعر الصبح سهماً صائبًا!  
فوعاه الليل عنّي ألمًا؟  
خطت الآهات فيه كالقلم!  
وطغى قلبي بمدٍّ بعد مذ  
وغزاني الوجد فوجاً بعد فوج  
وانجلت هندي، وهذا غامر  
ونجوم الليل منه شرراً  
وسحاب هاطل من أدمعي١

\* \* \*

خطه في غيبه الله الصمد  
حرثُ في الإعراب عنه بالكلم  
خط شيء فيه إلا الحرف «ما»<sup>٢</sup>  
صور الأقطار فيه تنتظم  
أحرف أوحت إلى معنى بعيد  
ليس في الناس عليه محرم<sup>٣</sup>

أيها الليل، إليك المفزع  
كم خفينا في غيابات الدجى  
كم ألغت الليل أمّا حانية  
كم ألغت الليل وحشاً راقباً  
كم بثثت الليل سرّاً كتما  
كانت الظلماء لوحًا للألم  
كان لي الليل مداداً فنفذ  
جاشت الظلماء موجًا بعد موج  
فنيت هندي، وهذا زاخر  
خلتني في الليل جمراً سعراً  
إرة قد وقدت في أضلعي١

كنت سطراً لم يفسره أحدٌ  
في ضميري كل معنى مُنبهمٌ  
قد ثوى العالم في قلبي وما  
جل قلبي أن أراه جام جم<sup>٤</sup>  
إنما الأقطار في قلبي العميم  
رب معنى في ضمير يكتم

<sup>١</sup> الإرة: جبل النار.

<sup>٢</sup> يعني: لم يكن العالم في قلبه إلا نفياً.

<sup>٣</sup> جام جم أو كأس جمشيد، في خرافات الفرس: كأس كانت ترى فيها الأقاليم السبعة.

<sup>٤</sup> المحرم هنا الأمين على السر، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات.

أتراني مسمعاً من في القبور؟<sup>٥</sup>  
 ناطق فيهم كأني أبكم!  
 ضاع في ضوضائهم هذا الأذان!  
 وعلى الآذان ران الصمم?  
 قلبه رخو خلي من شرر  
 بعشه يورى، وبعض يصلد  
 طفء الجمر ولم تور الزناد؟!

وقلوب رمسها هذي الصدور  
 أنا في الناس فصيح أعمج  
 صمت الآذان عن هذا البيان  
 كيف يجدي القوم هذا النغم  
 كيف يجدي القدح في هذا الحجر؟  
 إن خفق القلب قدح مجهد  
 كيف يجدي النفح في هذا الرماذ

ثم يلتف عليه الغسق  
 فيه بين الغيب والومض وضوح  
 فهو سطر من غياب وحضور<sup>٦</sup>  
 قامت الظلماء فيه نصبا  
 كبياض الطرس يعلوه المداد  
 ألغت منه سطور وضح  
 وكأن الضوء تفصيل الظلم  
 أعمقت معناه تلك النقط

يخرق الليل شعاع يخفق  
 كمنار البحر يخفى ويلوخ  
 أو يراع الليل يخفى وينير  
 تارة يبدو طريقاً لحباً  
 أو بياناً من بياض وسوداد  
 كل لون فيه حرف مفصح  
 وأراه تارة خطأ أحمر  
 فهو سطر من ظلام أرقط

<sup>٥</sup> إشارة إلى الآية: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

<sup>٦</sup> نشرت في ص ١٤٧١، ١٤٦٦، العدد ٤، السنة ٤، سنة ١٩٣٦ من مجلة الرسالة الغراء.

<sup>٧</sup> هذا من قول إقبال:

أي كرمك شبتاب سرافي تو نوراست      بروازتوك سلسلة غيب وحضور ست  
 يا يراعة الليل كل نور»      «وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور»

كل لون فيه حرف أعمج <sup>٨</sup>  
وحوى الأحرف سطر مظلم

\* \* \*

أوقدى علَّ على النار هدى<sup>٩</sup>  
أوقدى النار لأنباء السبيل  
علَّ هذا الركب يعشو شطراها  
أرشدي هذا الفراش الهائما  
حبدا المؤنس هذا الموقن  
لو حدانا في سفار منزل  
إنما النيران أعلام الطريق  
لا نبالي بقريب أو سحيق  
فأممنا البيت يحدونا الرجاء<sup>١٠</sup>  
وعن الأمواه والظلل الظليل  
خلع النعلان في وادي طوى<sup>١١</sup>  
نحن لا نرضى بنور الشفق  
لا ولا نرضى تباشير الصباح  
إنما نبغى ذكاء طالعه  
وغيينا عن رسم الأينق  
جمع الغرب لها والشرق  
لم يسعه في جواه موضع  
وانطوى دون مناه الزمن  
وعلى متن هيام لا يقر

يا لُبَيْنَى أوقدى، طال المدى  
أوقدى يا لبن قد حار الدليل  
ارفعي النار وأذكي جمرها  
شرّدي هذا الظلم الجاثما  
حبدا النار بليل تقد  
حبدا عندك هذا النُّزل  
ما لذا المنزل قد سار الفريق  
قد ترحلنا من الفج العميق  
رن في آفاقنا هذا النداء  
قد غنينا عن مبيت ومقيل  
وعن الرغبة والخوف سوى  
نحن لا نرضى بنار الغسق  
نحن لا نرضى بنجم الصبح لاح  
نحن لا نرضى نجوماً لامعه  
قد رحلنا بالجوى والحرق  
أين منا طائرات سبق  
نحن ركب في جواه موضع  
كل حر ضاق عنه الموطن  
كل طيار على متن الفكر

<sup>٨</sup> حاصل المعنى في هذه الأبيات: أن النفس تارة تدرك إدراكاً واضحًا، وتارة تغم على نفسها الحقائق.

<sup>٩</sup> إشارة إلى الآية في قصة موسى: ﴿لَعَلَّيْ أَتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبِيسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾.

<sup>١٠</sup> إشارة إلى الآية: ﴿وَأَذْنَّ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ﴾.

<sup>١١</sup> النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف، والإشارة إلى الآية في قصة موسى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلِعْ تَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْأَوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوَّى﴾.

طائر من تحته ذا الفلك  
كل غaiات لديه مبدأ  
زودي يا لبن من هذا اللهيب

طائر منه يغار الملك  
بارق في اللوح لا ينطفئ  
زودينا بهيام ووجيب

مُزقت منه دياجير الظلم  
أم كلام منه نور لائح؟  
أطرب الناشد صوت المنشد<sup>١٣</sup>  
ينبت الروح بسهب مقفر  
ببشر الغارق في بحر الرمال  
صاحب في أذني فقيد مبلس  
وهداه الصوت شطر القافلة  
كبلال لصلة أذنا  
دورة الإبرة شطر القطب  
ابركي يا ناقتي، تم السرور  
نعم ما روحت يا ريح الصبا<sup>١٤</sup>

جال في الظلماء نورًا من نَفَم  
أشعاع فيه صوت صائج  
أذن الركب لهذا المنشد  
سال في القلب مسيل المطر  
أو خير الماء من نبع زلال  
رنّ في نفسي رنين الجرس  
طوت البيداء عنه السابلة  
سبق القلب إليه الأذنا  
دار قلبي شطر هذا المطرب  
غُنّي يا منيتي لحن النشور  
عدت يا عيدي إلينا، مرحباً

\* \* \*

ومن الهاتف بالقلب الكسير؟  
ومن البارق في هذي الغيوم؟  
هادياً في الأرض جيلاً مظلماً؟  
يعرف النهج وقد حار اللبيب؟

حبدا الصوت فمن هذا البشير؟  
ومن المسعد في هذى الهموم؟  
ومن الهابط في نور السما  
ومن الهدادي إلى أرض الحبيب؟

<sup>١٢</sup> نشرت في ص ١٥٨٧، العدد ١٦٩، السنة ٤ سنة ١٩٣٦ من مجلة الرسالة الغراء.

<sup>١٣</sup> المنشد في الشطر الأول: منشد الشعر، وفي الثاني: الذي يدل على الضالة، والناثد: من ينشدها.

<sup>١٤</sup> جاء هذان البيتان بألفاظهما العربية في الجزء الثاني من «المثنوي».

وإلى الأصنام سير الأمم؟  
 سورة إخلاص في هذا النغم؟  
 في قيود الأسر هذا الأدهم؟  
 ومن القاطع أغلال العبيد؟  
 ثورة العزة من هذى الهمم؟  
 بص كالجمرة في هذا الرماد  
 ضل فيه المقتدى والمرشد  
 فرسا كالصخر في هذا الخضم  
 وطوى اللج على تياره  
 داعياً والناس غرقى في النهر  
 تقدّف اللجة قلبًا خامداً  
 جائش في الدهر لا يتهدى  
<sup>١٥</sup> همم الأحرار في أسفارها  
 فهي نور وهي نار حاميه؟  
 ويهم النجم من الحانه  
 قد حكا الشعر صوتاً مطرباً  
<sup>١٦</sup> وهو للأزمان قلب نابض  
 وحبته الزهر من أسرارها  
 وهو اليوم نجي الأبد  
 فلسان الغيب يملئ قوله  
 فانجلى السر له ما كذبا  
 إذا رأى القلب خلياً من هدى

ومن السائق شطر الحرم  
 ومن القارئ في بيت الصنم  
 ومن الحر الذي قد حطما  
 ومن الآبي على كل القيود؟  
 ومن الباعث في ميت الأمم  
 لاح كالغرة في هذا السواد  
 جرف الناس أتى مزبد  
 وطغى اللج عليه والتقطم  
 عارض الموج على أغماده  
 سبح اللج وبالشط استقر  
 يجرف التيار جسمًا جاماً  
 إن عزم الحر بحر مُزيد  
 هذه الأقدار في تسيارها  
 ومن الشاعر يذكر القافية  
 تقشعر الأرض من أوزانه  
 وكان الدهر صوت كتاباً  
 هو بالأشعار بحر فائض  
 حدثته الأرض عن أخبارها  
 هو بالأمس خبير بغداد  
 كشف الله عن الغيب له  
 عرف الشرق وراد المغرب  
 فرأى العلم سبيلاً للردي

\* \* \*

أسمع اليقظان في هذى الديار

صوت «إقبال» على شط المزار

<sup>١٥</sup> هذه: مبدأ، وهم: خبر.

<sup>١٦</sup> يعني أن الدهر أمام الشاعر كعلامات الموسيقى، والشعر قراءة هذه العلامات.

## السوقية في الأدب<sup>١</sup>

قرأت مقال الأستاذ الزيات الذي عنوانه: «دفاع عن البلاغة»، فوقع في نفسي على القبول والاستحسان، وألفيته ترجمانًا عن معانٍ ترددتُ في نفسي، ورددتها لساني، وذَكَرْني بحدث تحدثت به في دمشق في دار الأستاذ الصديق العلامة محمد كرد علي، رئيس المجمع العلمي العربي.

أذكر أنني جلست والأستاذ مرأة، فأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وأفضنا في أمور شتى، حتى دفعنا في الكلام عن الأدب، وما عرض له من آفات، وما حاق به من مساوى الاتجار، ومسايرة الآلات الحديثة عجلة واندفعاً، ومن تملق الجمهور بالإسفاف إليه، والتيسير عليه، وإمتاعه وتلهيه بما يلائم القراءة العجل، والنظرية السريعة. وقد أجملت هذا كله في كلمة ققلت: «قد غلت السوقية على الأدب». قال الأستاذ: أصبحت المحرز بهذه الكلمة، وأحسنت التعبير عما يسميه الفرنسيون: Mercantalisme.

وبيان هذا أن الآلات الحديثة يسرت الصناعة وعممتها وزوقتها، ولبست الجيد الثمين والرديء الرخيص في بعض المظاهر، فطمح كل في اقتناء الأمتنة التي كان لا يطمع فيها إلا الأغنياء، وطمع الفقراء في منافسة الآثرياء بأمتنة تقارب أمتنتهم أو تشبهها شكلاً ولو نّا، وقابل الصناع والتجار هذا الطموح وذاك الطمع بما يسدّه من بضاعة مزيفة خداعية، وكسدت الصناعات اليدوية الجيدة التي تُكلّف الصانع عمل الأشهر أو السنين، وأعرض الناس عنها مشفقين من تكاليفها، فمن لم يملك ثمن الحرير الطبيعي، أو لم

---

<sup>١</sup> نشرت في ص ١٠٩٦، العدد ٤٩١، السنة ١٠ سنة ١٩٤٢ من مجلة الرسالة الغراء.

تسخ يده به، عمد إلى الحرير الصناعي، ومن لم يستطع اقتناء الذهب، اقتني المذهب أو المموج، ومن لم يتسع ماله لاشتاء الماس، اشتري ما يشبه الماس، وهلم جراً.

فشايع بين الناس الصناعي إلى جانب الطبيعي، والمقلد إلى جانب الأصلي، والسوقى إلى جانب المستصنع، والزيوف إلى جانب الجود، والبهرج بجانب الصحيح.

والعلم على هذا القياس، فقد تولت الحكومات التعليم فيما تولّت، فحددت زمانه ومكانه، و موضوعه و درجاته، و خلطت الخطط ل تعميمه، و جعلت له شهادات تشهد ل أصحابها بالعلم، وعلى من لا يحملها بالجهل، و حشر إلى دور العلم الراغب والكاره، والأهل وغير الأهل، و وجّه الأحداث الوجهة التي يريدها العرف أو النظام أو الضرورة، لا التي تميل إليها نفسه، و تختارها مواهبه، و جرف التيار الناس، فصارت المدارس مصانع تصنع التلاميذ على قوالب متماثلة أو متشابهة، أو مطابع تخرج آلاف النسخ من كتاب واحد، وتقدم أصحاب الشهادات إلى الأعمال، كما تعرض السلع في الأسواق.

قال بعض السامعين: أليس نشر العلم و تعميمه خيراً للناس؟ قلت: لا ريب أنه خير، ولكن معه شرّا هو الذي حدثك عنه، ولست أبغى الآن أن أفنيض في هذا الداء وأدويته، ولكن ساقنا إليه الحديث في الأدب.

قال أحد الأصحاب: وهو الحديث الذي بدأناه ثم حذنا عنه، فلم نعد إليه.  
 قلت: والأدب على هذا النسق: الجرائد والمجلات والكتب شاعت وانتشرت، وصار الكاتب بهذه الوسائل الحديثة السريعة يعرض على الناس ما يكتب، وكأنه ماثل أمامهم يحدهم به أو يخطب فيهم، فهو يسايرهم مسايرة المحدث أو الخطيب، ويلقاهم كل يوم على صفحات الصحف، يلتمس رأيهما فيما كتب، ويعرف موقعه من نفوسهم، وكلما أرضى الكاتب جمهرة القراء سمع ثناءهم عليه، وإكبارهم إياه، فحرص على هذا الرضاء، رغبة في علو المكانة وبُعد الصيت، واضطرب إلى أن يسف إليهم، دون أن يرفعهم إليه، وأن يجاريهم، دون أن يصدّهم عما يشتهون، وأن يلاينهم، دون أن يحملهم على ما يكرهون، أو يكبّهم عما يهווون، وأن يلهيّهم و يضركهم، لا يشق عليهم ولا يسوّهم عناء، فكان الكاتب تاجر، وكان كتابته سلع في الأسواق أيضًا، والتاجر يلتمس لكل سوق ما يروج فيها، والرديء الرائق خير له من الجيد الكاـسـدـ!

ووراء هذا أصحاب الصحف والمكتبات والمطبع يبغون الربح في تجارتهم، والربح على قدر إقبال الجمهور على ما يخرجون، وإقبال الجمهور على قدر هواه و متعته و لهوه؛ فالكاتب الذي يرضي الجمهور ويمتعه ويلهيه أقرب إلى أصحاب الصحف والمكتبات

والمطبع، يبذلون له المال، ويصارعون إلى نشر ما يريد، على حين يجفون الكاتب المبدع الذي يحمل الناس على المكره، ويقودهم على الطريقة التي فيها صلامتهم، وإن نفروا عنها نفور المريض من الأدوية الكريهة.

قال صاحبي الملول: وما وراء هذا؟ قلت: وراءه ما زعمته أول الحديث من غلبة السوقية في الأدب؛ فقد صار بضاعة في السوق، أو تلهي في الملاهي، أروجها أقربها إلى عقول الناس وطباudem وإن تفهت وحقرت، وانتهت بهم إلى المهالك، وأكسدتها ما علا عن إدراك العامة وأشباه العامة، وما اقتضى فهمه عقلاً وعلمًا، وضاق عن الجمهور، ووسع الخاصة وحدهم، فمن شاء مالاً ورواجاً وصيتاً ومكانة عند العديد الأكثر؛ فليطلع على الناس كل يوم بقصة أو نادرة أو ملهاة مما يقرأ في القطار والترام وحين انتظارهما، ولি�تجنب الموضوعات التي تحوج القارئ إلى الجد والكد، والألفاظ التي تحتاج إلى علم باللغة واسع، والأساليب التي تقتضي التمهل والتأمل لإدراك ما فيها من جودة وبراعة وجمال.

ومن ابتغى إصلاح الجمهور وتهذيبه وتعليمه، وشاء الخير العام للناس، وراغب في الحقيقة والجمال، لا يبال أين يقعان من نفوس الدهماء، فلا يتتعجلن المكانة والصيت والمال، ولويكتب ابتعاء مرضاعة الله، وليدع إلى الخطة الرشيدة، وليس إلى مستوى الحق والخير والجمال، وليلبلغ ما يوحى إليه ربه، ويهدى إليه قلبه. وإن طمع في المكانة وحسن الأخلاق؛ فليعلم أنه منتهٍ إليهما لا محالة، ولن يضيع الخير والحق والإجاده والإتقان على مر الزمان، ولن يذهب العرف بين الله والناس.

فإن سأّل سائل: أترى الناس كلهم على قراءة الأدب الرفيع والفلسفة العالية؟ قلت: لا، بل أريد ألا تتحكم السوقية في الأفكار والأقلام، وألا يطغى الرواج على الجودة، أريد أن يؤدي الكاتب أمانته، ويبين عقيدته، غير حاسب حساب السوق، ول يكن بعد هذا في الكتابة ما يلائم العامة وما يلائم الخاصة، وما يجمع بينهما. أريد أن يعلو الكاتب ما مكنه طبعه، وأن يدق ما شاء له فنه، لا يعنيه إلا أن يؤدي واجبه على الوجه الأكمل.

وكذلك أريد أن ينزل الكاتب الآخر كما يريد طبعه، وأن يسهل ويدنو كما يشاء فنه، لكل وجهة، ولكل مجال، ولكل قراء. وإذا صدق كل كاتب نفسه، وأخلص لعمله، فرقت الكتاب المعرف والطبائع، فعلاً جماعة وهبط آخرون، وبعد كاتب وقرب آخر، وكانت ضروب الكتابة معبرة عن ثقافة الأمة وأذواقها، ملائمة أصناف الناس بما يسد حاجاتهم، ووجد الناس الصعب والسهل، والبعيد والداني، والغالي والرخيص كلاً في بيئته وفي مظانه.

لا أدعو إلى أن يصير الأدباء فنًا واحدًا في البيان، وأسلوبًا عاليًا في الكتابة، ولكن أخشى أن تذهب السرعة بالإتقان، وتطغى التجارة على الإحسان، ويختنق الكتاب حتى يروا حسناً ما ليس بالحسن، ويجرفهم السهل فيتجهوا حيث يريد الناس لا حيث يريدون، وينتقل الزمام من يد المقود، ويسير الإمام خلف المأمور، فتنبهم الغايات، وتلتبس الطرق، وتشتبه الأعلام. وما ظنك بجماعة تسير على غير سبيل إلى غير غاية؟!

## المنصور بن أبي عامر

مفخرة من مفاحير التاريخ العربي، ومثل من الهمة الطامحة، والنفس الهمامة، والعزم الذي لا يفل.

### ١

ينتسب إلى قبيلة معافر إحدى قبائل اليمن. دخل جده عبد الملك بن عامر الأندلس<sup>١</sup> في جند طارق بن زياد، وأقام بعد الفتح في الجزيرة الخضراء، فكان له ولبنيه شأن. واتصل أبو عامر جد المنصور بالخلفاء في قرطبة، وعُدّت أسرة أبي عامر في أسر الوزراء. وكان أبو حفص والد المنصور متأنّهاً زاهداً، شُغل بالحديث عن خدمة الخلفاء، ومات قافلاً من الحج، فدُفن بمدينة طرابلس.

وأم المنصور من أسرة تميمية؛ أسرة بني برباط. ويقول القسطلي في المنصور:

تلقت عليه من تميم ويعرب  
شموس تللا في العلا وبدور  
من الحميريين الذين أكفهم  
سحائب تهمي بالندى وببور

<sup>١</sup> كانت في الأصل هكذا: الأندلسي.

ونشأ محمد «المنصور» نجيباً، طماحاً، عظيم الهمة، كبير القلب، أثر عنه أيام طلبه العلم بقرطبة نوادر تنبئ باعتداده بنفسه، واستشرافه للمعالي، يقول محمد بن إسحاق التميمي:

كان محمد بن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل، فوجده قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه، فقلت له: ما أراك نمت الليلة! قال: لا، فقلت: ما أسرهك؟ قال: فكرة عجيبة، قلت: فبماذا كنت تفكراً؟ قال: فكرت إذا أفضي إلى الأمر ومات محمد بن بشير القاضي، بمن أستبدلته، ومن الذي يقوم مقامه؟ فجلت الأندرس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلاً واحداً، فقلت: لعله محمد بن السليم، قال: هو والله، لشدّ ما انفق خاطري وخاطرك.

وكذلك رشحته للمعالي نفسه العظيمة، وأمامه الكبيرة. والمرء حيث يضع نفسه. صار محمد من أعون قاضي قرطبة محمد بن السليم، ثم تقلب في القضاء، وجعل وكيلًا لعبد الرحمن بن الخليفة المستنصر وأمه، ولما مات عبد الرحمن جُعل وكيلًا لأختيه هشام، ورُتب له خمسة عشر ديناراً كل شهر.

وعرف الخليفة قدر الرجل، فكان يندهبه فيما يعرض من الأمور، ثم لاه الشرطة الوسطى، ولم يأل ابن أبي عامر جهداً في التقرب من هشام وأمه صبح، وكانت ذات مكانة عند الخليفة.

وعهد الخليفة إلى ابنه هشام، فحرص ابن أبي عامر على أن يحتفظ لهشام بولاية العهد، ثم الخلافة بعد أبيه، على كثرة ما اجتهد الصقالبة في تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر عم هشام.

وتولى قيادة الجيش إلى غزوة نكص عنها كبراء الدولة، ورجع منها مظفراً، فزاد هيبة ومكانة، ثم ولي شرطة قرطبة، فسيطرت على المدينة هيبيته وعدله، فأمن الأخيار، وسكن الأشرار.

يقول صاحب البيان المغرب:

فضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفالة وأولي السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويكافدون من

روعات طرائقه ما لا يكاد أهل التغور من العدو، فكشف الله عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفايته وتزذهه، فستر باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والدعارات، حتى ارتفع البأس، وأمن الناس، وأمنت عادية المجرمين من رجال السلطان، حتى لقد عثر على ابن له، فاستحضره في مجلس الشرطة وجده جلداً مبرحاً كان فيه حمامه، فانقطع الشر جملة.

ولما رجع من غزاته الثالثة ظافراً، رفعه الخليفة إلى الوزارة، وجعل راتبه ثمانين ديناً، وهو راتب الحجابة، ثم شارك أبا جعفر الحاجب، ثم استبد بالحجابة عام سبعة وستين وثلاثمائة، فقد بلغ أرفع مناصب الدولة.

٣

سيطر ابن أبي عامر سبعة وعشرين عاماً على الأندلس كلها، فصَرَّفَ أمورها في الحرب والسلم كما يشاء، ولم تجتمع أمور الأندلس في يد واحدة قادرة إلا في يد عبد الرحمن الناصر، ويد المنصور بن أبي عامر، فأما الناصر فقد ورث ملكاً ثبته رأيه وعزمه، ومضاؤه وإقادمه، وأما ابن أبي عامر فقد رفعه إلى السلطان نفسُ طماحة، وعزمية ماضية، وخلق مرير، ولم تكن هيبته في نفس أعداء الأندلس دون هيبته في الأندلس، فقد ألوح بالغزو، وانتدب للجهاد، فغزا خمسين غزواً في شمال الأندلس لم تنكس له راية، ولا بعدت عليه غاية، حتى بلغ شنت ياقوب في أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب، وما طمع أحد من المسلمين قبله أن تناول همته هذا المكان القصي.

لقد صدق صاحب البيان حين قال:

ثم انفرد بنفسه، وصار ينادي صروف الدهر: هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعدته، فاستقام أمره منفرداً بمملكة لا سلف له فيها. ومن أوضح الدلائل على سعاده أنه لم ينكب قط في حرب شهدتها، وما توجهت قط عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً، على كثرة ما زاول من الحروب، ومارس من الأعداء، وواجه من الأمم. وإنها لخاصة ما أحسبه يشركه فيها أحد من الملوك الإسلامية. ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعاده، وتمكن جنوده: سعة جوده، وكثرة بذله؛ فقد كان في ذلك أujeوبة الزمان.

وكان المنصور عادلاً شديداً في الحق، لا تأخذه فيه محاباة ولا شفقة، ولا يعرف في إنفاذ الحق هواة.

جاء إلى مجلسه رجل فناده: يا ناصر الحق، لي مظلمة عند هذا الفتى. وأشار إلى أحد فتيانه، وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت، قال المنصور: اذكر مظلمنتك، ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية! وقال الفتى: انزل صاغراً، وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك، وقال لصاحب الشرطة: خذ بيدي هذا الظالم الفاسق، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم ينفذ فيه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق.

ولما عاد الرجل المتظلم إلى المنصور يشكره، قال له:

قد انتصفت أنت، فاذهب لسبيلك، وبقي انتصافي أنا من تهاون بمنزلي.

وعاقب الفتى وعزله.

ما ثبت سلطان هذا الرجل الطماح المتسلط المقادم إلا بهذا العمد من العدل والإنصاف، وإيثار الحق على نفسه وخاسته.

وكان له فصاد، فاحتاج له يوماً، فقيل له: إنه في حبس القاضي؛ لحيف كان منه على امرأته. فأمر المنصور بإخراجه مع رقيب من رقباء السجن ليفصده ثم يعود إلى محبسه. وشكا الرجل إلى المنصور ما ناله من القاضي، فقال: يا محمد، إنه القاضي، وهو في عدله، ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع عنه، عُذ إلى محبسك أو اعترف بالحق؛ فإنه هو الذي يطلقك.

فمن يسأل عن ملك العرب والمسلمين كيف ثبت هذه الحقب الطويلة على أعاصار الخطوب؟ ففي هذا وأمثاله جواب!

وكان على كثرة مشاغله ذا عنایة بالأدب والعلم، يجتمع العلماء والأدباء كل أسبوع وييتنازرون في حضرته، ويمدحه الشعراء.

وكان — رحمة الله — دينًا متألهاً ورغاً، كتب بيده مصحفاً كان يحمله في أسفاره، وجمع ما علق بثيابه من غبار الحرب وأوصى أن يجعل في حنوطه إذا مات، كما فعل

## المنصور بن أبي عامر

أمير العرب ابن حمدان من قبله: صنع من غبار الواقع لبنة لتوضع في قبره تحت رأسه، واتخذ المنصور كفنه من مال موروث من أبيه، ومن غزل بناته اتقاءً للشبهة، وتورعاً أن يكون في أكفانه مال يرتاب فيه!

## ٦

توفي المنصور سنة ثلاثة وسبعين وثلاثمائة غازياً بمدينة سالم، في أقصى الثغور الأندلسية، ففرح أعداؤه بموته، وصوروها جنازته، ولا تزال صور الجنائز في متحف أوروبا.  
رحم الله المنصور بن أبي عامر؛ إن في سيرته لقدوة حسنة لكل طامح يسمو إلى الدرجات العلي في المنصب والدين والخلق.  
رحم الله المنصور؛ إن في سيرته لحجۃ يوم نفاخر بتاريخ العرب والإسلام.



## محب الدين النووي والسلطان بيبرس

كان شيخ الإسلام أبو زكريا يحيى النووي، من أعلام العلماء في القرن السابع الهجري، ذا مكانة عالية بين علماء الفقه والحديث، وكان له في التقوى والورع والزهد سيرة محمودة، وفي نصرة الحق وتأييده مواقف مشهودة.

ولا بأس أن نثبت هنا بعض سجعات ابن السبكي: «كان يحيى — رحمه الله — سيّداً وحصورةً، وليثاً على نفسه هصوراً، وزاهداً لم يبال بخراب الدنيا إذا صَرَّ رَبْعَ بينه معموراً، له الزهد والقناعة، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة، والمصابرة على أنواع الخير، لا يصرف ساعة في غير طاعة. هذا مع التقى في أصناف العلوم متون أحاديث، وأسماء رجال، ولغة، وتصوفاً إلى غير ذلك».

ولست أبغى هنا ترجمة النووي، ولكن أذكر وقعة كانت بينه وبين الظاهر بيبرس. وهي واحدة لها أمثال في سيرة الشيخ، ولها نظائر كثيرة في تاريخ الإسلام:

كان بيبرس ملكاً مجاهداً، أبل في قتال التتار والصلبيين بلاءً عظيماً، وقد انتظمت شجاعته وعزيمته مع شجاعة أسلافه وأخلاقه من الأيوبيين والماليك، فكانت سطراً من الجهاد والجلاد وقى البلاد المصرية مصابيح الغزارة، وخَيَّب دونها آمال الصليبيين مائتي سنة، وكذلك كانت همته وإقدامه هو وجنوده في مصر والشام كالطود، ارتد عنه سيل التتار بعد أن جرف البلاد الإسلامية من سمرقند وخوارزم إلى حلب ودمشق، فعلموا جنود هلاكو في «موقعة عين جالوت» وما بعدها، أن مصر أبعد من أن يطمعوا فيها، وأن الشام أعز من أن يسيطروا عليه.

وكان بيبرس في جهاده المستمر وحربه المتداة يتسلل إلى المال يستعين به على جهاده، وكان الشيخ النووي يكتب إليه ناصحاً كلما رأى في عمل السلطان شدة، أو جوراً، أو مخالفة للشرع، لا يبني في هذا ولا يداهنه، ولا تأخذه رغبة ولا رهبة.

كتب مرة إلى السلطان هو وبعض العلماء يطلبون رفع بعض المكوس، ويوصون بالعدل والشفقة، فكان في الجواب إنكار وتوبخ وتهذيد، فكتب الشيخ النووي يجادل فيما تضمنه جواب السلطان، ويقول:

وأما تهذيد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهذيد طائفة العلماء، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأي حيلة لضعفاء المسلمين في الناصحين نصيحة للسلطان ولهم، ولا علم لهم به؟ وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهذيد ولا أكثر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان؛ فإني أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيري، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾، ﴿وَأَفْوَضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾. وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا، وألا تخاف في الله لومة لائم.

ولما ذهب السلطان إلى الشام لمحاربة التتار، أراد أن يأخذ مالاً من الرعية يستظره على العدو، واستفتى العلماء فأفتوه، ثم سأله الشيخ النووي أن يشارك العلماء في الفتوى، فلما حضر الشيخ قال السلطان: اكتب خطك مع الفقهاء، فامتنع، قال السلطان: لماذا لا تكتب؟ قال الشيخ:

أنا أعرف أنت كنت في الرق للأمير بندقدار، وليس لك مال، ثم من الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حق من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت ماليك بالبنود الصوف بدلاً من الحوائض، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتدرك بأخذ المال من الرعية.

قال الظاهر للشيخ: أخرج من بلدي. يعني دمشق.

قال الشيخ: السمع والطاعة. وخرج إلى نوى.

فأنكر الفقهاء أن يخرج مثل النووي من المدينة، وسألوا السلطان أن يرجعه، فأمر السلطان بإرجاعه، فأبى الشيخ وقال: لا أدخلها والظاهر بها.

لست أدرى أكان السلطان محقاً في فرض ما فرض من المال أم لا، ولست - لذلك - أعرف أكان الشيخ محقاً في جبه السلطان بما جبهه به، ولكن لا ريب عندي أن

السلطان أحسن حين التماس فتوى العلماء قبل أن يجمع المال، وأن الشيخ أدى واجبه حين صارح السلطان بما يعتقد، ولم يأخذه في الحق خوف ولا طمع، وأن محبي الدين النووي قد فقه أحسن الفقه ما على العلماء من النصيحة لأولي الأمر، والجهر بالحق في غير مداهنة ولا خوف.

رحم الله النووي، لقد كان من علماء المسلمين، والله تاريخ المسلمين كم فيه من أمثال  
محبي الدين!



# الفريقيان المتحاربان في فلسطين

## الحق والباطل

يحترب في فلسطين فريقيان: فريق العرب يذود عن ذماره، ويدفع عن حقه، ويدعو إلى النصفة والعدل، وإلى أن يعيش هو وخصمه أمة واحدة في بلد واحد، لكل حقه، وعلى كل واجبه.

وفريق آخر من شذاذ الأفاق، وخبيث الأقطار، يلجون على العرب ديارهم، بأيديهم المال والسلاح، وما أورثهم تاريخهم والعيش الذليل في أوروبا من ختل وغدر، يظنون أنهم صاروا أمة لأن باطلًا يجمعهم، وعدوانًا يربط بينهم. وكل فرقة منهم تنمو إلى أمة، وكل جماعة تنتسب إلى بلد، وكل فرد يحمل سحنة تناقر سحنة أخيه، ولا تشبهها إلا في سمات اللعنة فيها، ومياميس الخزي عليها.

ويقول هؤلاء الأرذلون: لا نرضى نصفة معكم، ولا مساواة بكم، ولكننا نريد وطنًا ودولة، وأنف الحق راغم، ودعوة العدل صغيرة، وإن لنا قوة من سلاحنا، ومالنا، وحيانا، وغدرنا، وخيانتنا، ولنا أعون في أوروبا وأمريكا يسخرون بالمال، ويسيخرون بكل الوسائل رؤساء الدول، وأئمة الساسة، وأصحاب الصحف، وببيدهم المصارف ودور السينما وكل وسائل النشر والتضليل؛ ففي أيها العرب المساكين، أفسحوا المجال لدولة إسرائيل!

ويقول العرب: لا، بل **﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾**، نسويكم — أيها الطراء المتطفلون — بأهل البلاد الذين أقرهم التاريخ فيها، لا يعرفون غيرها وطنًا، ولا يتذذون غيرها دارًا، فهلموا إلى الدولة الواحدة، والشريعة العادلة، والتآخي والتناصف!

فتقول هذه الوجوه الملعونة، وهذه الفئات الطريدة: لا، إن أرضكم لنا، ودياركم  
لدولتنا، فأنزلوا على حكمنا صاغرين!

ويحمى العربي، وهو سمح لا خنوع، وجود لا جبان، وحليم لا ذليل، ويستنصر حقه، ويتوكل على ربه، ويستمد سجاياه وشيمه، وأخلاقه ومكارمه، ثم يستوحى تاريخه، ويحشد مآثره؛ فيستبق إليه من أحداث تاريخه وما ثر أمتة ما يثبته في المحن، ويوقره في الشدة، وينتال إليه من عز ماضيه ومجد سلفه ما يهون عليه كل خطب، ويقحمه كل هول.

ويصل على عدو اليهود ومن ورائه مدد من قوى أوروبا وأمريكا، وتدور به خد العاذرين، وتهاول المهولين، وهو العربي الذي يعرف نفسه ويعرفه التاريخ، ويهاً بالشدائِد إذا جد الجد، ويُحقر الأهوال إذا اشتَدَّ الْبَاسُ:

**فأثبتت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت أخمصك الحشر!**

إن العربي يعرف ما في أيدي أعدائه، وأعوان أعدائه من مكر، وما لديهم من مال وسلاح، وما عندهم من علم وفن، ولكنه يعرف كذلك ما له من حق، وما عنده من كرامة، وما فيه من إباء، وما يمده به تاريخه من ثبات في الأزمات، وصبر في الخطوب، فيقدم على الأهوال ذاكرًا قول سلفه:

**إذا هم ألقى بين عينيه عزمَه ونَكَبَ عن ذكر العوَاقِبِ جانباً**

ويتقدم، فيزيده الهول مضاء والنار صفاء، منشدًا:

فإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبْدَلُ  
فَمَا لَيْنَتْ مِنَ قَنَةٍ صَلِيبَةٍ  
وَلَكِنْ رَحْلَانَاهَا نَفُوسًا كَرِيمَةٍ  
وَقَبَنَا بِحُسْنِ الصَّبْرِ مَنْ نَفُوسَنَا

حسب الصهيونيون أن الأمم مال ورباً، وأشكال وألوان، وهياكل وجداران، وبغي وعدوان، وغفلوا عنحقيقة الإنسان. الإنسان الكريم نفس كريمة، وقلب شجاع، وخلق

أبُّي، وما وراء ذلك صور وزخارف، وخدع وأباطيل، تذوب إذا وقدت النار، وتبوخ إذا حمي الوطيس.

ألا ساء فأل الأوغاد وخاب ظنهم حين زينت لهم أموالهم وزخارفهم أنهم للعرب أكفاء وأنداد، فلتبطل دعواهم الواقع، ولتكذب ظنونهم المعارض.

ألا إنه إن تحدى باطل الصهيونيين حق العرب، وجرؤ شزاد الآفاق على خير الأمم، ولم يلقوا كفأء بغيهم من ردع، وجراة عدوائهم من خزي:

فيما موت زُرْ إن الحياة ذميمة      ويَا نَفْسِي جَدِي إِنْ دَهْرَكَ هَازِلٌ

أيها العرب الأباء، إنه يوم له ما بعده، فاصدعوا الأهوال بقلوب متفقة، وأيد مجتمعة، وامضوا إلى الغاية التي هي بكم أجدر، وبتاريخكم أليق، إنكم تقاتلون حيث قاتل آباءكم في اليرموك وأجنادين وحطين، وقد حطموا الباطل في كبرياته، وردوا البغي في غلوائه، فزَلَّوا بهؤلاء البغاء الديار، وردوا جند الصهيونيين بالخزي والدمار، واتركوها على التاريخ مأثرة إلى مأثر آباءكم، وسجلوها على الأيام مفخرة إلى مفاخر أسلافكم ﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

### الكرم واللؤم<sup>¹</sup>

ما ينقم اليهود من العرب إلا أنهم حموهم، وأحسنوا إليهم، وفسحوا لهم في ديار العرب يعيشون أحرازاً، ويغشون معابدهم كما يشاءون، ويتولون أمورهم الدينية دون حرج. ففتح العرب فلسطين، والروم يسيطرون عليها، والأمكنة التي يقدسها اليهود، والتي يعادون العرب من أجلهااليوم مزابل عفى عليها الزمان والهوان، فظهر العرب هذه الأمكنة، وجعلوها مساجد تعظيمًا لها، واتباعًا لأمر الإسلام الذي يعترف بما في الأديان السابقة من حقائق ويعظمها، ويبين أنه الدين العام الجامع، الذي يجمع كل ما أوحاه الله إلى رسالته في العصور كلها، والأقطار جميعها، بعد أن ينفي عنها تحريف المبطلين، ويخلصها مما علق بها من خرافات الجاهلين.

<sup>¹</sup> نشرت في ص ٨٨٥، العدد ٢٨٨، السنة ١٠٦ سنة ١٩٤٨ م من مجلة الرسالة الغراء.

وعاش اليهود في كنف العرب أحراً في فلسطين وغير فلسطين، وتبجحوا في الأقطار العربية خاصة، والإسلامية عامة، وساروا سيرتهم في عبادة المال، والتسلل إليه بكل الوسائل، فوجدوا مرتعًا خصباً، ومتقلباً فسيحاً.

وقد بلغوا في أقطار العرب مناصب علية، وكان لجماعات منهم شأن عظيم في الدولة الفاطمية في مصر، والدولة الإلخانية في العراق، ودول العرب في الأندلس وغيرها.

ثم ضرب الدهر ضربانه، ودار الفلك دورانه، وجاء اليهود إلى فلسطين يزحفون أصدقاءهم في ديارهم، ويستعينون على حماتهم بالأمم التي كرهتهم وأذلتهم وشردتهم، فقدروا بأعمالهم صداقة العرب، ولم يكن لليهود صديق سواهم في هذا العالم.

وينسى اليهود تاريخهم وتاريخ العرب كله، ويرمون العرب بكل ما علمتهم أوروبا من عداون، وبكل ما في سجايدهم وتاريخهم من ختل وعداوة للبشر جميعاً، إلا من كان يهودياً، وقالوا بزعمهم: هذه بلادنا ومواطننا، نحن أولى بها، قد عشنا فيها زمناً، وسيطرنا عليها حقبة، ولسنا نبالي أن يكون العرب استوطنوها بعدها، وعاشوا فيها أكثر مما عشنا، وسيطروا عليها أطول مما سيطرنا، ودافعوا عنها ونحن مشردون في أقطار الأرض، وهم اليوم فيها يعمرونها، ويقلبون في أرجائها، ويحفظون فيها آثارهم وما ترثهم، وفي جوانبها قبور آباءهم الذين استشهدوا فيها، ودفعوا عنها جبروت الروم، وجالدوا من أجلها الصليبيين مائتي سنة!

يقول اليهود: لا نعرف التاريخ، ولا نذكر فضل العرب؛ فإنما قوم لا نزن الأمور إلا بالمال والمنفعة، ولا نقدر الأشياء إلا بفائدةنا وشهوتنا، وإن نال غيرنا ضر، فهذا الضرر هوانا وبُغيتنا، وبه جذلنا وغبطتنا، فإننا نعمل لأنفسنا، ونبغض البشر أجمعين، سواء منهم من أساء إلينا — كأهل أوروبا — ومن أحسن إلينا كالعرب، ولكننا نستعين بجماعة على أخرى، ونتمنى أن يهلكوا جميعاً!

لليهود ماضٍ في فلسطين، وللعرب ماضٍ وحاضر، لليهود فيها تاريخ انقطع منذ عشرات القرون، وللعرب تاريخ موصول منذ عشرات القرون.

لليهود في فلسطين تاريخ ذليل مشرد، انقطع بجلائهم عنها، ويأسهم منها، وللعرب تاريخ مجيد عزيز، دافع عنها في غير يأس، واستقر بها في غير ذلة.

لليهود في فلسطين أحجار مهدمة يبكون عليها، هي بقايا الأحداث، وفضلات العصور، وللعرب آثار قائمة مشيدة، تصل تاريخهم، وتشهد بمازفهم، وتكتُب دعوى اليهود في كل بقعة.

لليهود في فلسطين صفحات في الكتب، وللعرب صفحات خالدات في أوديتها، وجبارتها، ومدنها، وقرابها.

ولو لم يكن للعرب في فلسطين إلا أنهم دافعوا الصليبيين فيها، وحولها أكثر من مائتي عام، حتى أجلوهم عنها، وأفروا مجدهم وتاريخهم فيها، لكن هذا كفيلاً لم بحقهم فيها أبداً الدهر!

حق العرب في فلسطين يقاتل باطل اليهود، وإحسان العرب يقاتل كفران اليهود، وكرم العرب يلاقى لؤم اليهود.

يقاتل في فلسطين الحق والباطل، والخير والشر، والمرءة والندالة، والأخلاق الإنسانية العالية، والطبائع الحيوانية الدينية، والتاريخ العزيز القائم، والتاريخ الذليل الميت!

وإن عدل الله – سبحانه – وإن كرامة الإنسان، وإن أخلاق البشر، وسنن الخليقة لتأبى أن يغلب جندُ الباطل جندَ الحق، والفتنة اللثيمة الفتنة الكريمة، وأعوانُ الشر أعوانُ الخير، وحزبُ الشيطان حزبَ الله ﴿بِلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.



## ضربات معول

١

في العام الخامس من الهجرة تألب الشرك على التوحيد، وائتمر الباطل بالحق، وكاد الشر للخير. تقاسم رعوس الضلال لِيغزَنْ «المدينة»، وليقتلَّ هذه الجماعة الناشئة، وليبطَّلَ تلك الدعوة الجديدة.

مشى يهود «خير» إلى قادة قريش، وحرضوا القبائل الضاربة غربي «نجد» وشرقي «خير»؛ قبائل غطفان، فاجتمعت كلمة هؤلاء وهؤلاء على غزو «المدينة» والبطش بال المسلمين.

ورأى المسلمون أنهم لا قبل لهم بهذه الأحزاب، لا يستطيعون دفع قريش وغطفان وألفافهما، لا قبل لهم بهذه الجموع الحاشدة من قيس عيلان وقريش ومن انحاز إليهم. هذه الجموع التي قال فيها حبي بن أخطب، أحد زعماء اليهود الذين آتُوا الناس على المسلمين، حين جاء إلى كعب بن أسد القرظي، رئيسبني قريظة — وهم بقية اليهود في «المدينة» — فقال له يحرضه على نقض عهد المسلمين: «ويحك يا كعب! جئتكم بعزم الدهر، وببحر طام، جئتكم بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلهم بذنب نَقَمَ إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقلوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.»

أهمَّ المسلمين هؤلاء الأعداء، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق يصد الجيوش عن المدينة، فخط رسول الله ﷺ في موضع المخافة من المدينة، وذلكم في شمالها، من حيث يطمع العدو في دخولها. وأما الجوانب الأخرى فكانت ممتنعة على الغراة بجبالها

ونخيلها. خط الرسول الخندق من أجم الشيختين إلى المذا،<sup>١</sup> وقطعه بين الصحابة أربعين ذراغاً، لكل عشرة رجال، وجَّدَ المسلمين ليفرغوا من الخندق قبل أن يدهمهم العدو، والرسول يشرف عليهم، يشاركهم أحياناً في عملهم وارتजازهم.

٢

وبينما عشرة من الصحب يحفرون قسمهم من الخندق إذ لقوا صخرة قاسية أثرت في معاولهم، ولم تؤثر فيها المعاول، وكرهوا أن يعدلوا عنها فيحيدوا عَمَّا خطه الرسول لهم، فقالوا لسلمان الفارسي، أحد هؤلاء العشرة: اصعد فانظر ماذا يأمر رسول الله؟ فرقى سلمان فقال:

يا رسول الله، بأبينا أنت وأمنا، خرجت صخرة بيضاء عن الخندق مروءة فكسرت حديتنا، وشققت علينا، حتى ما نحيك فيها قليلاً أو كثيراً، فمرنا فيها بأمرك؛ فإننا لا نحب أن نجاوز خطك.

قال راوي القصة عمرو بن عوف المزني:

فهبط رسول الله مع سلمان في الخندق، ورقينا نحن التسعة على شفة الخندق، فأخذ رسول الله المعلول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعاها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتتها،<sup>٢</sup> حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمين. ثم ضربها رسول الله الثانية، فصدعواها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتتها، حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمين، ثم ضربها رسول الله الثالثة فكسرها، وبرقت برقة أضاءت ما بين لابتتها، حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله وكبر المسلمين.

ثم أخذ بيده سلمان فرقى، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد رأيت شيئاً مارأيته قط! فالتفت رسول الله إلى القوم فقال: هل رأيتم ما

<sup>١</sup> لم يكن الخندق محيطاً بالمدينة كما يتوهם بعض الكتاب.

<sup>٢</sup> الابة: الحرقة، لابتة المدينة: حررتها الشرقيّة والغربيّة.

يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله، بأبينا أنت وأمنا! قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالمحج، فرأيناك تكبير فنكير، ولا نرى شيئاً غير ذلك.<sup>٣</sup>

قال رسول الله: أما الأولى فقد أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، والثانية أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم، والثالثة أضاءت لي منها قصور صنعاء؛ فأبشروا يبلغهم النصر! وأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر.

٣

إن هذا الشيء عجب: جماعة قليلة لم تستطع الدفع بأيديها وأسلحتها فاعتصمت بالخندق تتقى به عدواً أكثر عدداً، وأعظم عدة، جماعة قليلة جاهدة يدهمها عدو حاقد محنق قد صمم على أن يستأصلها، وليس لهذه الجماعة رداء على الأرض ولا مدد، وهي تكدر لحفر الخندق، وتتكل أيديها، فينزل قائدها يعينها ويواسيها، على حين أحاط بها الخوف **(وَإِذْ رَأَغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجَرَ وَتَظْنُونَ بِاللهِ الظُّلُونَ).** وفي هذه المخاوف، وعلى هذه الحال يتحدث هذا القائد بفتح المشرق والمغرب، ما أعظمها دعوى! وما أعجبها أمنية!

ذلك قال الذين رأوا عدداً قليلاً من الناس يحرف أرضاً ليتقى عدوه، ولم يروا ما وراء هذه الأجسام القليلة من معانٍ كثيرة.

قالوا: «ألا تعجبون؟ يُحَدِّثُكُمْ وَيَمْنِيكُمْ، وَيُعَدِّكُمْ الْبَاطِلُ، يُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ يَبْصُرُ مِنْ يَثْرَبِ» قصور «الحيرة» و«مدائن كسرى»، وأنها تُفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا». **(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا).**

<sup>٣</sup> الطبرى: غزوة الخندق.

<sup>٤</sup> مختصر من الطبرى، وفي رواية ابن هشام: أن الأولى فتحت بها صنعاء، والثانية فتح بها المشرق، والثالثة فتح بها الشام والمغرب.

أجل، من يرَ هذه الجماعة القليلة تدرأً عن نفسها بهذه الحفيرة، يعجب ألا يشغلها ضعفها، والهول الذي دهمها، والخوف الذي أحاط بها عن التحدث بالفتح؛ فتح المشرق والمغرب ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبُرِ﴾!

٤

لا، لم تكن في المدينة جماعة قليلة، ولكن كان الحق يصاول الباطل، والخير يدفع الشر، والإيمان ينازل الكفر، والتوحيد يواثب الشرك، والعزم يقاتل الخور، والمجتمع يثبت للافراق، والصبر يصم للجزع، واليقين يتحدى الشك، كانت معانٍ تقاتل معاني، وما ضر المعنى الظافر في سنة الله قلة أنصاره على الأرض، ولا نفع المعنى المنهم في قانون الله كثرة سواده في الناس.

وما كان مسلمو الخندق يحادون قريشاً وغطفان ويهود وحدهم، بل كانوا يحددون الأمم كلها. لقد انقسم العالم يومئذ فريقين: أهل المدينة الذين يحررون الخندق، ومن في خارج المدينة في جزيرة العرب وفي غير الجزيرة من أطراف الأرض كلها.

لقد كان هذا الخندق فاصلًا بين جماعتين: جماعة قليلة تحتضن حًقا وليداً، وتاريحاً جديداً، وتلتقي حول عقيدة وشريعة وخلق، وبين سواد الأمم كلها يموجون في باطلهم، ويسيرون في مواكب للجهالة والإثم، والعدوان والظلم، ويحوطون أوثاناً من الحجر، أو أصناماً من البشر.

وما كان العرب إلا العدو الأدنى، عرف هذه الجماعة فhzdrها، وكرهها فآذاها، ثم أشـقـ منها، فـائـتـرـ بـهاـ، وـعـزـمـ لـيـأـخـذـ عـلـيـهاـ الطـرـيقـ، وـلـيـمـنـعـنـهاـ أـنـ تـنـتـشـرـ عـلـىـ الـأـرـضـ، وـلـيـفـرـقـ جـمـعـهاـ، وـيـبـدـدـنـ نـظـامـهاـ، وـيـبـطـلـنـ دـعـوتـهاـ. وـكـانـ أـمـمـ الـأـرـضـ كـلـهاـ مـنـ وـرـاءـ هـؤـلـاءـ الـعـربـ حـرـبـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـجـمـاعـةـ لـوـ قـارـبـوـهاـ وـخـالـطـوـهاـ.

وما كان العرب المشركون في حرب العرب المسلمين وأعدائهم إلا حًدا بين عصر وعصر، وفاصلًا بين تاريخ وتاريخ.

ولكن العرب الكثريـنـ منـ قـرـيـشـ وـغـطـفـانـ وـيـهـودـ — وـهـمـ طـلـائـعـ جـيـشـ الـأـرـضـ كـلـهاـ — لمـ يـكـونـواـ فـيـ أـنـفـسـهـمـ، وـفـيـماـ اـنـطـوـتـ عـلـيـهـ هـذـهـ الـأـنـفـسـ مـنـ معـانـ أـقـوىـ وـلـاـ أـوـلـىـ بـالـظـفـرـ مـنـ هـذـهـ الـجـمـاعـةـ الـقـلـيلـةـ. دـعـ لـلـعـدـ الـقـلـيلـ وـلـلـعـدـ الـكـثـيرـ، وـانـظـرـ هـذـهـ الـمـعـانـيـ تـقـاتـلـ تـجـدـ التـوـحـيدـ يـحـارـبـ الـوـثـنـيـةـ، وـفـضـيـلـةـ تـقـاتـلـ الرـذـيـلـةـ، وـالـنـظـامـ يـدـافـعـ الـفـوـضـيـ، تـجـدـ الـخـيرـ

والشر، والعدل والجور، والحرية والعبودية، والحق والباطل في معركتك، فانظر لأي هؤلاء العاقبة!

وهل كان المعول في يد رسول الله، وضربات المعول في هذا الصخر الأصم، وهذه البرقات التي ماج بها الهواء كالمصباح في بيت مظلم إلا الحق يصادم الباطل، والإيمان يصاول الشرك، والنور يمزق الظلام، والحق العزيز المصمم يكسر ما يعترضه، ويدمغ ما يصده.

كانت هذه الضربات رموزاً لما ورائها من جهاد وجلاء، وكان هذا الضوء بيأناً لما يتصل به من هدى، وكانت يمين الرسول العزم المصمم، وكان كل خير وحق وفضيلة في النفس التي تتطاش بهذه اليد.

كانت هذه المعاني كالشارة الصغيرة توجّج ما شاء الله من نار ونور، والأحاداد في الأعداد تستوعب كل ما يدركه العد، وكالفكرة الأولى تفتح للعقل طريقاً مديداً، ومذهبًا جديداً، وكرحوف الهجاء تنتظم لغات العالم، وكقرص الشمس يغمر العالمين نوراً. كذلك سخر الذين سمعوا قصة «محمد» ومعوله، وعرفوا حديث القائد المحصور ببشر بفتح العالم! ولكن كثيراً من هؤلاء الساخرين عاشوا حتى سمعوا صدى هذه الضربات في «اليلموك» و«القادسية»، وما تلاهما شرقاً وغرباً، وأبصروا برقبها يصعق «يزدجرد» و«هرقل» وجنودهما، وكل جند للباطل على ظهر الأرض.

ورأوا المعاني التي مثلتها هذه الضربات، وقد صارت بالباطل غير رفيقة، وزلزلت الظلم غير مشفقة، وانتشرت في المشرق والمغرب كالسحاب مجلجاً، مضيئاً، صاعقاً، محطراً منبتاً.

عاش الساخرون عشر سنين، فرأوا جزيرة العرب تدين لصاحب المعول، ورأوا فارس والروم تخسر لضرباته، والشرق والمغرب يستضيء بهذه البرقات، وعلموا يقيناً أن محمدًا صدقهم حينما وعدهم فتح العالم وهو قائم في الخندق يحطم بمعوله الصخرة التي أُعيت على أصحابه.



## عمر المختار وأصحابه<sup>١</sup>

في كل فج عزّهم سيار  
إلى الردى تهافتوا وطاروا  
في حومة الموت لهم أوطار  
جماعة ليس لهم ديار  
إلا ظهور الخيل والغبار  
يصول فيهم بطل مغوار  
شيخ المنايا عمر المختار

تأبى لهم كرامة الإسلام يأبى إباء العرب الكرام  
أن يُسلِّمُوا الأوطان دون الهم مُنيتهم مشارع الحمام  
بين رُبا برقة والوديان  
وفي الدّحال وعلى الرعنان  
وفي شعاب الأرض والمحاني

<sup>١</sup> أنشئت الأبيات من الأول إلى:

نبئ أن القوم عاودوا الجلد

قبل أن تأتي الأنبياء بمقتل عمر المختار، والأبيات الباقيَة بعد العلم بمقتله.

فُلُوا جيوش الظلم والعدوان  
ومرقوا كتائب الطليان  
ووسموا معاطس الزمان  
 وأنفوا مواطن الهوان  
تأبى لهم كرامة الإسلام ...  
 سلاحهم عزيمة الجهاد  
 وقوتهم ما سلبوا الأعادي  
 يصابرون الأكيد الصواري  
 ويأكلون الجوع في البوادي  
 قد يئسوا يأساً من الأمداد  
 إلا ثبات القلب في الجlad  
 ونصرة الرحمن للعباد  
تأبى لهم كرامة الإسلام ...  
 أولئك العرب بني الحتوف  
 بقية الأرزاء والسيوف  
 قد ثبتوا في المأزق المخوف  
 بكل قلب بالردى هتوف  
 آبى الدنيا ثائر عيوف  
 قد انتموا لشتم الأئوف  
تأبى لهم كرامة الإسلام ...  
 نبئت أن القوم عاودوا الجلد  
 فقتلوا رهن الحبالة الأسد  
 ليهنهم ليهنهم عار الأبد  
 يا عمر المختار ليثاً يفتقد  
 يا خالداً قريين خالد يُعد  
 للموت قد حملتم هذا الكبد  
 لو شئتموا لكان عنه ملتحد

أبْتَ لِكُمْ كَرَامَةَ الْإِسْلَامِ ...     أبْتَ لِكُمْ كَرَامَةَ الْإِسْلَامِ ...     أبْتَ لِكُمْ كَرَامَةَ الْإِسْلَامِ ...

قد رعْتُمْ فِي حُوْمَةِ النَّزَالِ  
وَجَئْتُ بِالْمُمْكِنِ وَالْمُحَالِ  
حَتَّى رَأَوْا قُتْلَكُ فِي الْأَغْلَالِ  
مَأْثِرَةً تَلِيقُ بِالرِّجَالِ  
فَلَتَهُنْهُمْ شَجَاعَةُ الْأَبْطَالِ  
وَلَتَهُنْهُمْ مَفْخَرَةُ الْأَجِيَالِ  
بَطْوَلَةً تَنْوَى بِالْجَبَالِ

يَا قَوْمَنَا وَكُمْ مَضَتْ لَكُمْ عَبْرِ  
يَعْرِفُ فِيهَا أَمْرُهُ مَنْ اعْتَبَرَ!  
الْعَرَبِيُّ عِنْدَهُمْ دَمٌ هَدْرٌ  
إِسْلَامٌ جَنَاحَةٌ لَا تَغْتَفِرُ  
شَهَادَةُ الْفَارُوقِ نَلَتْ يَا عَمْرَ  
لِلْحَرِّ مَوْتٌ وَاحِدٌ فِيهِ الظَّفَرُ  
وَالذَّلِيلُ مَوْتٌ كُلُّ يَوْمٍ مَذَّهَرٌ

يَا قَوْمَنَا فَاسْتَمْعُوا إِلَيْنَا  
يَبْعَثُنَا الدَّهْرُ لَكُمْ أَرْسَالًا  
عَدُوكُمْ لَا يَفْهَمُونَ الْأَقْوَالَ  
حَتَّى يَكُونَ الْمَدْفَعُ الْقَوَالِ  
فَأَقْدِمُوْ لَا تَرْهِبُوْ الْأَهْوَالِ  
وَزَلَّلُوْ السَّهُولَ وَالْجَبَالَ  
لَا تَحْمِلُوْ مِنْ ذَلْهُمْ أَغْلَالًا

أبْتَ لِكُمْ كَرَامَةَ الْإِسْلَامِ ...

عبد الكريم قد مضى وحيداً<sup>٢</sup>  
يجر في محبسه الحديداً  
والأطرش الضراغم يغشى اليدىاً<sup>٤</sup>  
قد ضربت صحراؤه سدوا  
وعمر مضى لكم شهيدا  
فامضوا إلى المجد أباء صيدا  
لا تخنعوا بين الورى عبيدا

أبى لكم كرامة الإسلام ... ... ...  
... ... ...  
لا تيأسوا فما يدوم الضررُ  
ليل من الخطوب يكفرهُ  
والصبح في أعقابه يفترُ  
معترك أرجاؤه تغبرُ  
والنصر من ورائه يخضرُ  
هيأ إلى العلياء لا تفروا  
العيش عبد والحمام حر

<sup>٢</sup> الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف في المغرب الأقصى.  
<sup>٤</sup> سلطان باشا الأطرش الذي ثار على الفرنسيين في الشام.

## على بحيرة وندر هير

الآن أيتها البحيرة أجلس على شاطئك وحيداً لأبعث في ثنائك خيالاً مع الأخيلة التي تمر عليك ليلاً ونهاراً، وليت ضوضاء الناس تتركني لنفسي، لأحدثك حديث القلب، وأبئث ما في الضمير. أنت مائجة بين جبالك الخضراء، وضفافك النضرة، قد أقام الربيع عليك أغراسه، وأمرَّ الشباب عليك أنفاسه، فإذا أنت مرأة تطالعها كل ناضرة من الزهر، ومائسة من الشجر، وكل جميلة من البشر؛ فخبريني – والشتاء يقترب – كم أقام الشتاء مأنمه على ضفافك، وأمات كل حياة حولك!

كم ضربك القر فسكت! وكم أمضك الزمهريرْ فجمدت! كذلك أنت أيتها البحيرة الجميلة في نعمائك وبأسائك، وبين ربيعك وشتائك، منذ انجس بك العهد المجهول، إلى أن يغيب بك الزمان المظلم.

حدثني أيتها البحيرة: كم طوت أحشاؤك أخيلة على أخيلة، كما تمحو الفكرة الفكرة في رأس الفيلسوف القلق؟ أو كما خط في القرطاس سطر على السطر! كم شهدت صفحتك من جذلان ومحزون، وممتنع بالحياة ومحبون، كم شهدت من قلب اللقاء الحبيب خفاق، وأخر يُمرقُه الفراق! وكم رأيت إنساناً كالعصفور متزيتاً يملأ الهواء بالأصداء، وأخر واجماً يطالع فيك صورة السماء! برحت به الحقائق، فأوى إلى الخيال، ورأى الحياة ضلالاً في ضلال.

ليت شعري لو تفتحت صفحاتك عما حوت، ونشرت سريرتك ما طوت، أتكلونين على صغرك تاريخ الطبيعة والإنسان في السراء والضراء، والبؤس والنعماء، والنضرة والذبول، والمرح والكآبة؟ كذلك تمر أشباحنا سراعاً على مسرح الحياة، تضطرب ظلالها على الأرض، ويردد صداتها الهواء، ثم يزول الخيال ويفنى الصدى.

ولكنك أيتها البحيرة أبقي على الزمن، وأثبتت على المحن، فاضحكي من الإنسان أو فابكي عليه، ومهما تسخري أو ترثي فاحفظي في صدرك، مع الظلال المراكمة المتراحمة المتماھية، صورة ركب الزورق على صفحتك وحيداً، وخطا على ضفافك فريداً، وأطال الفكر في أرجائك، وقلّب الطرف في أرضك وسمائك، ولو شاء لأطال في وصفك، وأسهب في شرحك، فأضحك وأبكى، ونظم من أمواجك أنغام الموسيقى الإنسانية التي لا يفتأ الزمن يعزف بها، وصوّر في صفحتك صوراً شتى من النعم والمحن.

هكذا يتحدث إليك هذا الإنسان الفرح الحزين، الناعم البائس، فليت شعري هل ترينـه مـرة أخـرى؟ سيفارـقـكـ عـماـ قـلـيلـ، فـاحـفـظـيـ ذـكـرـاهـ أوـ فـانـسـيـ؛ فـإـنـهـ لـاـ مـحـالـةـ زـائـلـ.

عن صفحات الحياة كلها، ومن مكنون صدرك.

## الشاعر المتفائل المتشائم<sup>١</sup>

إلى شنة

إما تجلى الظلام عن غرة الفجر، وتكشف الغسق عن وجه الظلام، فتنفس الصبح، واستيقظت الحياة، وضررت الأشعة في الأرجاء، فانبعثت من مراقدها الأحياء، كما تسطع أشعة الكهربا، فتخلق عالماً من السيمياء.<sup>٢</sup>

وإما زُحِّر سُتَّارَ الْمَشْرِقِ عَنِ الشَّمْسِ تَنَازُعَ الْأَفْقَ عن نَفْسِهَا، وَتَحَاوُلُ السَّيْرِ إِلَى أَوْجَهِهَا؛ فَهُلْمَ يَا بَنِيَّتِي العَزِيزَةِ، اصْبِرْنِي إِلَى الْبَرِّيَّةِ أَنْسِجْ لَكَ حَدِيثًا مِنَ السَّعَادَةِ، وَأَقْرَأْ لَكَ كِتَابًا مِنَ الْغَبْطَةِ، وَأَشْدُوكَ بِقَصَائِدِ الْخَلِيقَةِ الْبَهِيجَةِ، تَضْمِنُتُ الْأَفْاظَهَا وَمَعَانِيهَا الْفَرَحَ ظَاهِرًا وَخَفِيًّا، وَالنَّعِيمَ مُخِيلًا وَمُرْئًّا، وَنَطَقَتْ أَوزَانُهَا وَقَوَافِيهَا بِمُوسِيقِيِّ الْحَيَاةِ تَرْدِدُ الْأَفَاقَ أَصْدَاءَهَا، وَيَدِويُ الْفَضَّاءَ بِأَنْغَامِهَا.

فإذا رأيتني متهلاً ضاحكاً مازحاً فكها، فاصحبيني يا بنية واغبطي، واستزيدني  
واطربني، واسترسلني في حديثك وضحكك، ومرحك ولعبك، وسليني ما شئت عن الجمال  
والحب يتجليان في كل خلق، والنظرة والنعيم ينطق بهما كل شيء، وسليني عن محاسن  
الناس، صدقهم ووفائهم، وتعاونهم ومواساتهم، فستسمعني عن ملائكة تمشي على  
الأرض، وأبرار تسعد بهم الحياة.

<sup>١</sup> كتبت بلندرة الساعة ٨ من مساء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦ م.

٢ أعنى السِّيَمَا.

وحذار يا بنيني ثم حذار أن تذكريني التعش والشقاء، والنضب والعناء، والشر وفاعليه، والإثم ومقترفيه؛ فإني أشفق عليك أن تهب العاصفة، ويموج القلب، ويتجهم الوجه، فتريني نادباً راثياً، ساخطاً زارياً، يردد عليك العالم نسجاً أسود حاكته المصائب والألام، وطرزته الأوجاع والأسقام. إني أخاف عليك أن يتور بي الغم، فلا أحدث إلا عن مأساة مكانها الأرض والسماء، وستورها الصباح والمساء، وسطورها الدموع والدماء، وأشخاصها كل من نسل آدم وحواء.

أخاف أن تريني شاعراً يجيد الآنين والشكوى، ولا يعرف الصبر والسلوى، يعرض عليك قصيدة محبوكة الطرفين بالغم، باكية الأوزان حزينة النغم، تتوح قوافيها، ويوالول روبيها، ليس في تفاعيلها إلا الأنات، ولا في مصاريعها إلا الزفرات، أشفق عليك يا بنيني إلا أريك في وميض البرق إلا سواد السحاب، ولا في تلاؤ النجوم إلا رجمة الشهاب، وأن أنشد مع المعرى:

إن دنياك من نهار وليل وهي في ذاك حية عرماء<sup>٣</sup>

لا أرى في الورد إلا الشوك، ولا في النبات إلا الحنظل، ولا في الميلاد إلا الموت، ولا في الإدراك إلا الفوت.

كذلك يا بنيني خلق أبوك قيثارة تسر وتشجي، وتضحك وت بكى، وكذلك صب في قلبه مرارة البحار، وعذوبة الأنهر، ليس بينهما برضخ. وهو الصخرة تقدح الشر، وتنبع عن اليابس السلسلي.

إمارأيني يا بنية واجماً مكتئباً، فلا تعنفي عليّ، فتنكئي جرح الفؤاد، ويفيض عليك بالحزن كل واد، ولكن اصبري للعاصفة حتى تمر، وللنار حتى تهدم، فإن أشفقت على أبيك أن يملكه الحزن، ويزلزله العذاب؛ فسارعي إلى بيانك piano، واختاري أسعد الأغاني، ثم تلطفي في العزف، وأرسلي صوتك خافتًا كالبعيد من الصدى، وابعثي إلى النغمات لأنفاس الصبا، حتى تمسح على جبيني الملتهب، وتخفف من الحزن الثائر، وترفعه عن القلب المائج، حتى إذا انبسطت الأسارير، وتهلل الوجه النضير، فانشطي بصوتك، واشتدي على بيانك.

<sup>٣</sup> عرماء: منقطة بسواد وبياض.

ثم اختلسي النظرات إلىَّ، فإذا أتيقنتِ أن أشعة السرور بددت ظلام الحزن، وأن قد أديل من ليل اليأس لصبح الأمل، فأسمعني ضحكتك، ثم سارعي إلىَّ أبيك فعانيه، وساقطي على جبهته قبلاتك تساقط الندى في أعقاب الظلام، ثم حديثني أحدهك بما يطربك.

وهكذا يا بنיתי الحبيبة علىَّ أن أسعدهك في ساعات عديدة، وعليك أن تفرجي عنِّي دقائق معدودة، عليك أن تزحزحي عنِّي ظلام الهموم، وعلىَّ أن أخط لك من السعادة حالة لا يقوى عليها جَوْن الغمام، ولا يذهب ببعائها حلك الأيام، عليك أن تفتحي للبلبل قفصه، عليك أن يملأ لك الدنيا غناءً وتطربياً، وشدواً وترجيعاً، عليك أن تدلِّيه على مفتاح الموسيقى، ثم تستمعي لعزفه، وأن تقدمي له طاقة من الورد، ثم تنصتي إلى وصفه.

عليه أن يعرض عليكِ جنة عرضها الأرض والسماءات، وعليكِ أن تعطيه مفاتحها إذا أذهله عنِّه الحادثات، وأن تشيري إلى الباب إذا أضلته عنِّه الغير، وغشى على عينه سواد الفكر. عليكِ أن تمكيني من القلم، وعلىَّ أن أسطر لكِ قصيدة سعيدة النغم، وأنظم لك عقداً يتلاؤ على صدرك، ويستطيع في أيامك، عقداً مثل أبيك من ينظمه، ومثلك من يحمله.

وبعد فيا بثينة، قد وقف القلم، وغام الحزن على وجه أبيك، فليتِك هنا لتنقذيه مما به.



# عمر في بيت المقدس<sup>١</sup>

١

هذا عام ستة عشر من الهجرة، وقد انسابت جيوش المسلمين في الشام والعراق وفارس، وألقت أقاليم الشام بالمقاليد إلا فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح يحصر بيت المقدس، وقد ملا الأسماع والقلوب بأس المسلمين وعددهم ووفاؤهم.

عزم أهل البيت المقدس أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس: في عهد المسلمين وحمايتيهم وعددهم، ورغبوا أن يكون صاحب عقدهم عمر، عمر الذي ملأت سيرته الآفاق، وسكنت إلى عدله النفوس، واشتاقت إلى رؤيته العيون.

ووصل عمر عن المدينة في جمع من الصحابة ومعه مولاه أسلم، خرج يغدو السير إلى الشام؛ ليتفقد أحوال المسلمين، ويصالح أهل فلسطين.

ويمضي في طريقه حتى يبلغ أيلة،<sup>٢</sup> وينتظر الناس موكب أمير المؤمنين يحسبون أنه سيطّل عليهم في زينته، يحيط به جنده ورجاله. والذي رأى منهم هرقل حين فتح بيت المقدس قبل عشر سنين، أو شهده من بعد في حل أو ترحال، تخيل عمر قادماً في موكب كموكب هرقل، أو موكب دونه، ولكنه موكب ملك أو أمير.

لما دنا عمر من أيلة تحنى عن الطريق، وتبعه غلامه، فنزل فمشى قليلاً، ثم عاد فركب بغير غلامه، وعلى رحله فرو مقلوب، وأعطى غلامه مركبه.

<sup>١</sup> ٢٢ من المحرم سنة ١٣٥٨ / ١٣ مارس سنة ١٩٣٩.

<sup>٢</sup> كانت على خليج العقبة.

وكان عمر خاف أن يدخله الزهو وهو على مركبه في غير زينة، فآثر أن يشعر نفسه أنه وحادمه سواء، فتحول إلى رجل غلامه.

فلما تلقاه أوائل الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم «يعني نفسه». وذهبوا أمامهم، فجازوه، حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها، وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها. فرجعوا إليه،<sup>٣</sup> واجتمع الناس إلى رجل جسيم أصلع أشقر، شديد الحمرة، كثير السبلة<sup>٤</sup> في أطرافها صهبة، وفي عارضيه خفة؛ رجل لا تقع العين منه إلا على الوقار والتواضع، والشدة في الحق، والرأفة بالضعفاء. رأوا ملگاً في زي ناسك، وراعي أمة في صورة راعي ثلة،<sup>٥</sup> رأوا إنساناً لا تفقد فيه الإنسانية حقيقة من حقائقها، ولا يصيب فيه الجبروت باطلًا من أباطيله.

اجتمع الأساقفة والرهبان يرون رجلاً في يده الدنيا، ولكنها ليست في قلبه، يملكتها ولا تملكه، ويصرفها ولا تصرفه، ويستعبدها ولا تستعبده، وليس شيئاً أن تكون زاهداً في صومعة، ولكن العظمة كلها أن تكون زاهداً والدنيا تحت قدميك. «ودفع عمر قميصاً له كرابيس،<sup>٦</sup> قد انجاب مؤخره عن قعده من طول السير، إلى الأسقف، وقال: أغسل هذا وارقهه. فانطلق الأسقف بالقميص ورقطه، وخط له آخر، فراح به إلى عمر، فقال: ما هذا؟ قال الأسقف: أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته، وأما هذا فكسوة لك مني. فنظر إليه عمر ومسحه، ثم لبس قميصه، ورد عليه ذلك القميص وقال: هذا أنسفهم للعرق».

٢

وسار عمر حتى نزل الجابية<sup>٧</sup> في وسط الشام التي غالب عليها هرقل، ولكنه دخل الجابية كما دخل أيلة: «قدم على جمل أورق، تصطفق رجلاه بين شعبي رحله، بلا ركب،

<sup>٣</sup> الطبرى حوادث سنة ١٧.

<sup>٤</sup> طرف الشارب.

<sup>٥</sup> الثلة: القطيع من الغنم.

<sup>٦</sup> المفرد كرابيس، وهو ثوب من القطن الأبيض.

<sup>٧</sup> قرية قرب دمشق.

وطاؤه كساء أنجاني<sup>٨</sup> ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، وحقيقة ممزقة، أو شملة محسنة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميص كرابيس.<sup>٩</sup> وجاءه رجل من اليهود، وكان اليهود يرقبون روح الله بأيدي العرب، ويدعون الله أن يفرج كربهم، ويذهب عنهم جبروت الروم بأيدي المسلمين، قال اليهودي: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلاء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلاء.

وأقبل وفد بيت المقدس إلى الجابية، فصالحوا، وكتب لهم عهد شهد فيه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، وأعطوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وألا يُكره أحد على الدين، أو يضار في شيء. وأذمع أمير المؤمنين المسير إلى بيت المقدس، فإذا فرسه يتوجّى<sup>١٠</sup>، فأتى بربذون فركبه، ومشى البرذون مشيته، فأسرع وهز راكبه، فرأى عمر فيها خيلاً، فنزل وضرب وجهه وقال: لا أعلم الله من علمك. هذا من الخيلاء.

٣

دخل عمر بيت المقدس لا مدمرًا مخربًا كما دخلها بختنصر، ولا مضطهدًا أهلها كما دخلها الرومان من قبل، ولا مزهواً بفتحه كما دخلها هرقل قبل عشر سنين، بعد أن غلب الفرس على الشام، ولكنه دخل رافعًا لواء التوحيد والعدل، والأخوة العامة، والمرحمة الشاملة.

دخل المدينة فسار إلى المسجد ليلاً، ومضى إلى محراب داود، فصلى فيه، وطلع الفجر بعد قليل، ودوى الأذان في أرجاء المدينة المقدسة لأول مرة؛ صيحة الحق في أعقاب الباطل المهزوم، ترفعها تباشير الصبح في آخريات الظلم، وشهد الله لقد كانت فاتحة الخير والسلام والكرامة للبيت المقدس ومن فيه.

وقرأ عمر في الركعة الأولى سورة «ص»، وسجد حين قرأ آية السجدة: ﴿وَطَنَّ ذَاوُودُ أَنَّمَا فَتَّنَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، ثم قرأ في الركعة الثانية أول سورة الإسراء «سورة بنى إسرائيل»، وفيه وصف ما أصحابهم على يد البابليين.

<sup>٨</sup> نسبة إلى منتج على غير قياس، وهو كساء من الصوف له خمل، ولا علم له، وهو من الثياب الغليظة.

<sup>٩</sup> تاريخ عمر، لابن الجوزي.

<sup>١٠</sup> الوجي: وجع الحافر من الحفى.

ثم تقدم إلى الكناسة؛ الكناسة التي تراكمت على البيت حين أُخرب وهجر، والتي عجز اليهود أنفسهم عن إزالتها حين ملوكوا أمر البيت.

تقدّم إلى الذلة المكذبة على الحرم، تقدّم عمر ليزيّلها عن البيت، كما أزال عن أهله الظلم والقسوة، تقدّم أمير المؤمنين وجثاً، وقال: أيها الناس، اصنعوا كما أصنع. وحثا في فرج من فروج قبائده، وإنما فعل عمر ما فعل تكريماً للبيت، وتطهيراً وإيداناً بهذا العهد؛ عهد الطهارة والكرامة.

وسمع عمر التكبير فقال: ما هذا؟ فقالوا: كَبَرْ كعب وكَبَرْ الناس بتكبيره، فقال: علىَّ به، فأتى به فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبِيٌّ من ذ خمسةٍ سنة، فقال: وكيف؟ فقال: إن الروم أغروا على بنى إسرائيل، فأديلوه عليهم، فدفنوه، ثم أديلوه، فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس،<sup>١١</sup> فبغوا على بنى إسرائيل، ثم أديلوه الروم عليهم إلى أن وليت<sup>١٢</sup>، فبعث الله نبِيًّا على الكناسة، فقال: أبشرى أورسي شَلَم، عليك الفاروق، ينقيك مما فيك. أتاك الفاروق في جنبي المطیع، ويدركون لأهلك بثأرك في الروم. لقد لبِثَ اليهود خمسةٍ سنة ينتظرون أن تطلع شمس الإسلام ويأتي الفاروق، ليحثو التراب في قبائده، ويأمر الناس بتطهير البيت المقدس، وما فقدموا رعاية الإسلام من بعدها إلا تسعين عاماً غلب فيها أهل الصليب، فأصابوا البيت المقدس ما أصابه، حتى استرجعه رجل من رجال المسلمين، ملك، يتشبه بعمر بن الخطاب في الإشادة بعدل الإسلام، ومرحمة الإسلام. رحم الله صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ولكن بنى إسرائيل حين رأوا الزمان يُنْيَخُ على المسلمين بكلّه، لم يأتوا عوناً للعرب والمسلمين، ولم يذكروا فضل الإسلام، ولا حفظوا يد عمر، ولا اعترفوا برعاية المسلمين وحمايتهم إياهم ثلاثة عشر قرناً، بل جاءوا يجزون الحسنة بالسيئة، ويعينون الخطوب على الذين دفعوا عنهم الخطوب، ويناصرون الأعداء على الذين أنقذوهم من الأعداء، ويملائون الذين دفنتوا بيت المقدس على الذين رفعوا عنه التراب والرجس والهوان. وليت شعرى ماذا ينقمون من المسلمين والعرب (يا أهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِنَا)؟

<sup>١١</sup> غلب الفرس على آسيا الصغرى والشام ومصر أيام كسرى برويز إلى أن استردها هرقل. وهي الحوادث التي أشير إليها في سورة الروم.

<sup>١٢</sup> الطبرى: حوادث سنة ١٥.

## ورد الصباح<sup>١</sup>

تنفس الصبح في غسق الليل، ولاحت غرته في هدوء السحر، والنور يسيل من ربا المشرق  
قليلاً قليلاً، ويولد اليوم الجديد.

ربُّ فأضي عقلي بالهدى، ورغب نفسي في الحق والخير، وأملأ قلبي بالأمل، وقوّي  
يدي على العمل. اشرح صدري، واشدد أزري، واسحذ عزمي لليوم الجديد.  
ربُّ قد طويت من عمري صفحات، ونشرت اليوم صفحة، فاجعل صفحتي هذه  
أوعى للخير، وأخلٰ من الشر، وزينتها بالحق، وبرئها من الباطل، واجعل فاتحتها  
وخاتمتها الإخلاص لك، والعمل لوجهك.

ربُّ إن عقلي يخدع بالوهم، ويقنع بالظن، ويلبس الحق بالباطل؛ اللهم فاهدني وثبتني،  
وارشدني وعلمني، واجعل البرهان الواضح حجّي، والحق البّين عقيدتي، سبحانك لا  
علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت علام الغيب.

ربُّ إن قلبي يشوبه الهوى، ويستهويه الباطل، فخّلص اللهم قلبي من الأهواء،  
واملأه بحب الحق، إنك أنت الحق المبين!

ربُّ وإن نفسي تنزع إلى أن تتزيّد فيما لها، وت تخس ما لغيرها، وتُحمد بما لم تفعل،  
وتغمس غيرها ما فعل، اللهم فأشرب قلبي العدل فيما بيني وبين نفسي، وفيما بيني وبين  
الناس، واجعل حق غيري أحبّ إلى من باطلي، ورضاك آثر عندي من كل شيء!

رب إن الناس يرکنون إلى الدعوة، ويعذّرون في الواجب، فاجعلني دائمًا على العمل لا  
أمل، قواماً بالواجب لا أعتل.

رب إن الناس ينزعون إلى الظلم، ويجنحون إلى المحاباة، ويرضون أنفسهم بباطل  
يزينونه، وحق ينكرونه، اللهم فبغض إلي الظلم والمحاباة وهوى النفس، واجعل العدل  
والحق ملء نفسي وقلبي وقولي وعملي.

رب وإن نفسي تنزع إلى إرضاء الأقوياء، والاستهانة بالضعفاء؛ اللهم فاجعل الناس  
سواسية عندي، واجعلني حرباً على الأقوياء المبطلين، نصيراً للضعفاء المحقين، لا تطيني  
في حق رغبة ولا رهبة، ولا يأخذني في الصدق خوف ولا رجاء.

اللهم إن الناس استهواهم الشهوات، وعبدتهم المطامع، تضلهم الكبراء، فيصدرون  
عن الحق، وتُضرّونه الذلة، فيخنعون للباطل؛ فاجعلني اللهم متواضعاً لا تزهوني نخوة،  
وقوياً لا تأسري شهوة، وحرراً لا يعبدني مطعم، وأملأ قلبي كبراً على الصغار، وأنفة  
من الدنيا.

اللهم إن القلوب قست، والنفوس أجدبت، والوجوه وقحت؛ فاملأ قلبي رحمة لكل  
إنسان، ونفسي شفقة على كل حيوان، وأدبني بأدبك، واجعل فكري وقولي وفعالي براً  
ورحمة وإحساناً.

اللهم واجعلني في الحق جريئاً لا أخاف، ومقداماً لا أحجم، ومحارباً لا أجبن، عدواً  
للباطل جريئاً عليه، محباً للحق خاضعاً له.

اللهم اجعل لي من ذكرك قرباً وأنساً، ورجاءً وثباتاً.

اللهم إني أستقبل يومي مؤمناً بك، متوكلاً عليك، مخلصاً لك، مجاهداً فيك، راغباً  
إليك، مستمدداً منك.

فأقضى عقلي بالهدى، وأملأ قلبي بالأمل، ورغب نفسي في الحق والخير، وאשרح  
صدرى، وأشدد أزرى، وأشخذ عزمي لليوم الجديد.  
سبحانك لا إله إلا أنت الحق المبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

## إِبْرَةُ الْمَغْنَاطِيسِ<sup>١</sup>

جلست إلى مكتبي البارحة، فوقع بصري على «بيت الإبرة»، فانفتحت أمامي سبل من الفِكْرِ لا تحدُها غَايَة، وإنني حين أَحاوِلُ أنْ أَقْيِدَ هذهِ الْفِكْرَ عَلَى القرطاسِ لِمحاوِلَةِ أَسْلَسلِ بهذهِ الأَحْرَفِ خَطَرَاتِ الْفِكْرِ الَّتِي تَطْوِي الأَجْيَالَ فِي لَهَاتِ، وَتَجْمَعُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ.

قلت: ما أَعْجَبُ هَذِهِ الإِبْرَةِ! إِنَّهَا هَادِيَةٌ لَا تَضُلُّ، عَارِفَةٌ لَا تَخْطُئُ، تَنْتَحِي الشَّمَالُ مَهْمَا أَدْرَتَهَا عَنْهُ، وَلَا تَنْسَى عَهْدَ الْمَغْنَاطِيسِ مَهْمَا أَبْعَدْتَهَا مِنْهُ، وَمَهْمَا جَمَعْتَ عَلَيْهَا مِنَ الْحَجَبِ وَالظَّلَمَاتِ، وَأَصْعَفْتَ لَهَا فِي الْمَسَافَاتِ، فَهِي مُولِيَّةٌ وَجْهَهَا شَطَرَهُ، مُحْسَنَةٌ جَذِيبَةٌ، مُوصَلَةٌ بِهِ، خَبِيرَةٌ بِوُحْيِهِ، لَا تَنْسَاهُ، وَلَا تُشْرِكُ فِي هَوَاهُ، لَيْتَ شِعْرِي أَهَدَى مِنَ الْإِنْسَانِ هَذِهِ الإِبْرَةُ الصَّغِيرَةُ؟ أَجَلُ، إِنَّهَا لَتَهْدِي الْإِنْسَانَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالسَّفَرِ وَالْحَاضِرِ.

أَحْسَسْتُ حِينَذِ خَفْقَانَ قَلْبِي يَذَكِّرُنِي أَنَّ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِ إِبْرَةً أُخْرَى مُرْشِدَةٌ هَادِيَةٌ، تَتَوَجَّهُ شَطَرَ مَعْدَنِهِ أَبْدًا، لَا يَصْدُهَا عَنِهِ تَطاوِلُ الْأَمْدِ، وَبُعْدُ الْمَدِ.

أَلَمْ تَهْدِي هَذِهِ الإِبْرَةُ الْأَمْمَ في ظَلَمَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَغَيَابَاتِ الْقَرْوَنِ، فَعَصَمْتُهُمْ عَلَى الْعَلَاتِ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَأَخْرَجْتُهُمْ إِلَى النُّورِ عَلَى تَكَافِفِ الظَّلَمَاتِ، وَلَا تَزالُ هَادِيَةٌ بَصِيرَةٌ بِالْغَايَةِ، خَبِيرَةٌ بِالسَّبِيلِ إِلَيْهَا؟ كَمْ عَبَدَتِ الْإِنْسَانَ شَهْوَاتِهِ! وَأَضْلَلَتِهِ عَنِ الْخَيْرِ مَطَامِعَهِ! فَمَا زَالَتْ هَذِهِ الإِبْرَةُ تَضْطَرِبُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى اهْتَدَى سَبِيلَ النَّجَاهِ، وَوُضِعَ عَلَى هَدَاهَا مَنَارُ الطَّرِيقِ.

<sup>١</sup> شوال سنة ١٣٥٢ / يناير سنة ١٩٣٤.

كم طفت بالإنسان ضغائنه وأحقاده، فما زالت هذه الإبرة تتحقق في جوانحه حتى  
عرف إلى الحب والمودة السبيل، واستقام على النهج لا يميل!  
وكم غلا الإنسان في ظلمه وعدوانه، فما زالت تتحرك في أضلاعه حتى أشعرته  
نفسها، ثم ردته إلى خطة للعدل محمودة، وسبيل من الإنفاق رشيدة!  
وكم غدر الإنسان ثم اهتدى بها إلى الوفاء، فندم على ما قدم، واغتبط بما أقدم!  
وكم أجرم الإنسان، فوخزته فأفاق، فكأنما صُورَ خلقاً آخر ينفر من الإجرام، ويركز  
إلى السكينة والسلام!  
وكم سفلت بالإنسان سجاياه، فعملت في صدره، حتى سمت به إلى العلياء، وطارت  
به من الحضيض إلى عنان السماء!  
وكم وقفت بالإنسان همته، فدفعته هذه الإبرة العجيبة، فمضى قدماً إلى العمل،  
وهمزته فدأب لا يعرف الكل!  
وكم أظلم على الإنسان طريقه، وعميت عليه أرجاؤه، وأطبقت عليه سحائب سوداء،  
وأحاطت به ظلمات لا شَيْءَ فيها من الضياء، فنظر إليها، فإذا هي إلى الغاية دليل، وإذا  
هي في الظلمات قد استقامت على السبيل!  
وكم جارت بالإنسان آراء مضلة، وأفكار غائلة، وأقوال ساحرة، فلما هلك أو كاد،  
ودارت به الحيرة والإلحاح، أحس اضطرابها في نفسه فسكن، فتهاافت الآراء، وتهافتت  
الأقوال، وثاب إليه هداه، فوجد أمامه الله!

إيه أيتها الإبرة الهدادية! ضل الإنسان في صباه وهرمه، وجهله وعلمه، وسعادته وشقائه،  
ووحدته واجتماعه، وحله وترحاله، لولا هداية الله فيك، وبصيص من نوره في نواحيك،  
وصلة به لا تنقطع، وشعور به لا يضل، وجذوة من حبه لا تخمد.  
وأما الذين أضلتهم الأهواء، فعميت عليهم الأنباء، وتختطفتهم في الحياة المأرب،  
فتذبذبوا بين شتى المذاهب، وشرق بهم مطعم، وغرب مطعم، وتلونت لهم غilan من  
الآمال والأعمال، والذين فقدوا أنفسهم وهم لا يشعرون، وضل سعيهم وهو يحسبون  
أنهم مهتدون، والذين يلبسون كل يوم زِيّاً، ويبدلون كل حين رأياً، ويلبسون لكل دولة  
وجهها، ولكل سلطان زِيّاً، ويستخدمون لكل ساعة لساناً، ولكل فرصة وجданاً، فأولئك أغفلوا  
النظر إليك، فحرموا الاهتداء بك، أولئك في إبرتهم خلل قد عرض، أو أولئك في قلوبهم  
مرض.

# بني قومنا

في أربعين الملك الشهيد غازي<sup>١</sup>

أيها السادة!

أقوم بينكم مبلغًا رسالة الجامعة المصرية، مدیرها وأساتذتها وطلابها، المصريين وال العراقيين وغيرهم. هذه الجامعة التي شجاهما ما شجا معاهد العلم بالعراق من هذا الخطب الجلل، والرزو العميم.

تشارك جامعة فؤاد الأول معاهد العلم العراقية أحزانها، وتحتمل معها آلامها، وتناشدها أن تعزي معها الأمم العربية كلها، وتثبتها في مصابها، فإن العلم الذي يهدى الأمم طريقها، وينير لها في ظلماتها حري أن يثبتها في خطوبها، ويعصّمها في محنتها. يا إخوتنا، لا أبغى إثارة الشجن، فما أيسر إثارة الأشجان والمصيبة فادحة، والقلوب دامية، ولا أريد استدرار الدمع، فما أهون استدرار الدمع والرزو جليل، والنفوس باكية، ولكن أريد أن أعرب لكم باسم الجامعة المصرية أننا معكم في السراء والضراء، وشركاؤكم في الشدة والرخاء، وأننا وإياكم متعاونون على العمل للمجد، وعلى احتمال التوابع.

<sup>١</sup> ألقيت في بغداد في ١٠ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ / ٢٩ مايو سنة ١٩٣٩.

إن هذا الخطب لم يخصكم، ولا نزل بساحتكم وحدكم، ولكنه خطب العرب على اختلاف ديارهم ومذاهبيهم، من شرقي دجلة إلى بحر الظلمات، وخطب المسلمين على اختلاف أجناسهم وأقطارهم. إنه رزء العرب وقد استقاموا على طريقتهم، وأقسموا ليبلغن غايتها، ورفعوا الراية، ومضوا إلى الغاية، رزؤهم في أحد قادتهم، في ملك عربي شاب طموح، استوى على عرش المنصور، مبشرًا بعهد الرشيد والمأمون.

إنه رزء العرب والمسلمين في ملك هاشمي من أبناء فاطمة، قامت لصرعه القيامة في مكة والمدينة، وفي بغداد دار العباسيين، ودمشق دار الأمويين، والقاهرة دار الفاطميين، وببلاد العرب والمسلمين جميعًا.

إنه خطب عظيم، ولكنه ليس أعظم من عزائم هذه الأمة، ولا أكبر من كبرياتها، ولا أشد من أخلاقها، ونحن بنو الشدائ، أفتنا وأفناها، وعركتنا وعركتناها.

يابني قومنا، إن للأمم في معتنك الحياة نعمى وبؤسى، وفرحاً وترحاً، ورخاءً وشدة، والزمان قلبٌ، تدورُ غيره بالخير والشر، والأمم العظيمة الحازمة تأخذ عدتها من مسراتها وأحزانها، ولا تفيت فرصة من لذة أو ألم، وفرح أو غم، ولا تمر بحادثة إلا تدبّرت في أمرها، وأخذت لحاضرها، وتزودت لمستقبلها، وتأمّلت لأحداث الزمان والحدثان، بل الأمم في أحزانها أقرب إلى الوقار والجد، وأدنى إلى التأخي والإيثار والتقدية، وأجدر بإدراك الحقائق والاعتبار بالواقع، وجمع الكلمة، وإرهاف العزيمة، فإن الأحزان تجلو النفوس وتنبهها، وتررق الأكباد، وتذهب بالأحقاد.

يابني أبينا وأمنا، كانت وفاة الغازي — رحمة الله عليه — قدرًا لا حيلة فيه، ورزقًا لا قدرة عليه، ولو كانت نائبة تجدي فيها النجدة، وتعني الهمة، وتنفع الشجاعة والتقدية، لوجد أبو فيصل منا جميعًا نفوسًا تقدّيه، وقلوبًا تستميت دونه، وعزائم ترد الخطب صاغرًا، وجلادًا يُرجع الموت خزيان ناظرًا، ولكنه قدر من وراء الأسماع والأبصار، والجنود والأنصار.

فلتفزع الأمة العربية إلى عقلها وخلقها، وإبائها وصبرها، وثباتها وجدها. ولنتظر إلى تاريخها تستمد منه الصبر على المصيبة، والاستكبار على الجزع، والإباء على كل خطب، والثبات لكل هول.

ليكن من اجتمعنا على مصيبة الغازي اجتماع كلمتنا، واستحكام أخواتنا، لتكن من هذه المصيبة الجامعة أخوة جامعة، وكلمة جامعة.

أيها الإخوان، مضى في يصل الأول بعد أن أدى أمانته، ولحق به غازي وهو يسير للمجد سيرته، وقد أورث الله فيصل الثاني جهاد جده، وطموح أبيه. وإن لنا فيه لعزاء، وإن لنا فيه لخلفاً، فلتحطه النفوس، ولترعه الأفئدة، ولتجمع حوله الأفكار والأعمال، والعزائم والأعمال، وكل ما في العراق وما في العرب من ود ووفاء، وإخلاص وبر وكرم، حتى يتربع ملكاً كريماً في رعاية الله، وحضانة أمته ووفائها وإخلاصها، ترجم فيه العراق والعرب جميعاً كوكباً تأوى إليه كواكبها، وسيداً قئولاً فعولاً لما سنَّ السادة الكرام من آبائه.

وإن في حكمة أهل العراق ووفائهم، وإن في هممهم وعزمتهم لضماناً للمستقبل الوضاء، والمجد الباسم، بعد هذه الخطوب المكفرة، والوقائع العابسة.

ويشرق في أعقابها الصبر والمجد  
وبعد غروب النجم إشراقه يبدو  
وبعد طلوع النحس يُرتقب السعد  
لمن صابر الأهوال والبأس محتد  
يقهقه في حافاتها البرق والرعد  
تضاحك من أزهارها الغور والنجد  
ومن بعد جزر الشط ينتظر المد<sup>٢</sup>  
إلى المجد في أعقابها النصر والحمد  
ينزل لها الخطب العصي ويرتد  
وأنتم له حصن وأنتم له جند

بني قومنا تقسو الخطوب وتربي  
وإن ظلام الليل يتلوه صبحه  
وبعد محاق البدر نور هلاله  
وبين ظلام النقع نصر منور  
وعند أسوداد الغيم غيث ورحمة  
وبعد بكاء السحب خصب ونضرة  
ومن بعد غيض الماء فيض لدرجة  
وفي كل خطب للفراتين دعوة  
فلا تحزنوا وارموا الخطوب بعزمة  
وسيروا إلى العلياء من حول فيصل

<sup>٢</sup> شط العرب: مجتمع دجلة والفرات، وله جزر ومد.



# موقعه عين جالوت<sup>١</sup>

١

كان عام ثمانيني عشرة وستمائة فاتحة شر مستطير في بلاد المسلمين، سالت فيه جيوش جنكيز من هضاب الصين، تغرق كل شيء، وتجرف كل شيء. طفت على التركستان، فجرفت عرش ملوك خوارزم، ودارت بالمدن العظيمة تخريبًا وتدمیرًا، وبسكانها تقتيلاً وتشريداً، وفرّ محمد خوارزمشاه وكان كما قال مسلم بن الوليد:

وطار في إثر من طار الفرار به خوف يعارضه في كل أخدود

وورث ابنه جلال الدين ملگا في أيدي التتار، ومجدًا بين الحديد والنار، فصبر وصابر، وجاحد ما بين نهر السند إلى حدود العراق، يحاول جهده أن يلم الشمل، ويرأب الصدع، ويخلق من الفرقة اجتماعًا، ومن الضعف قوة، ومن الذعر ثباتً، ومن اليأس رجاء، حتى اغتالته المتون بعد أن أعجزتها مصاولته، وختنته بعد أن أعيتها مجاهرته. وانتشر الرعب، وعم الفزع، ولم يثبت للتتار جيش ولا حصن في شرقي البلاد الإسلامية.

وما لي أكلف نفسي الوصف ولا أستمع لابن الأثير — وقد عاش على شاطئ هذا الطوفان وأحس لفح هذه النار — يصف هذه الواقع: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة

---

<sup>١</sup> في يوم الاثنين ٢٥ محرم سنة ١٣٥٩ هـ / ٤ مارس سنة ١٩٤٠.

العظيم، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام واللبيالي عن مثيلها، عمّت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ أن خلق الله — سبحانه وتعالى — آدم إلى الآن، لم يُبْتَل بمثلها لكان صادقاً، فإن التوارييخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدان بها ... إلخ.

٢

مات جنكيز خان سنة أربع وعشرين وستمائة، بعد أن قسم بين أولاده ما فتح من الأرض وما لم يفتح، وامتد الفتح في آسيا وأوروبا، وكانت غير شتى، حتى أرسل منكوقاً آن، حفيد جنكيز، أخاه هلاكو سنة إحدى وخمسين ليفتح حصنون الإسماعيلية، ثم يفتح بغداد، فأخضع أمراء إيران والقوفاز إلى عام ثلاثة وخمسين، واستولى على أكثر قلاع الإسماعيلية.

ثم جاءت الطامة الكبرى، فاستولى على بغداد، ومحا الخلافة العباسية في تاسع المحرم سنة ست وخمسين وستمائة.

لقد طوى آباء الملك الإسلامية إلى العراق، ثم أصاب هو المسلمين في الصميم إذ أخذ بغداد التي لبنت مقر الخلافة، وقبلة المسلمين في العلم والحضارة أكثر من خمسة قرون.

ماذا يصد هلاكو بما يشاء؟ من ذا يقف للجيوش التي لبنت ثلاثين سنة تسير من ظفر إلى ظفر، ومن مملكة فتحها إلى مملكة قدّر لها أن تفتحها؟ إن آسيا ما بين قراقوrom<sup>٢</sup> وبغداد في قبضة أبناء جنكيز، وإن أوروبا الشرقية إلى البحر الأدربياتي قد عنت لأمرهم. ليس على هلاكو إلا أن يُسَيِّر الجيوش فتُطوى الأرض، ويثير الحروب فتخر الممالك، ويوعد الملوك فيخذلها جندها، وينزل بالمدن فتسلمها أسوارها، عزمه واحدة تسخر له الشام، وأخرى تقهـر له مصر، ثم عزمات تبلغ به بحر الظلمات.

<sup>٢</sup> قراقوrom: قاعدة مملكة جنكيز.

سار التتار إلى الشام، فلم تستطع لهم حلب دفعاً، وهؤلاء المعتصمون بقلعتها لن يجد لهم الاعتصام، ولا مناص لهم من الاستسلام بعد شهرين، وسارع أهل حماة إلى حلب، فأعطوا هلاكو مفاتيح المدينة، ثم لم تلبث للقوم مدينة بين حلب وغزة. وأما أمراء الشام منبنيأيوب، فمنهم من انحاز إلى التتر مؤثراً العافية، ومنهم من لجأ إلى مصر مستنجداً، والملك الناصر أكبر هؤلاء، ترددت به الحيرة بين حدود مصر والشام، ثم لم يستطع إلا السير إلى هلاكو.

وأبْت مصر التي تجاهد الصليبيين منذ مائة وستين عاماً أن تذل للتتر، فجمعت ما فيها من إيمان وقوة، وخرجت في رمضان سنة ثمان وخمسين، وصمدت للقوم، فالتحقى الجمuan على عين جالوت في فلسطين.

فأما التتر فلم يعرفوا في الحرب إلا الانتصار منذ سال سيلهم على البلاد الإسلامية قبل ثلاثين سنة. ماذا يخشون من جيش مصر وقد مزقوا المسلمين جيشاً بعد آخر، ولم تصدّهم البسالة والاستقلال دون غاية؟

وأما جيش مصر الذي جمع المصريين وعرب الباشية من مصر والشام، فقد أيقن أنها الموقعة الفاصلة، وأن هزيمة في عين جالوت تفتح طريق العدو إلى مصر فالغرب، فصمموا أن ينتصروا. وكثيراً ما تلد العزائم الظفر!

ولم يزلزل عزائمهم أن رأوا بعض أمراء المسلمين في صفوف العدو، ذلك الأمير الشقي المسمى الملك السعيد.

التقى الجمuan يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وستمائة، واحتمم القتال، وصبر المسلمون ثم صبروا، ولقوا من حملات التتار ما يوهن العزائم، فلم يهنو. إلى من يكلون الدفاع عن الإسلام والمجد إن لم يستميتوا في عين جالوت؟

كتبغا قائد التتر قتيل، وابنه أسير، وجنده مصرعون في حومة القتال، وبقايا السيوف منهم عائدون برعوس الجبال.

يؤمنذ علم المسلمين أنه يستطيع هزم التتر، فلم يثبت القوم في بقعة من بقاع الشام، وأسرعوا راجعين إلى الشرق.

جمع التتر شملهم، وأعدوا للحرب عددهم، ثم رجعوا فاستولوا على حلب بعد  
شهررين من موقعة عين جالوت، ولكن عين جالوت قد فصلت في القضية من قبل، وعلمت  
المسلمين أن الأمل والعزم والإقدام تغلب كل عدو، ولو كان التتر جنود هلاكو حفيد  
جنكيز.

اجتمع المسلمون على حمص، وسار التتر إليهم. فليشهد القارئ قبل المعركة جمعاً  
من أنجاد العرب يسيرون إلى حومة الولي.

يقول الشيخ شهاب الدين الحلبي: كنت في نوبة حمص في واقعة التتار غالساً  
على سطح باب الإصطبل السلطاني بدمشق، إذ أقبل آل مرا<sup>٣</sup> زهاء أربعة آلاف فارس  
شاكين في السلاح على الخيل المسومة، والجياد المطهمة، وعليهم الكزغndات<sup>٤</sup> الحمر،  
والأطلس المعدني، والديباج الرومي، وعلى رعوسمهم البيض، لأنهم صقور على صقور،  
وأمامهم العبيد تميل على الركائب، ويرقصون بتراقص المهاري، وبين أيديهم الجنائب،  
ومن ورائهم الطعائن والحملول، ومعهم مغنية لهم تُعرف بالحضرمية، طائرة السمعة،  
سافرة من الهوج وهي تغنى:

ليالي لاقينا جُذام وحميرا يقودون جرداً للمنية ضمرا ببعض تأبى النبع أن يتكسرا ولكنهم كانوا على الموت أصبرا	وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ولكن لقينا عصبة تغلبية فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه سقيناهم كأساً سقونا بمثلها
--	--

ودارت الحرب عند حمص يوم الجمعة الخامس عشر المحرم سنة تسعة وخمسين  
وستمائة، فلا تسألني كيف كانت عاقبتها، فهي العاقبة التي بشرت بها موقعة عين  
جالوت من قبل: فارق التتار الشام إلى غير رجعة.

<sup>٣</sup> آل مرا من آل ربعة من طيء.

<sup>٤</sup> كزغند: مغرب خزكند، وهو قباء محشو بالحرير يُلبس في الحرب.

# ثورة على الأخلاق<sup>١</sup>

يا أخي صاحب الرسالة، أبلغ أخي محموداً الذي لا أعرفه هذه الكلمة عنى:  
«قرأت في الرسالة ما نقله الأستاذ الزيات من رأيك في مزايا الأخلاق والفضائل،  
فهالئي ما قرأت، وعزمت على أن أبادر بالكتابة إليك على ضيق الوقت وفتور الصيام،  
وكيف لا يرتاع من يسمع أن رجلاً من ذوي الأخلاق خاب ظنه فيها، فثار عليها وينس  
منها؟ فاقرأ يا أخي كلمتي، ثم أبن لي رأيك من بعد.

دخل أعرابي مسجد المدينة ورسول الله وأصحابه هناك، فصلى ثم دعا فقال: «اللهم  
ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً». فضحك — صلوات الله عليه — وقال: «لقد  
حجَّرت واسعاً يا أعرابي». وكذلك أنت يا أخي قد حجَّرت واسعاً حين خُيل إليك أن  
دائرة عملك — التي وسعتها بمقدار ما استلزمها هذا العمل من ملابسة الشعب ومراجعة  
الحكومة — هي الأمة كلها، وأن الأمة هي العالم كله، وأن العالم الحاضر هو الزمان كله،  
وإن شئت أن تقول: إني لم أحجر واسعاً ولكنني وسعت محاجراً، فلك رأيك، والنتيجة في  
الحالين واحدة.

أود قبل أن أناقشك في رأيك أن أعدك موافقني، كما وافق صديقنا الزيات، على أن  
الخلق الفاضل سبيل إلى سعادة صاحبه، وطمأنينة، ما في هذا ريب، وأن الرجل الحر  
الأبي الفاضل يعيش في سعة من نفسه، وعزَّة من خلقه، ونعمٌ من وجدانه، لا يدركها

---

<sup>١</sup> ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٦ / ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٧. وُكتبت ردًّا على مقال كتبه صاحب الرسالة بهذا العنوان.

أصحاب الجاه العظيم، والثراء العريض، ممن وجدوا كل شيء وفقدوا أنفسهم، وأن الحر الكريم يرى نفسه في عزتها وحريتها ورضاحتها فوق هذا العالم الذي تباع فيه النفوس رخيصة، وتبدل فيه القلوب ذليلة، ويعد نفسه أسدًا قويًا مهيبًا قد ربص حجره من معتك الذئاب، ومهترش الكلاب.

إنما خلافنا في النجاح في المعايش ونيل الجاه والثروة: أسبيله الخلق القويم، أم العمل الذميم؟ وإنني أُعجل لك الجواب في قضية نتفق عليها، لنفرغ لما بعدها، فأقول: حق أن الرجل التقى الأبي لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقًا واحدة هي التي يسنها الحق والشرف والإباء والمرءة، وأن أمام الفساق والأذلاء والأدنية طرقًا شتى من التلاصص والكذب، والتزوير والخداع، والنفاق والملق، والذلة والشره، والظلم والقصوة والأثرة وهلم جرًّا، وحق كذلك أن من الأحرار من يُخفق في عمله حين يلزم نفسه هذه الطريق الواحدة، ويُكسرها على هذه المحجة الواضحة، وأن من العبيد عبيد المطامع والأهواء، ومرضى النفوس والأخلاق، من يظفرون في هذه السبيل بما يريدون، ويبلغون الغاية التي يقصدون، ولست أُجحد كذلك أن الجماعة قد تعطل، فيكثر فيها البطلون الظافرون، والمحقون المحرومون. كل هذا يا أخي حق، ولكن استمع: كثيًراً ما يحرم الحر الصالح لعزوفه عن معتك المطامع، وتصدوفه عن الاتجار في أسواق الحياة، وتنكبه السبل التي جعلتها سنن الجماعة وسائل إلى الثروة والجاه، فليس إخفاق هؤلاء بأخلاقهم، ولكن بكبرياتهم وتقصيرهم فيأخذ الأهبة، وإعداد العدة، على حين يتذهب الأشرار، ويجد الفجار، فلا جرم يُخفق أولئك وينجح هؤلاء؛ فإن للحياة قوانين، ولالمعايش سننًا، والقرآن الكريم يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَهَا نُورٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبَحْسُونَ﴾، ويقول: ﴿كُلُّاً نِمْدُهُ هُؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، ولكن إذا أخذ الرجل أهبيته للعرارك في الحياة، وتسلح بالخلق الطيب، فلن يكون هذا الخلق سببًا إلى إخفاقه، وسبيلًا إلى خيبته أبدًا. ربما تعطل الجماعة فينتصر المبطل، ويُخذل المُحق، ويُفتن بهذا كثير من الناس، ولكن هذا لا يكون شرعة في الأرض، ولا سنة من سنن الله.

ثم علة الجماعة لا تدوم، وليس الجماعات كلها عليه، وما تزال الجماعات منذ ألفها الله وعلمها، وبعث فيها الهداة المرشدين، ووضع لها السنن، أيًّا لأنصار الحق، وعونًا لأهل الفضيلة، وخذلناً لجند الباطل والرذيلة. ما زال الصانع الذي يتقن صنعته، ويسعد معاملته، ويصدق وعده أَنْجَحَ عَمَلاً وأَكْثَرَ مَالًا من الضائع الكذاب سيء المعاملة،

وما زال التاجر الصادق في قوله، الأمين في فعله، الذي يقلب تجارتة على شرائع من الصدق والأمانة، والقناعة والإخلاص، ولا يليس على الناس الجيد بالرديء، والغالي بالرخيص، ما زال هذا التاجر أريج متجرًا، وأملاً يدًا، وأحظى برضاء الناس وإقبالهم من التاجر الكاذب الغاش، الشره المخادع، أترى في هذا ريبًا؟ إن كنت في ريب فابحث كما تشاء، واسأل من تشاء، ولا يزال المزارع الذي يزرع الأرض، فلا يتزيد فيما أنفق عليها، ولا يسرق من زرعها، بل يصدق مالك الأرض فيما أنفق وما جنى، ومستأجر الأرض أو الدار الذي يشق على نفسه؛ ليؤدي الأجرة في حينها، لا يزال هذا وذاك أحب إلى المالكين، وأظفر بما يريده.

لا يزال الرجل الصادق الأمين في كل جماعة وفي كل طائفة، موضع المودة والثقة، ينال بسينته ما تقصّر عنه ثروته، إن استقرض أترض، وإن استعار أعيير، له من ثقة الناس رأس مال لا ينال منه الخسار، وتجارة لا يدركها البوار، ربما يتجر في ألف وليس عنده إلا مائة، ويزرع عشرة فدادين وليس بيده إلا أجرة فدان واحد، ويستخدم في المتاجر والمصانع دون كفيل أو ضمّين، سل يا أخي الناس في كل قبيل، وطالع التاريخ في كل جيل.

على أن الأمم في هذا مختلافات، والتاريخ درجات: أمّة تسد الطريق على كل فاجر مخادع كذاب، وتؤثر بمالها وكرامتها كل بر أمين صادق، وأمّة يجد المخادعون فيها طريقًا، ولكنها وعرة، ومذهبًا ولكنها ضيق، ورواًجاً ولكنها قليل، وأخرى يتسع فيها مجال الأشرار، وتزوج فيها سوق الفجار، ولكن لا تبلغ أمّة من الفساد أن تسن في الرذائل سنًّا، وتشريع في المخازي شرعاً، تجعل الأشرار المخادعين فائزين حيثما ساروا، وترتدى الأبرار الصادقين خائبين أيّنما توجهوا، مهما تستد العلة فالخيبة أكثرها للأولين، والنجاح أكثره للآخرين، فإذا أرادت الأمة أن تجعل الفساد سنة، فموطتها دون غايتها، وزوالها قبل استقرار سنتها.

أحسب يا أخي أن الذي ليس عليك الأمر لبسًا، وملأ عليك العالم حزنًا، وملأك على العالم سخطًا، أنك نظرت أول ما نظرت إلى دواعين الحكومة، فرأيت جماعة من خفاف الأحلام، صغار النفوس، شالت كفthem فارتفعوا، وأخرين من راجحي العقول كبار النفوس ثقلت موازينهم فنزلوا، فلما ملأت نفسك أسفًا، وانقلب أمك في الناس خيبة، نظرت إلى أنحاء الأمة ساخطًا متشارئًا، فنفضت عليها هذا السواد، ونفت علىها هذه الغضبة، ووصمتها بهذه الوصمة.

إن دواوين الحكومة أقرب الموضع إلى ما زعمت، وأكثرها تعرضًا لما وصفت، ذلك بأن الرزق فيها لا ينال إلا بالسعي والكد، والجهد والدأب، والاحتكام إلى سنن الاجتماع وقوانين الطبيعة، ولكن الرزق فيها يقسم بأيدٍ قليلة، ويصرف بأراء معدودة، فإذا فالت هذه الآراء، وطاشت هذه الأيدي، وقع الفساد، ثم شاع وعم حتى يبلغ أمده. وكثيراً ما تفilih الآراء، وتطييش الأيدي بأهواء الساسة، ومنازع التحزب، على أن هذا مهما كثُر لا يبلغ أن يكون قاعدة العمل، وسنة الجزاء.

ولا تننس يا أخي أن هذه الدواوين حديثة عهد بأيدي الأجانب ومن تربى في عبوديتهم، وكانت سنة الأجنبي أن يرفع من استسلام إليه، وتوكل عليه، ولا يكون هذا الاستسلام وذلك التوكل إلا احتقاراً للكرامة، وازدراءً بالخلق الفاضل، ونحن لا نزال في أول عهتنا بالاستقلال، لم تهذبنا التجارب، ولم تتمكن أيدينا من وضع القواعد الصالحة، وسن السنن القوية، وإقامة الوزن بالقسط بين الناس أجمعين.

فإن رأيت جوراً في الدواوين، وظلمًا بين الموظفين، فهي علة زائلة، فلا تنشرها على الأمة كلها، ولا تمدها على الزمان جميعه، واعلم أن الظفر للحق، والخيبة للباطل، وأن النصر للفضيلة، والهزيمة للرذيلة، وأنها للغمرات ثم ينجلين، والعاقبة للمتقين. والسلام عليكم ورحمة الله.

## معدة قرقرت ثم استقرت<sup>٢</sup>

يا أخي صاحب الرسالة:

«أما صاحبك فقد ساءتنى حربه وسلمه، وهو في سلمه أشد إساءة، وأعظم جنائية؛ صورته لي غاضبًا للأخلاق، راثياً للفضيلة، ثائراً على الناس، يقذفهم بالتهم، ويرميهم بالحمم، يشتط في غضبته، ويغلو في ثورته، فقلت: حر غضب فأخطأ، وكريم ثار فجار، وأبى برأ أخططه المذلة، وهاجه الفجور، فانطلق لا يقف عند حد، ولا يرضى بأمد، ثم صورته قنوعاً مستسلماً، فقلت: وا سوأت! لهذا المبطان جادلت، وهذا الجبان نازلت؟ لقد كان جهاداً في غير عدو، لم تكن شقشقة هدرت ثم قرت، بل معدة قرقرت ثم استقرت، وما الشقاشق إلا لفحول الجمال، وأشباههم من فحول الرجال.

<sup>٢</sup> شوال سنة ١٣٥٦ / ١٣٥٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧؛ جواب مقال للأستاذ الزيارات عنوانه: شقشقة هدرت ثم قرت، ذكر فيها رضا صاحبه محمود الذي ذكر في المقال السابق بعد ثورته على الأخلاق.

وأما أنت يا أخي الزيارات، فما أحسبك إلا شريك محمود في رأيه، أو صاحب وحيه، قدمته للكلام ونطقت على لسانه، وعرضته للنضال ونزعـت في قوسه، ولا أقول: أقـمـتهـ مقـامـ الوـثـنـ منـ سـادـنـهـ،ـ والـصـنـمـ منـ كـاهـنـهـ،ـ فـلـمـ تـبـيـنـ أـنـهـ فيـ الـخـاصـمـ غـيرـ مـبـينـ،ـ وـفـيـ الـمـاـزـقـ غـيرـ دـفـاعـ،ـ وـفـيـ الـمـارـكـ لـاـ يـثـبـتـ لـلـمـصـاعـ،ـ وـإـنـهـ لـجـوـعـ يـثـيرـهـ،ـ وـشـبـعـ يـرـضـيـهـ،ـ أـبـدـلـتـ بـهـ جـمـاعـةـ حـسـبـتـهـ أـقـوـمـ بـحـجـتـكـ،ـ وـأـشـدـ هـيـةـ فـيـ صـدـورـ خـصـومـكـ،ـ فـقـلـتـ:ـ «ـعـلـىـ أـنـ مـجـلسـنـاـ كـانـ حـافـلـ بـغـيرـ مـحـمـودـ،ـ مـنـ رـجـالـ الـعـلـمـ وـالـدـيـنـ وـالـأـدـبـ،ـ وـكـلـهـ كـانـواـ لـهـ وـعـلـيـكـ».ـ

وأـكـبـرـ ظـنـيـ أـنـ هـؤـلـاءـ رـجـالـ الـعـلـمـ وـالـدـيـنـ وـالـأـدـبـ شـرـكـواـ مـحـمـودـاـ فـيـ الـمـائـدـةـ،ـ وـإـلاـ فـكـيـفـ جـمـعـهـ بـمـحـمـودـ الـمـجـلـسـ،ـ وـقـدـ قـامـ مـنـذـ هـنـيـهـ عـنـ مـائـةـ إـلـفـطـارـ الـغـنـيـةـ الشـهـيـةـ؟ـ وـالـعـجـيبـ أـنـ تـنـهـبـ الـمـائـدـةـ ثـوـرـةـ مـحـمـودـ،ـ وـتـثـيـرـ سـخـطـ هـؤـلـاءـ،ـ وـلـعـلـهـ كـانـ أـشـبـتـهـمـ عـلـىـ الـمـائـدـةـ حـمـلـةـ،ـ وـأـطـيـشـهـمـ فـيـ الصـحـافـ يـدـاـ،ـ وـلـعـلـهـ آـثـرـواـ الـقـنـاعـةـ،ـ وـاـصـطـنـعـواـ الـحـيـاءـ،ـ وـتـمـسـكـواـ بـالـأـخـلـقـ،ـ فـحـرـمـوـاـ الـطـعـامـ،ـ فـكـانـ ثـورـتـهـ عـلـىـ الـأـخـلـقـ.ـ

وبـعـدـ،ـ فـمـوـضـعـ الـخـلـافـ بـيـنـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـقـضـيـةـ:ـ هـلـ الـخـلـقـ الـفـاضـلـ سـبـيلـ النـجـاحـ؟ـ قـالـ مـحـمـودـ إـبـانـ ثـورـتـهـ:ـ لـاـ،ـ وـقـلـتـ:ـ نـعـمـ،ـ وـضـرـبـتـ مـثـلـاـ الصـانـعـ الـمـجـيدـ،ـ الـحـسـنـ الـمـعـاملـةـ،ـ الـصـادـقـ الـوـعـدـ،ـ وـالـتـاجـرـ الـأـمـيـنـ الـخـلـصـ،ـ وـالـمـازـرـ الـأـمـيـنـ،ـ ثـمـ قـلـتـ:ـ وـلـاـ يـزالـ الرـجـلـ الـصـادـقـ الـأـمـيـنـ فـيـ كـلـ جـمـاعـةـ وـفـيـ كـلـ طـائـفـةـ مـوـضـعـ الـمـوـدـةـ وـالـثـقـةـ،ـ يـنـالـ بـسـيرـتـهـ مـاـ تـقـصـرـ عـنـهـ ثـرـوـتـهـ؛ـ إـنـ اـسـتـقـرـضـ أـقـرـضـ،ـ وـإـنـ اـسـتـعـارـ أـعـيـرـ إـلـخـ،ـ فـبـأـيـ هـذـاـ يـرـتـابـ أـصـحـابـكـ؟ـ يـقـولـونـ:ـ مـاـ أـهـوـنـ الـأـخـلـقـ إـنـ كـانـ قـصـارـاـهـاـ هـذـاـ النـجـاحـ الـحـقـيرـ،ـ وـيـقـولـونـ:ـ إـنـ الـذـيـنـ ضـرـبـتـهـمـ مـثـلـاـ مـنـ الـأـخـيـارـ لـنـ يـسـتـطـيـعـواـ أـنـ يـكـونـواـ يـوـمـاـ مـنـ رـجـالـ الـمـالـ وـالـأـعـمـالـ كـفـلـانـ وـفـلـانـ.ـ وـأـنـاـ يـاـ صـدـيقـيـ مـاـ خـصـصـتـ بـقـوليـ ضـرـبـاـ مـنـ النـجـاحـ دـوـنـ ضـرـبـ،ـ وـلـمـ يـكـنـ ذـكـرـيـ التـاجـرـ وـالـصـانـعـ وـالـمـازـرـ إـلـاـ مـثـلـاـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِيُ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْوَذَةً فَمَا فَوْهَاهَا﴾ـ،ـ وـلـاـ أـتـمـ الـآـيـةـ إـشـفـاقـاـ عـلـىـ أـصـحـابـكـ،ـ إـنـيـ أـقـولـهـاـ كـلـمـةـ عـامـةـ شـامـلـةـ:ـ الـخـلـقـ الـفـاضـلـ،ـ فـيـ أـغـلـبـ الـأـحـوـالـ،ـ سـبـيلـ إـلـىـ الـنـجـاحـ،ـ فـيـ كـلـ طـرـائـقـ الـحـيـاةـ،ـ إـنـ أـخـفـقـ حـيـنـاـ نـجـحـ أـحـيـانـاـ،ـ وـإـنـ أـكـدـىـ مـرـةـ أـورـىـ مـرـأـةـ،ـ فـالـحـاـكـمـ الـخـيـرـ،ـ وـالـرـئـيـسـ الـبـرـ،ـ وـالـقـائـدـ الـصـالـحـ،ـ وـالـمـؤـلـفـ الـصـادـقـ،ـ وـالـأـدـيـبـ الـنـزـيـهـ،ـ وـالـصـانـعـ وـالـتـاجـرـ وـالـزـارـعـ،ـ بـلـ الـمـوـظـفـ،ـ كـلـ أـوـلـئـكـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـنـجـحـ،ـ وـأـظـفـرـ بـالـطـلـبـةـ فـيـ أـكـثـرـ الـأـحـوـالـ مـنـ أـنـدـادـهـمـ مـنـ الـأـشـرـارـ،ـ بـعـدـ أـنـ يـتـخـذـوـاـ لـمـقـاـصـدـ سـبـلـهـاـ،ـ وـيـعـدـوـاـ لـكـلـ أـمـرـ عـدـتـهـ،ـ فـإـنـ قـصـرـوـاـ فـيـ الـأـهـمـيـةـ،ـ وـتـوـانـوـاـ فـيـ اـتـخـاذـ الـعـدـةـ،ـ فـمـاـ يـجـدـيـمـ الـخـلـقـ وـحـدهـ؟ـ إـنـ بـعـضـ الـأـخـيـارـ تـجـنـبـيـاـ الـمـارـكـ،ـ وـأـشـفـقـوـاـ مـنـ الـمـهـاـلـكـ،ـ وـضـيـعـوـاـ الـحـزـمـ،ـ فـلـمـاـ أـوـفـتـ بـهـمـ الـأـعـمـالـ عـلـىـ نـتـائـجـهـاـ،ـ التـبـسـ الـأـمـرـ عـلـىـ كـثـيـرـ مـنـ النـاسـ،ـ فـحـسـبـوـاـ إـخـفـاقـهـمـ بـمـاـ

استمسكوا بالحق والخلق الطيب، وحالوا نجاح أضدادهم بما ركبوا إلى غياباتهم مراكب الباطل والرذيلة، فقل لهؤلاء: أعيدوا النظر، وأحسنوا التفكير، ولا تصرروا النجاح على المال، فيجور بكم المنطق، فهناك الكرامة والجاه والرياسة والزعامة، وهناك الطاعة والمودة، وانظروا إلى الزعماء الذين يسوسون الأمم؛ أهم من أصحاب المال؟

وقلت في مقالٍ سابق: إن للأخيار إلى مقاصدهم سبيلاً واحدة، وللأشرار سبلاً شتى، ولكن هذه السبيل الواحدة أخرى بأن تؤدي إلى الغاية، وتوفي على المطلوب، فقلت: إن أصحابك يرون في قاتلي هذه نزوعاً إلى رأي محمود، ثم قلت: «وما دام جوهر الرأي واحداً، فالسبيل القاصدة أن نطلب لهذه الحال بما يوائم طموح الناس، وكرامة الأخلاق، وسلامة المجتمع». ثم قلت: «إنه لا مدعى عن إحدى وسائلتين: أن تحمل الناس بالدين والسلطان على سبيل الحق الواحدة، وذلك خيال نبيل لا يقع في الإمكان، وإما أن نعيد النظر في قانون الأخلاق. وهذا على ما يرون مظنة التوفيق في الإصلاح الجديد».

وجوابي أنه ليس في كلامي نزوع إلى رأي محمود إلا أن تقطع المقدمات بعضها عن بعض، ويفصل بين أول الحجة وأخرها، وأما الدعوة إلى إعادة النظر في الأخلاق، فأنا لم أعد في مقالٍ جملة الأمر إلى تفصيله، لم أجادل عن خلق بعينه، ولم أقل: إن خلقاً ما صالح لهذا الزمن أو غير صالح، ولكني قلت: إن الأخلاق الفاضلة التي تتفق عليها أمة أو أمم، لا تكون سبلاً إلى الخيبة والحرمان، وإن أردت أن تعيد النظر في الأخلاق فما أنا بمنكر أن الأخلاق تقبل بعض التغيير، ولكن لا إدخال إعادة النظر ستغير تغييرًا ذا بال فيما سارت عليه الأمم منذ هداها الوجдан والعقل إلى سبل الخير، ولن تحلل هذه الإعادة رذائل كالكذب والسرقة والتزوير والظلم، أو تحرم فضائل الصدق والأمانة والعدل. ومهما تكون النتيجة، فالأخلاق القديمة أو الجديدة لا تكون قرينة الخيبة والشقاء.

وقد ذكرت أيها الأخ الكريم أخلاقاً تجعلها مثلاً لما ت يريد تغييره، ذكرت التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكّل، وهذه أمور يختلف فيها النظر، وليس من قواعد الأخلاق، فقل فيها ما يهديك إليه النظر الصائب، ورأيي أن التواضع محمود ما لم يكن ذلة، والقناعة حميدة بقدر ما تحول بين الإنسان وبين الشره والاستكلاط، فإن كانت ضعفًا في الهمة، وعجزًا عن الإدراك، فهي رذيلة، وكذلك الزهد، وأما التوكّل فإن يكن استكانة للحادثات، وخوضوعًا لكل ما هو آت، فما يرضاه إنسان، وإن كان ثقة بالنفس وانطلاقاً في سبيل الحياة، لا ترده دون غايته المشاق والأهوال، فما أحوج الناس إليه!

يا أخي: قد أساء العجز والذل تأويل هذه الأمور، وأنت تعرف أن المثل الأعلى للرجل المسلم أن يكون طماحاً إلى أبعد غاية، واثقاً بنفسه إلى غير نهاية، حرّاً لا يقر بعبودية،

أبياً لا يقيم على دنياه، يرى نفسه قائماً في هذا العالم بالقسط، قد وكل الله إليه تصريف الأمور، وتقسيم الأرزاق، والهيمنة على الأخلاق. وأين هذا مما فهمه الناس من التواضع والتوكل؟!

وأما الربا فلا يتسع المقام ل الكلام فيه، وحسبك هذه الثورات الثائرة حوله، والمعارك الهائجة فيه بين البلاشفية والرأسمالية.

وأما قياس الأخلاق بالنفع والضر، فقد ذهب إليه بعض علماء الأخلاق، ولكن مذهبًا ينتهي إلى منفعة الجماعة وضررها، لا منفعة الفرد وضرره. ولن تقوم لأمة قائمة إن جعلت مقاييس أخلاقها نزوات كل إنسان، ونزعات كل فرد.

وبعد، فيا صديقي، أراني حدث عن الموضوع الأول استطراداً معك، فأرجع إلى محمود أحمد على ثورته مخطئاً، وأنذمه على هدوئه مصبياً، فقد تمثل لي في الأولى حرّاً ثائراً يريد أن يقلب نظام الأخلاق في الأمة، وتمثل لي في الثانية تكلاً نكساً مبطاناً، لم يدع على المائدة فتاتاً، ولم تدع فيه المائدة بقية لهمة أو عزيمة أو ثورة. فرحمه الله جوعان ثائراً، وأخزاه الله شبعان خائراً!!



## ١ سوريّة<sup>١</sup>

سوريّة الجميلة ذات الخمايل الوارفة، والجනات الناضرة، والمياه الثارة! سوريّة أنس الفؤاد، وقرة العين.

سوريّة الكادحة التي يجهد أهلها في السهل والجبل، يخرجون بالماء القليل شتى الثمرات، وينبتون به يانع الجنات، سوريّة بردى والعاصي.

سوريّة الصابرة التي وفرت الأيام نصيتها من النكبات والأزمات، المجاهدة التي تجادل عن نفسها، وتجahد عن شرفها، دفاع البطل الأصيل الأعزل، يمضي بجناه ويده، يشق الأهوال إلى غايتها، ويحطّم الخطوب إلى طلبه، مجاهداً مثابراً، مرزاً صابراً.

سوريّة التي لم تجف فيها دماء الشهداء، ولم تنقطع سلسلة النوائب.

سوريّة التي تغيب بالذّكر المديدة، والسيّر الخالدة، وتمت بالرحم الواشجة، والقربى الوالصلة، والجوار والذمام.

سوريّة الجميلة الحبيبة، الكادحة المجاهدة الصابرة، فجأها السيل كقطع الليل، ودهمتها القضاء من السماء، فاستحالت جبالها أنهاراً، وسهولها بحاراً. طفى السيل بالناس والدواب، وجرف القرى والضياع، وذهب بالزروع والثمار.

فهذه جث الغرقى منتورة في السهول، وأنقاض الدور تسيل بها الأودية، وتحت الماء والطين عتاد البائسين وذخيرة المساكين، وما أبقيت الأزمات من ثياب وأقوات. فانظر إلى الشمال المبدد، والأمل المخيب، والهلع والفزع، والفاقة والجزع! انظر العيون الباكية،

---

<sup>١</sup> رمضان سنة ١٣٥٦ / ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٧. كُتبت حينما أغرق السيل بعض بلاد سوريا.

والدموع الجارية، والنظرات الجازعة، والخدود الضارعة، والعقول الذاهلة، والقلوب الحائرة، واستمع زفرات الأحياء على الأموات، وبكاء الأولاد أو نحيب الآباء والأمهات.  
استمع فكمْ آنة كليم، وآهة يتيم!

إن الشاعر المحزون الواله ليخيل إليه أن مجرى السيل خلائق أن يكون مجرى  
الدمع، ويدرك قولي أبي العلاء:

ليشرب الحاج من زمزمين      ليت دموعي بمنى سيلت

لك الله يا سورية! تركتك منذ قليل تعانين ما تعانين، وارتقت أن تتطاير الأخبار  
بما نؤمل من انتعاشك، وما نرجو من نهوضك، فما راعنا إلا نبأ السيول الجارفة المدمرة،  
ولكن في صبرك وجهادك عزاء، وكل غمرة إلى انجلاء، وإن وراء هذا الظلام فجرًا، وإن  
مع العسر يسراً.

هذه سورية في نكبتها، فمن ندعو لنجدتها؟ إن ندع العرب فأهل النجدة وأولو الحمية،  
وحفظة الجوار، ورعاة الدمار، في قلوبهم الرحمة لهؤلاء المنكوبين رجاء، وفي قربتهم  
العاطفة عزاء، وفي أيديهم السخية ما يخفف البلاء، وهم للبائس خير وذر، ولللاجيء أمنع  
عصر.

وإن ندع المسلمين والنصارى، فالدين يأمرهم بالترحم، ويحفزهم إلى المؤاساة،  
وإن لإخوانهم فيهم لنصراء رحماء، يجيبون دعوة المضطر، ويمسحون دمعة المحزون،  
ويفرجون كربة المكروب. إن عليهم أن يمسحوا على هذه القلوب الدامية، ويرفعوا بهذه  
الأكباد الواهية.

بل أدعو البشر أجمعين، والإنسانية كلها، دعوة عامة شاملة، وأستنجد القلوب  
الرحيمة، لا أستثنى أحداً، أن تمد الأيدي الآسية إلى هذه الألوف التي يعوزها القوت  
واللباس والمأوى.

يا معاشر الكتاب والشعراء، كيف تقسو في هذه المحنـة القلوب، وتجمـد في هذه  
الكارثـة الدـمـوع، ويـصـمتـ فيـ هـذـهـ الفـاجـعـةـ الـبـيـانـ، ويـخـذـلـ القـلـمـ وـالـلـسـانـ؟  
إن ما بين دمشق إلى المـعـرـةـ لـلـسـيـلـ غـارـاتـ، ولـلـدـمـارـ آـيـاتـ، ولـلـشـعـرـ مقـالـاـ، ولـلـبـيـانـ  
مجـالـاـ.

دمشق العظيمة تستغيث، والمعرة الخالدة تستنجد، فيا أدباء العربية والإسلام، أحياوا  
الهم، وASHDHO العزائم، ويا أحباء أبي العلاء، هذا شيخ المعرفة في بيانه، يستنجدكم  
لجيشه، يقول:

كيف لا يشرك المضيقين في النعـ مـة قـوم عـلـيـهـمـ النـعـمـاءـ؟ـ!

ويقول:

من حاول الحزم في إسداء عارفة فليلقها عند أهل الحاجة الشكر  
ومن بغى الأجر محضاً فليناد لها بـًـا فـقـيـرـاـ وإن لـاقـاهـ بالـنـكـرـ

فالـقوـاـ بـمـعـرـوفـكـمـ هـؤـلـاءـ الـأـبـارـ الشـاكـرـينـ تـجـمـعـواـ الـحـزمـ وـالـخـيرـ فيـ مـكـرـمـةـ،ـ وـلـاـ  
تحـقـرـواـ ماـ تـسـعـفـونـ بـهـ وـإـنـ قـلـ،ـ وـاسـتـمـعـواـ إـلـيـهـ يـقـوـلـ:

إـذـاـ طـرـقـ الـمـسـكـنـ بـابـكـ فـاحـبـهـ  
قـلـيـلاـ وـلـوـ مـقـدـارـ حـبـةـ خـرـدـلـ  
فـرـبـ حـصـاـةـ أـيـدـتـ ظـهـرـ مـجـدـلـ  
وـلـاـ تـحـقـرـ شـيـئـاـ تـسـاعـفـهـ بـهـ



# مصطفى الصادق الرافعي<sup>١</sup>

«قال قائل: مات سنائي!

إن موت هذا العظيم ليس خطبًا أممًا، لم يكن تبنة ذهبت بها الريح، ولا كان ماء  
حمد في الزمهرير، ولا كان مشطًا كسرته شعرة، ولا كان حبة سحقتها الأرض، إنما كان  
كنزًا من الذهب في هذا التراب، لا يزن العالمين بمثقال ذرة.  
لقد رمى القالب الترابي إلى التراب، وحمل الروح والعقل إلى السماوات.»<sup>٢</sup>

ذكرت هذه الأبيات، أبيات جلال الدين الرومي، حينما قرأت نعي الرافعي. وا عجبًا!  
أنضبت هذه النفس الفياضة؟ أذبل هذا الخلق النخير؟ أخدمت هذه الجذوة؟ أطفئ  
هذا المصبح؟ أكلت هذه العزيمة الماضية؟ أفترت هذه الهمة الدائبة؟ أظلم هذا القلب  
الذي يملأ الدنيا ضياءً؟ أوقف هذا الفكر السيار؟ أوقع هذا الخيال الطيار؟ أسكن هذا  
القلم المصور الذي يصبغ العالم كما يشاء، يضحكه ويبكيه، ويُسخنه ويرضيه، والذي  
إن شاء صور أحزانه مواسم، وإن شاء رد أغياهه مآتم؟  
أمات الرافعي في وقده جنانه، وشعلة بيانه، وعزة قلبه وسلطانه؟ أطوي القلب  
الذي وسع الدنيا وما وسعته، وحرقها وأكبرته؟

<sup>١</sup> ربيع الأول سنة ١٣٥٦ / ٢٤ مايو سنة ١٩٣٧.

<sup>٢</sup> ترجمة أبيات جلال الدين الرومي، وسنائي شاعر صوفي كبير.

كلا، كلا، إن مولد الحر في الدنيا قليل، وإن موت الحر مستحيل. إن مولد الحر تتمضض عنه الأجيال بعد عناء، ويمهد له الزمان بعد جهاد ليولد على الأرض تاريخ أو فصل من تاريخ، فإذا انقضى عمله وجاء أجله، فهو تاريخ لا يُمحى، وذكرى لا تموت. إن الحر ليولد على هذه الأرض كما يولد النجم في أطباقي السماء، فلا يزال وضاء هادياً، أو كما يولد النهر في سفح الجبل، فلا يفتأ جارياً ساقياً، أو كما تولد الحقيقة في أفكار البشر، ثم لا تموت أبداً.

إن الحر الكريم فطرة صافية تستمد من الله، فلا يحول عنها نوره، ولا يتحول عنها وحيه، وهي في خلق الله سنة لا تتبدل، فلا تستعبد الحر الأهواء، ولا تذله المطامع، وهو يأبى على الحدود، وينفر من القيود، ويكبر على الزمان والمكان. إن خلق الناس زمانهم خلق هو زمانه، وإن حد الناس مكانهم حد هو مكانه، فإذا ساق الناس التقليد أو قادهم، وإذا خيل إليهم الباطل حقاً والحق باطلًا، وقف هو هازئاً أبيبًا يستوحى ربه، ويستفتي قلبه، وإذا جرف التيار الخاصة والدهماء، فاضطربوا في موج الحادثات كالغشاء، ترمي بهم كل شط، وتمسح بهم كل أرض، ثبت الحر كالطود الأشم، البحر الخضم:

يظل كالطود يجري حوله نهر  
من الخطوب له بالناس طغيان  
فأنت مأرب أهل الذل قمته  
فما يذلله نيل وحرمان

إن الرجل الحر صفة في التاريخ جديدة، وخطوة في سير البشرية مقدمة، على حين لا يظفر التاريخ بجديد في آلاف المواليد، ولا يخطو خطوة إلى الأمام في كثير من الأعوام، وهل التاريخ كما قالوا إلا إعاة وتكرار؟!

ولقد أوتى الرافعي من الحرية الإلهية نصيباً، ومن النور الإلهي قلباً، ومن الفيض الإلهي ينبعاً، فلبث دهره نسيج وحده، وظل حياته ينير للسالكين، ويسقي للظائمين. ولقد أوتى من العزة الإسلامية ما تخر له الجبال، ومن الهمة القرآنية ما تنشق له الأهوال، ولقد أوتى من الإيمان ما أصغر الدهر في سطواته، ومن نور الإيمان ما شق على الزمان ظلماته.

كان الرافعي نوراً وسلاماً، ومحبة ووثاماً، فإذا سيم الدنية في دينه أو في أمته، وإذا تجهم الباطل لحقه، أو تطلعت المذلة إلى خلقه، ألهيت النور ناراً تلظى، والسلم حرباً تهيج، والحب بغضناً ثائراً، والرحمة شدة حاطمة.

لبثت سنين طوالاً أقرأ للرافعي ولا أراه، وأحبه ولا ألقاه، وأتحدى عنه معجباً، ثم أقول لحدي: هذا وجه ما سعدت برؤيته حتى لقيته العام في لجنة التأليف والترجمة والنشر وكأنا صديقان قديمان، ثم أتاحت الفرصة لقاءه مرتين أو ثلاثة، كانت آخرها في دار هذه اللجنة، بعد أن كتبت مقالاً عن كتابه وهي القلم، فعانقني وما توهمت أنه عناق الوداع، ثم افترقنا وما علمت أنه آخر العهد، وفرقة الدهر. رحم الله مصطفى الصادق، وجراه عن لغته وقومه ودينه خير الجزاء، لا جرم سيحفظ ذكره بيان القرآن، وتاريخ العرب والإسلام.

## شباب أم أمانٍ<sup>٤</sup>

يهتز فيها جمال جد مفتون  
ينشر الحسن فيه كل مكنون  
تردها الريح عنه رد مغبون  
شتى الورiqات بين الماء والطين  
ورفرفت فوقه أحلام مجنون؟  
أم صورة الماء بين الحين والحين؟

يا زهرة في ضفاف الماء ناضرة  
والنسيم على أوراقها عبث  
طالع الماء تتبعي فيه صورتها  
وينفذ الدهر فيها حكمه فإذا  
أين الشباب الذي راقت نضارته  
أنضرة الزهر لم تثبت لنظرها

## أروع الأشياء<sup>٤</sup>

سائلة: ما أروع الأشياء؟  
طوفت في الأرض وفي السماء؟

أتذكرين يوم جئت حيري  
أتذكرين حيرتي وأنني

<sup>٣</sup> ٤ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ / ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧.

<sup>٤</sup> ٤ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ / ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧.

ثم انثنينيت واللسان عي      يعثر بين العجز والحياة؟

\* \* \*

أتذكرين بعد ذاك يوماً  
ترقرقت فيه الدموع تترى  
هذي الدموع، لا عراك حزن  
أروع شيء في الورى دموع

أسلمك الحزن إلى البكاء  
لألاعة في خدك الوضاء  
أوحت لقلبي أصدق الإيحاء:  
في مقلة الحزينة الحسناء

## مصر والبلاد العربية<sup>١</sup>

بين مصر والبلاد العربية كل ما يؤلف بين الأقوام من وسائل القربي والتاريخ، وكل ما يحكم القرابة من عقائد وعواطف، وألام وأمال، وكل ما يؤكّد الأخوة من حقائق ومنافع. والكلام في هذا تبيّن ما لا يعوزه البيان.

يذهب المصري إلى أحد الأقطار العربية فكأنما برح بقعة في مصر إلى أخرى، يرى وجوهاً يعرفها ولا تنكره، ويسمع من أحاديث الماضي والحاضر ما يسمعه في بلاده، ويُحدّث عن الهموم والمطامح التي تنطوي عليها نفسه ويخفق بها قلبه. حيثما توجه وجد أهلًا بأهل، وإخوانًا بإخوان، وأبصر من ذكر التاريخ، ومشاهد الحاضر، وخطط المستقبل ما يوحى إليه أنه في وطنه وبين قومه، وكأنه لا يذهب إلى هذه البلاد إلا ليري بعينيه ما حدثه به التاريخ، وأحكمته في نفسه النشأة والتعليم.

ذهبت مرات إلى فلسطين والشام والعراق، فكان يخيل إلىَّ أينما سرت أني لا أخطو إلا على صفحات من التاريخ المجيد، ولا أرفع بصري إلا على عنوان من عناوينه، في صورة مسجد أو مدرسة، أو قبة حنت على عظيم من أسلافنا أبطال الإسلام والعربية، وطوفت في العراق مدنه وقراه، وحضره وباديته، فكانت بغداد عندي القاهرة، بل أجمل ذكرًا، وكانت الكوفة والبصرة والموصى أعظم أثرًا في نفسي من طنطا والمنصورة وأسيوط، وكانت مضارب شمر وبني تميم أذهب بي في التاريخ من مضارب القبائل المصرية، وأما

---

<sup>١</sup> ذو الحجة سنة ١٣٥٥ هـ / ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧.

دمشق الجميلة الجليلة، فما دخلتها إلا أزدهمت على أحاديث التاريخ، ودفععني مواكبها،  
فسارعت إلى الجامع الأموي أنشد قول شوقي:

هذا الأديم كتاب لا كفاء له رث الصحائف باقٍ منه عنوان

ولست بداعاً في هذا، فما أحسب مصرياً ذهب إلى هذه البلاد إلا شعر بما أشعر به.

وليس الأمر بيننا تشابك أرحام واتصال أوطنان فحسب، ولكنه الحب المؤكّد والود الصريح ينطّق على ألسنة القوم، ويتجلى في أساريرهم، ويبين في أعمالهم، ويشهد به اهتمام القوم بكل صغيرة وكبيرة في مصر، وتحديثهم عن علمائها وأبنائها وأحزابها وقادتها حديث المحب العارف الخبر، وحرصهم على قراءة ما تخرجه مصر من كتب ومجلات وجرائد. وكثيراً ما ترى في الشام والعراق من يعلم عن مصر أكثر من أبنائها، وإذا تحدث هؤلاء الإخوة الكرام عن مصر أشادوا بذكريها، وأكبروا حضارتها، وأعظموا مآثرها على العربية والإسلام، معترفين مغتبطين، لا جاحدين ولا كارهين، وعدُّوا مجدها مجدهم، وعزّها عزّهم، وفخرّوا بها كما يفخرّون ببلادهم.

وتطلع البلاد العربية إلى مصر، وإنزالها هذه المنزلة أجدى الوسائل إلى التقرّيب بينها، وتوحيد سنّتها في التربية والتعليم، والتّأليف بين أبنائها، ولم يأل إخواننا جهداً في التّوّدّد والتّقرب، فماذا يجب على مصر؟

ليست مصر أقل شعوراً بإسلامها وعربيتها، ولا أضعف تقديراً للوشائج التي تحكم بهذه البلاد وأواصرها، والمصالح التي توثّق بها علائقها، ولكن التاريخ السياسي في العصر الأخير فرق بين هموم مصر وهموم أخواتها، وشغلها بغير الذي شغلوا به، فلما أفاقـت قليلاً إلى نفسها و موقفها بين الأقطار والأمم، لم يلحقها شـك فيما بينها وبين أخواتها من أواصر وعـرى لا تقوىـ الحـادـثـاتـ عـلـىـ فـصـمـهاـ، وـكـلـمـاـ خـفـ عـنـهاـ عـبـءـ المصـائبـ اـزـدـادـتـ شـعـورـاـ وبـصـرـاـ بـمـكـانـتـهاـ بـيـنـ أـخـوـاتـهـاـ، وـمـاـ يـجـبـ عـلـيـهـاـ لـهـمـ.

إن على مصر أن ترعى القرابة، وتجزي الود بالود، وعليها أن تضطلع بالتبعات التي تحملها إياها ثقة البلاد العربية بها، وإقامتها مصر مقام الأخ الأكبر. أسمع أحياناً بعض المتحدثين بهذا يقولون: إن على مصر أن تستغل هذه الثقة. وحاشا الله أن يكون الأمر استغلالاً أو اتجاراً، إنما هو أخوة ومودة، وتبعات وواجبات،

وتعاون على الوقوف في معتنوك الحياة، وتأنز على بلوغ الغاية التي تلتقي عندها مقاصدها جميئاً. يجب على مصر أن تصلح نفسها، وتكلم حضارتها، وتعمل على ما يوافق مكانتها، وتسن السنن الصالحة لنفسها وغيرها. يجب عليها أن تشارك في السراء والضراء، ولا تقف بمعزل في مصائب البلاد العربية ومسراتها، بل تشارك جهد اليد واللسان والقلب، وعليها ألا تألو جهداً في إمداد من يستمدّها، وبذل ما تسأله من معونة في العلم والأدب وغيرهما، موحية إلى كل مصري يذهب إلى البلاد العربية، أنه يذهب ليؤدي واجباً، ويتعاون أخاً، وأن واجبه حيثما كان من هذه البلاد كواجبه في مصر، وأن مقصده الأول أن يبذل من قواه على قدر طاقته، لا يبغي جزاءً ولا شكوراً، وإن لم يقصر إخواننا في الجزاء والشكر.

ثم على مصر ألا تتردد في الاستفادة بما في هذه البلاد من مزايا، فلا ريب أن فيها من الآداب والأخلاق والصناعات ما يجدي علينا أن نتلقاه عنها، ونحتذى بها فيه.

بالمقدمة والتآخي والتعاون، وشعور كل جماعة بمكانها من الجماعات الأخرى، وإدراكها ما لها وما عليها في الجماعة الكبيرة الشاملة، يتهيأ للبلاد العربية، ما بين بحر الظلمات ونهر دجلة، ما تطمح إليه من مجد وسعادة، وما يكافئ تاريخها من حضارة، حتى تؤدي نصيبها من الخير للجماعة البشرية كلها. وما أعظم ما ينتظر المجد من العرب! وما أعظم ما تؤمل الإنسانية فيهم!



## من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

يروي بعض الصوفية أن الرسول – صلوات الله عليه وسلم – كان إذا قفل من غزوة قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ويقولون: إن الجهاد الأصغر قتال الأعداء، وخوض المعامن، وقراع المزايا، والجهاد الأكبر تقويم النفس وتطهيرها، وإعدادها للرقابة على أفعالها، والقيام بالعدل فيما بينها وبين الناس، ثم مجاهدة الأنفس الأخرى بالحكمة والوعظة الحسنة، وبالرغبة والريبة، واللين والشدة، حتى تستقيم على السنن القويم، وتحتمل كل ما يحملها الواجب، وتأخذ كل ما يعطيها الحق، حتى يجتمع الناس على شرع لا تفرقهم الأهواء، ولا تثور بينهم البغضاء، ثم النظر بعد هذا فيما يصلح الجماعة، ويسعدها في معايشها.

صدق هؤلاء القائلون، فحرب العدو جهاد بَيْنَ، لا تقعده عنه الأنفس العزيزة، ولا تختلف فيه الكلمة، تدعوه إليه العزة والكبرىاء، والذود عن الأنفس والحرمات، ويصمد فيه المجاهد لعدو مرئي في معرتك محدود، ولكن جهاد النفس، وإصلاح الجماعة وإسعادها خفي المسالك، غامض الجوانب، تعركت به النفس الواحدة منازع مختلفة، وتفترق بالجماعة أهواه متشاكسة، ويطغى فيه المدى، وتمتحن العقول والعزم.

فإن تكن الأمة المصرية قد مشت في عزتها إلى غايتها، أو أشرفت على الغاية، إن تكن قد بلغت بالإباء والكبرىاء والدأب والصبر ما أمللت، أو بعض ما أمللت، إن تكن فرغت من الثورة والعداء إلى السلم والمودة، فإنما قفلت من جهادها الأصغر إلى جهادها الأكبر؛ الجهاد الذي يعني بأحوال الأمة، ما ظهر منها وما بطن؛ ليربيها على الخير والحق، وينشئها على الخلق القويم، ويردها جماعة صالحة متاخية تجمعها المودة، ويعدل بينها الإنصاف، تلقى الخير والشر بقلوب موحدة، وعزائم مجتمعة، وأراء متناصرة.

الجهاد الذي يعني بالجهلاء فيعلمهم، وبالمرضى فيأسوهم، وبالبائسين من الزراع والصناع فياخذ بأيديهم إلى العيشة الراضية، ويقارب بين طبقات الأمة، حتى يجمع شملها الخير العام، والمصلحة الشاملة، الجهاد الذي يهيء للأمة ولادة ينشرون السلام والأمان، ويقومون بين الناس بالقسط في كل كبيرة وصغيرة، حتى تعم النصفة القويّ والضعيف، والنصير والمخالف، والمحب والمبغض.

وتقوم للأمة حكومة يحمل كل واحد فيها قانوناً في الخُلق يكفل ألا يحيد قيد شعرة عن القانون الذي في الورق، ويتنزل فيها المثل الصالح من الرؤساء إلى من دونهم، حتى يشعر كل عامل أنه يتلقى العدل من فوقه، لوحده إلى من دونه، وأنه حين يعدل لا يتبرع ولا يمن على أحد، وإنما هو الحق والواجب لا محيد عندهما، ولا مفر منهمما، ولا يسع الأمر غيرهما.

وحتى لا يُقضى في أمر إلا بما كان يقضي به عمر بن الخطاب لو عرض هذا الأمر عليه، لا محاباة ولا حيف، ولا هواة ولا ضعف، حتى يؤخذ الحق له، وحتى يكون العامل الصغير في أقصى الأرض نائلاً حقه، أمّا عليه، كالحاكم الكبير في دواوين القاهرة، وحتى ييأس أكبر الموظفين، وأقرب المقربين من المحاباة، يأس أصغرهم وأبعدهم، لكلّ حقه، وعلى كلّ واجبه، وفوق الناس جميعاً قانون الأمة وعدل الله.

الجهاد الأكبر الذي يذهب بهذه المساوئ البدائية في أنفسنا وأجسامنا، وأزيائنا وطرقنا، وأنديتنا ودواويننا ودورنا، والذي يأخذ الأمة بيد رحيمه حازمة، ويؤدي بها على النجاة غير مبالغة بصيحات المرضى الذين يكرهون الدواء، والمفسدين الذين ينفرون من الإصلاح إلى الخـ إلخـ.

لست أقول: إنّ أمّتنا ابتليت بالشر والفساد بين الأمم، ولكنني أريد لها أن تكون خير أمّة أخرّجت للنّاس، وأن تصير مضرب المثل بين الأمم في أخلاق أفرادها، ونظم جماعاتها، وسعادة أولادها.

سيقول الضعفاء: هذا مطلب عسير، وأنا أقول: إنما تطمح عزائمنا إلى المطالب العسيرة، وإنما يكافئ هممنا المقاصد البعيدة، وسيقول الذين في قلوبهم زيف: هذا هذيان، وينسون أن هذا الهذيان تنطق به القوانين كلها، فإن لم يكن عملنا مصدقاً قوانيننا، فما جدوى هذه القوانين؟ ليس في الأمر عسر، وليس في الأمر هذيان، ولكنه حق يسير إذا برئت النفوس من يأسها، وخرست الأسنان عن هذيانها. وحسبنا أن يقوم على رأس الأمة «عمر» واحد يضرب المثل، ولا يتهاون في إنفاذـهـ، ويقتدي به الناس كلهم، رغبة ورهبة يقتدون بهـ، ويحاول كلـ منهمـ أن يجعل نفسهـ عمرـ آخرـ.

## من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

إن نفوس هذه الأمة معمورة بالخير، وإنما أضر بنا أن رُفعت في كنف العدو رايات للشر، انحاز إليها كل شرير، وأشفق منها كل خير، فازداد المسيئون إساءة، وضعفت نوازع الإحسان في نفوس المحسنين. فالليوم نريد أن نرفع في هذا البلد للخير رايات، ويهاب بما في الأمة من أخلاق؛ ليزداد المحسن إحساناً، ويكتف المسيء عن إساءته، فإذا الناس أ尤ون على الخير، أنصار له، فرحون به، مغتبطون سعداء.

ذلکم الجهاد الأكبر، الذي تضطلع به هذه الأمة الكريمة، وتهديها إليها حكومتها الرشيدة، مؤيدةً موفقةً مسددة، إن شاء الله.



# عقبة على شاطئ المحيط<sup>١</sup>

١

مَنِ الْقَوْمُ أَوْغَلُوا فِي الْبَيْدَاءِ يَجْوِبُونَ سِينَا، قَدْ أَغْذَوْا السَّيرَ وَأَقْلَوْا الْمَيْرَ<sup>٢</sup>؟  
مَنِ الْقَوْمُ تَسْبَحُ بِهِمُ الْجِمَالُ فِي لَجْجِ الرَّمَالِ، وَتَغْوِصُ مِنْهُمُ الْأَشْبَاحُ وَالظَّلَالُ فِي  
غُمَرَاتِ الْآلِ،<sup>٣</sup> تَرْفَعُهُمُ الْوَهَادُ إِلَى الْهَضَابِ، وَتَسْهِيلُ بِهِمُ الْهَضَابُ إِلَى الْوَهَادِ، لَا يَأْلُونَ  
تَأْوِيْبًا وَإِدْلَاجًا<sup>٤</sup>، وَلَا يَشْكُونَ نَصْبًا وَلَا كَلَالًا؟  
مَنِ الْقَوْمُ تَرْمِي عَزَائِمُهُمُ الْغَايَاتِ، وَتَطْوِي هَمْمُهُمُ الْمَسَافَاتِ، سِيَانٌ عِنْدَهُمُ الْبَعِيدُ  
وَالْقَرِيبُ، وَالْعَسِيرُ وَالْيَسِيرُ؟

مَنِ الْقَوْمُ تَضِيءُ بِالْإِيمَانِ قُلُوبَهُمْ، وَتَقْرُّ عَلَى الْيَقِينِ نُفُوسَهُمْ، حَدَّأُهُمُ الْقُرْآنُ،  
وَغَنَّأُهُمُ الْأَدَانُ، رَحَالُهُمُ الْمَعَابِدُ، وَمَنَازِلُهُمُ<sup>٥</sup> مَسَاجِدُ، قَدْ شَرَوْا لِلَّهِ أَنْفُسَهُمْ، وَأَرْخَصُوا  
فِي مَرْضَاتِهِ أَرْوَاحَهُمْ، وَرَضُوا بِمَا قَسَمَ لَهُمْ، وَقَدْ سَاهَرُوا الشَّمْسُ مُغْرِبِينَ، لَا تَحْوِيهِمُ  
الْبَلَادُ، وَلَا تَسْتَرِدُهُمُ الْأَوْطَانُ، كَأَنَّهُمْ نَجُومٌ فِي حُبِّ الْأَرْضِ، تَسِيرُ بِقَدْرٍ إِلَى قَدْرٍ.

<sup>١</sup> ٢٨ محرم سنة ١٣٥٥ / ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦.

<sup>٢</sup> المَيْرُ: الطَّعَامُ.

<sup>٣</sup> الْآلُ: السَّرَابُ.

<sup>٤</sup> التَّأْوِيْبُ: مَشِي النَّهَارَ كَلَهُ، وَالْإِدْلَاجُ: السَّيرُ مِنْ أَوْلِ اللَّيْلِ أَوْ آخِرِهِ.

<sup>٥</sup> مَنَازِلُ الطَّرِيقِ.

العرب المسلمين يقودهم عمرو، يتوجهون تلقاء مصر، رموا الباطل في جانب، وساروا إليه في جانب، وصرعواه في ميدان، وهُرعوا إلى ميدان. هدموا سلطان الروم في الشام، وصمدوا لسلطان الروم في مصر وإفريقيا.

بالأمس زحمو الصرح فانهار، ونفخوا زخرف قيسر فطار، وأشاروا إلى الصنم فسجد، وخَلَّ جبروته إلى الأبد. وضعوا سلطان هرقل، ورفعوا سلطان الله، وأقاموا الحرية في مصارع العبودية، وشادوا العدل على مقاتل الجور.

واليوم يتبعون الباطل المهزوم، ويشتردون الزور المزعوم. إنهم يؤمنون مصر، ومصر أكرم على الله من أن تكون مباءة الباطل، ومثوى الجبروت. إنهم يسرعون إلى مصر، فعفاء على الروم وسلطانهم. ويل للباطل يدمغه الحق، والظلم يزلزله العدل، والاستعباد تثور به الحرية، ويل للروم يسير إليهم العرب.

٢

أترى البحر المائج، واللجد الهائج، أترى السفن على الثيج<sup>٦</sup> راجفة، والجموع فوقها واجفة؟ أترى الموج يتلاطم، والسفين يتصادم، والجيوش ملتحمة، والخناجر والسيوف مختصمة؟ أترى جندًا يلوذون من حرّ الضراب إلى برد الماء، ومن ذل الإسار إلى عار الفرار، وجندًا ثبته اليقين فثبت، وأثر الموت على الحياة فظفر؟  
واعجبًا، قد أصبح فرسان الصحراء أبطال الدماء، وصار حُداة الإبل أمراء السفن، جاؤوا الكُتبان البيض إلى اللجد الخضر، فاتخذوا السفين جيادًا، والبحر مرادي. وهل الإبل إلا سُفن الصحراء، وهل السفن إلا أفراس الماء؟ ما استبدل هؤلاء إلا سفينة بسفينة، وفرسًا بفرس.

وإنها، على ذلك، لإحدى العبر: أبناء الباذية يناظلون الروم في الأساطيل، معاوية وابن أبي سرح يقاتلان قسطنطين بن هرقل وقد جاءهم في ستمائة سفينة تحمل جند الروم، وتاريخ الروم، وثارات الروم! وأعجب العجب أن يغلب الأسطول الرضيع الأسطول الكهل، وأن يغلب ابن أبي سفيان ابن هرقل، وأن يغلب العرب الروم في بحر الروم.<sup>٧</sup>

<sup>٦</sup> أعلى الموج ووسطه.

<sup>٧</sup> إشارة إلى موقعة السواري سنة ٣١ هـ.

ما جزيرة العرب وفارس والشام ومصر، وما الهند والصين، والشرق والمغرب في همة هذه الشمس الوهاجة، وعزيمة تلك الكواكب السيارة؟ قد استقر سلطان القوم في مصر فلم يقنعوا،وها هم قد غزوا برقة ورجعوا، أتحسب الأمد طاول عليهم، والشقة بعده بهم، فملوا أو خاروا؟

تلبّث قليلاً ثم انظر جيش العادلة<sup>٨</sup> يزحف إلى إفريقيا، فيظفر ثم يصلح، وما وراء الحرب والسلم إلا المسير لإعلاء كلمة الله، وبلوغ الغاية مما أرادوا في سبيل الله. ويقف القوم سنين، وما هو إلا الجمام للمسير، والتحفز للوثوب، والإعداد للجهاد، والتريث للتثبت، وعما قليل يطعون المغرب، لا تعوقهم الفيافي المتaramية، ولا تصدهم الجيوش الجرارة. تنظر الغد، فما بلغ القوم الأمل الموعود، ولا قاربوا الغاية المقدورة.

عشرة آلاف تطوي الأوطان والقطان في سبيلها، وتطأ الأموال والأبطال إلى غايتها! عشرة آلاف، وفي الناس واحد كألف.

تجمعت في فؤاده هم ملء فؤاد الزمان إحداها

عشرة آلاف قائدتهم عقبة بن نافع، عزموا ألا ينتنوا، وصمموا ألا يهزموا، وألوا ألا يرجعوا ما اتسع الفتح لعزائمهم، وامتدت الأرض لأقدامهم. ها هو ذا عقبة يبني مدينة القironان، فعل الغازي المعمر، والفاتح المقيم، وسيجعلها مبدأ السير، وأول الفتح، وكأنهم ما قطعوا المهامه إليها، ولا ساروا عن ديارهم قبلها.

في كل فج عزمهم سيار  
إلى الونغى تهافتوا وطاروا

<sup>٨</sup> جيش غزا إفريقيا وفيه العادلة أبناء أبي بكر وعمر وعمرو والزبير، وأبو ذؤيب الشاعر.

جماعة ليس لهم ديار  
إلا ظهور الخيل والغبار

أرض الله، وعباد الله: أينما توجهوا فهي أرضهم، وحيثما حلوا فهي ديارهم، لا بعد  
عندهم ولا قرب، ولا شرق ولا غرب ﴿وَلِلّٰهِ الْمُشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُولُوا فَتْمَ وَجْهَ اللّٰهِ﴾.  
ولكن عشرات الآلوف من الروم والإفريقيين قد ساروا إليهم. لقد أعد الروم لهم  
وأنذروا أن يحطمونهم، فوا رحمته للأنجاد القليلين، والغرباء النازحين!  
كلا، لا خوف ولا حزن، ولا قلة ولا كثرة، انظرهم يديرونها على عدوهم حرباً  
طاحنة، ويُلْجئون الروم وأعوانهم من لظى النار إلى سلاسل الإسار، انظر إلى آلوف من  
الروم مُصَدَّفين.  
أترى الكثرة أغنت، أم ترى القلة قلت؟ ذلك آخر عهد الروم بإفريقية.

٥

أين الجنود البواسل والعباد الغزاة، والبداء الذي خرجوا ينشدون الحق، ويردون  
الجبارين إلى العدل؟ إنهم ليسوا في برقة ولا إفريقية، ها هم أولاء في أقصى المغرب، هم  
اليوم في طنجة، بل هم في السوس، لقد انتهوا إلى الساحل، لقد انتهت الأرض! وأسفًا  
للجواد المتمطر لا يجد مجالاً، والعزم المحضر لا يجد مضطرباً. قد بلغوا البحر فكيف  
المسير؟ وفتحوا ما بين المدينة المنورة وبحر الظلمات، فأنني الفتاح؟  
انظر عقبة تضيق بعزم الأرض، وتصغر في عينه الأقطار، فيدفع جواده في البحر  
ويصبح:

والله لو علمت وراءه أرضًا لسرت غازياً في سبيل الله.<sup>٩</sup>

<sup>٩</sup> روى بعض المؤرخين أن عقبة فعل هذا حينما بلغ شاطئ المحيط الأطلسي.

# وحي القلم<sup>١</sup>

﴿اَقْرَأْ وَرَبُّ الْكُرْمُ \* الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمِ \* عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾

## ١

أنا معجب بالرافعي منذ قرأت له، وأحذر أن يغطي الإعجاب على بصري، وتكل عين الرضا عن العيوب، وقد اتھمت نفسي لتكافئ التهمة الإعجاب، ويعادل الحب الارتياب. الرافعي نسيج وحده، تقرأ له فتشعر أنك في اختراعه وتصوирه وبيانه وتفكيره، لا يذكر بأحد، ولا يذكر به أحد. وحسب الكاتب أن يكون كوناً مستقلًا يست memiliki الضمير، ويبعد في التصوير. وكثير من الكتاب قوالب تختلف أحجامها وأشكالها، ولكنها صور مستعارة لا تفتأ تستعير مادة عملها.

بين شعراء الفرس شاعر تسمى «خلق المعاني»، والرافعي في وحي القلم جدير بهذا اللقب. وما أعنـرـ الخـلـقـ هـنـاـ، وما أصـعـبـ الإـبـدـاعـ! يـعـدـ إـلـىـ الحـدـثـ الصـغـيرـ ذـيـ المعـنىـ المـحـدـودـ، فيـحـطـمـ حدـودـهـ، ويـصـلـهـ بـالـبـشـرـيةـ كـلـهاـ، أوـ يـشـيـعـهـ فيـ العـالـمـ كـلـهـ، ويـصـورـهـ صـورـاـ تـقـىـ الـقـارـئـ بـجـدـتـهاـ وـرـوعـتـهاـ، وـالـكـاتـبـ الـلـهـمـ يـرـىـ الـخـلـيقـةـ أـسـبـابـاـ مـتـصـلـةـ، وـمـعـانـيـ مـتـجـاذـبـةـ، وـصـورـاـ مـتـجـاذـبـةـ، فـمـاـ يـبـصـرـ ذـرـةـ إـلـاـ رـأـىـ وـرـاءـهـاـ الـفـلـكـ، وـلـاـ يـقـابـلـ

---

<sup>١</sup> ١٢ من ذي القعدة سنة ١٩٣٧ / ٢٥ يناير سنة ١٩٥٥ كتب حينما أخرج المرحوم مصطفى صادق الرافعي كتابه «وحي القلم».

شعاعاً إلا جذبه إلى الشمس، وكأن كل شيء في الوجود عين تطل على العالم غير المحدود، تنتال عليه الفكر، وتتراءم أمامه الصور؛ فيكون همه أن يشق طريقه بين المعاني المتزاحمة، ويجد سبيله بين الطرق المتشعبه، وأن يطرد المعاني التي لا يريدها عن المعاني التي يقصدها، فهو من الخصب في نصب؛ نصب الكاتب المقلد من الإجداب والإجلال.

العالم أمام الرافعي كتاب مفتوح، يدرك فيه جمال الحروف، وحسن السطور، ثم ينفذ إلى ما لا ينتهي من المعاني. وما يزال يعرض المعنى الواحد في صور رائعة، حتى يدع القارئ معجباً حيران، قد اجتمعت على القراءة خفات قلبه، ونظرات عينه، وأسأرير وجهه، فلو أن الرافعي صور هذه الخفات، وبَيَّنَ هذه النظارات والقسمات؛ لاسترد البيان الذي أفاضه على قارئه.

والرافعي يُغرب أحياناً، أو يدق فينبهم معناه. وفي هذا ثورة بعض الأدباء عليه، ولكن الذي آمن بقدرته فيما وضح واستبان من كلامه يؤمن أنه حين يغمض يتحيل لمعنى دقيق خفي لم ترضه الألفاظ، ولم ينزله الكتاب، أو يتلطف لفكر نفور آبد ليختله. وكثيراً ما يخيل إلى وأنا أقرأ آيات الرافعي، أني أتبع بصرى طائراً يرتفع في اللوح، ثم يرتفع حتى تضمره السحب فلا تراه العين، ولكنها تعرف أنه في جو السماء، فإن قيل: إن هذا حكم الإعجاب والرضا قلت: فإني أتهم نفسي فلا أدفع عن هذه الأوابد، ولكن وحي القلم بريء من الغموض والانبهام، وإنما أكتب اليوم عن وحي القلم.

٢

هذا الكاتب النابغة نَزَّاعُ إلى الجمال، طَمَّاحُ إلى الفضيلة، مولع بكل خلق كريم، فلا يعالج أمراً إلا حَلَّقَ به إلى الجمال، والرأفة، والرحمة، والإحسان، والحرية، والإقدام، وهلم جراً. وقلبه فياض بالإيمان والطهر، فإذا كتب في الدين وما يتصل به ارتقى إلى حيث تنقطع المطامع. أقرأ مقاله: «سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم». إنها تملاً القارئ إعجاًباً، وتسمو به حتى يحسب نفسه ملگاً محلقاً يرى مآثم الناس ومصائبهم من حيث لا تتعلق به ولا تستهويه، ولا يُوفِّقُ لهذا البيان إلا مسلم ملهم كالرافعي، يكتب فيحقيقة علوية كالنفس الحمدية، ثم أقرأ في مقاله: «الله أكبر» وصف المسجد ونشيد الملائكة. لقد قرأتُ فكانت تنبئ التكبير من قراره نفسي، فأمسكها مؤثراً الاستماع إلى هذا التكبير

الذي يدوي به المسجد، فلما انتهى المقال لم أملك أن رفعت صوتي بأخر كلمة منه: «الله أكبر».

هذه النزعات العلوية، والسمو الروحي يتجلّى في مقالاته: الإشراق الإلهي، فلسفة الإسلام، حقيقة المسلم، وحي الهجرة، فوق الآدمية، درس من النبوة، شهر للثورة، ثبات الأخلاق.

والرافعي كاتب الإسلام والعروبة يتناول الحديث الصغير في تاريخ الإسلام وما ثر في العرب، فيجعله عنوان فصل بلية من الحكمه والمعوظة، يسايره فيه القارئ متعجباً: كيف ولدت الواقعه الصغيرة هذه المعاني التي تحاول أن تكون تاريخ جيل. اقرأ «زوجة إمام» و«السمكة»، واقرأ «يا شباب العرب»، و«يأيها المسلمين».

وهذا الكاتب السماوي أربع الناس تحليقاً بالحب الظاهر، وأعظمهم ترقعاً به، وأبصراً بالمهاوي والمهالك التي يخلق عنها هذا الحب العلي الأبي. نظرة إلى السماء تصف العلاء والمضاء والطهر والسمو الروحي الذي لا يحد، ونظرة إلى الأرض تصف السقوط الحيواني والهوى الشيطاني، فترى القارئ مدعواً إلى السماء، ومطروداً عن الأرض، طائراً إلى الخير، نافراً عن الشر.

إذا وصف صاحبنا الجمال بـ<sup>ث</sup> في العالم معانٍ، ونفض عليه ألوانه، فكانما خلق العالم خلقاً جديداً: يخلق من الشعاع شمساً، ومن القطرة نهراً، ومن الوردة حديقة، ثم يفرد فلا يدرك: أهذا التغريد تفسير هذا الجمال، أم هذا الجمال تصوير هذا التغريد، ولا يدرى القارئ: أهو في ربيع باهر، أم في بيان ساحر؟ وما أشبه قلمه وهو يشقق المنظر الغفل عن سرائر الجمال بإبرة الحاكية تسلط على الصفحة الجامدة السوداء، فتردها كلاماً وأنغاماً وألحاناً. اقرأ «عرش الورد» تر كيف جعل ابنته على عرشها مركزاً يحيط بها الجمال فلگاً دائراً.

٣

ولله مصطفى حين يتغلغل في الجماعات، فيحس آلامها ويصف أسمامها، ويعرب عما في ضمائير البائسين، وعما في رعوس المتكبرين! ولا يزال بالمعنى الذي يراه الناس جماداً يقدحه حتى يخرج منه النار والنور. يأخذ الحادثة الصغيرة يُنطّقها بما وراءها، ويكشفها بما انطوت عليه، حتى يقيم بها للإنسانية عرساً أو مائماً. اقرأ «أحلام الشارع» تسمع أنات البشرية، وتترّ عبراتها، وتلمس مصائبها مصورة ملونة بدم المهج،

وماء العيون، ونار الزفرات، وحز الحسرات، وواد الفاقه والذلة، ثم تسمع لغة الإنسانية على لسان ما سنت من قوانين.

والعجب أنك كلما أسال الحزن عبراتك طبع البيان الساحر على شفتيك بسمة إعجاب لا تملك نفيها. اقرأ «عربة اللقطاء» تر أنه صاغ من أساريرهم حروفاً للهجاء تسع كل معنى، وتمثل الآثام التي ولدت هؤلاء، والمصائب التي يحملها هؤلاء، والمفاسد التي سيلدها هؤلاء، وتقرأ «لحوم البحر» فتستمع إلى الشيطان والملك كل ينشد أناشيده، ويستخرج الرافعي منها دعوة إلى الفضيلة، ولعنة للرزيلة، وهو قادر على تسخير الشيطان لبيانه؛ فقد أعطى في البيان ملك سليمان.

وإذا وعظ «الصادق» نفذ إلى السرائر، وصور للإنسان فضائله ورذائله تصويراً لا يدع له أن يختار إلا الأولى، وأن يهجر إلا الثانية. وهو لا يعمد إلى النذر يصيّها على النفس صب السياط، يالم لها الجسم، ويموت القلب، بل يعمد إلى الحياة يصورها على حقائقها، نافياً عنها تلبيس إبليس، وإلى القلب ينفح فيه العظمة، ويبث فيه الفضيلة والطهارة، والطموح إلى كل خير، والنفور من كل شر. اقرأ له «وحى القبور».

٤

وهذه المقاصد الجليلة، والنزعات السامية تختالطها دعاية رقيقة وسخرية نافذة، ترى الكاتب يرتفع فوق العالم، ثم يسخر مما عبد الناس من أباطيل وأهواء، فإذا التمايل التي يسجدون لها تهاوיל، وإذا الهول الذي يفزعون منه تهويل، وإذا العظمة والكرياء والسلطان والجاه والغني وكل ما عدّه الاجتماع عظمة لقوم وحقارة لآخرين أضافيك يخلقها الجهل، ويهدمها العقل، ويقدسها الإنسان حيواناً، ويحطّمها الإنسان إنساناً. وأعود بالله من الرافعي إذا انطلق ساخراً، يرسل بيانه طعنات دراكاً وهو يضحك ضحك البرق في السحاب الراعد، أو لمع السيف في يد الضارب.

وبعد، فهذا وصف الروض في كلمات لو كانت أزهاراً ما مثّله، ونعت البحر في سطور لو كانت أمواجاً ما صورته، فأما الروض في بهجة جماله، والبحر في روعة جلاله، فهُما ما خطه الرافعي، فإن شئت فقل: جنات في صفحات، وعياب في كتاب، وإن شئت فقل: إنه العالم في سطور قد انتظم، ووحى إلهي سماه الرافعي «وحى القلم». ذلك الفضل من الله.

# المثنى بن حارثة<sup>١</sup>

على ذكر «نادي المثنى» ببغداد

## ١

كانت قبائل ربيعة ضاربة شرقىًّا نجد، موغلة إلى الشمال حتى أعلى الفرات، وكانت الواقئع تثور بينهم وبين الفرس في الحين بعد الحين، فكانوا أجرأ العرب على فارس، وكان العرب يسمون فارس «الأسد»، فسموا ربيعة: «ربيعة الأسد».

وكان بنو شيبان من هامات ربيعة في الجاهلية، وهم كانوا أبطال «ذي قار»، وامتد بهم المجد في الإسلام، فكان منهم بيوتات لها في الحرب والمكارم ما ثر، يقول أبو تمام:

درجن فلم يوجد لمكرمة عقب  
وحيد من الأشباء ليس له صحب  
به أعربت عن ذات أنفسها العرب  
لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب

أولاًك بنو الإفضل لولا فعالهم  
لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد  
به علمت صهب الأعاجم أنه  
هو المشهد الفرد الذي ما نجا به

وقد امتدت أحقاد ذي قار بين الفرس وبني شيبان خاصة، وقبائل بكر عامة، حتى كان بنو شيبان طلائع الفتح الإسلامي في العراق.

لما عمَّ الإسلام الجزيرة وتتوطَّد سلطانه سمع أبو بكر بوقائع سيد من شيبان في سواد العراق فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟

قال قيس بن عاصم المنكري: «هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العمام، هذا المثنى، هذا المثنى بن حارثة الشيباني».

ثم قدم المثنى على أبي بكر يسأل الله أن يؤمِّرْه على قومه، ففعل، وكان المثنى من قبل على قومه أميرًا، وبقي من بعد أميرًا يستعينه أمراء المسلمين إذا حضروا، ويستخلفونه إذا غابوا، حتى مات بين مأثر مشكورة، ومناقب محمودة، وقد صدق عمر حين سماه «مؤمِّرْ نفسه».

ولما اشتدت الحرب في العراق، بعث المثنى أخاه مسعوداً إلى الخليفة يستمدده، فأرسل خالد بن الوليد إلى العراق، فلما نزل خالد النجاج، كتب إلى المثنى وهو معسکر بخفاف ليأتيه، وبعث إليه بكتاب من أبي بكر يأمره بطاعته، قال الطبرى: «فانقضَ إلَيْهِ جُواهِدَ حَتَّى لَحِقَ بِهِ». فانظر إلى الرجلة كيف تسارع إلى الطاعة.

ولما توجه خالد إلى الشام، استبد المثنى بإمرة العراق، وكان بطل موقعة بابل، وفيها قتل الفيل الذي أفزع خيل المسلمين.

قال الفرزدق يعدد بيوتات بكر:

وبيت المثنى قاتل الفيل عنوة ببابل إذ في فارس مُلُكُ بابل

ثم سار المثنى إلى أبي بكر ليخبره بجلية الأمر في العراق، فواهه مريضاً قد أشفى، فأوصى أبو بكر عمر، قال: «فإن أنا متُ فلا تُمسين حتى تندب الناس مع المثنى». سار الناس إلى العراق وأميرهم أبو عبيد الثقفي، فلما كانت موقعة الجسر التي زلزل فيها المسلمون، وقطع جسر الفرات وراءهم، فتهاقتو في الماء، وقف المثنى في أنجاد من العرب ينادي: «أيها الناس، إنا دونكم، فاعبروا على هينتكم، ولا تذهبوا، فإننا لن نزايِل حتى نراكُم في ذلك الجانب».

وحمى المثنى الناس حتى عبروا، ثم خلق المثنى من الفلول المهزومة يوم الجسر نصراً باهراً في موقعة البوبيب، برأيه وسياسته وشجاعته، واحتسب فيها أخاه مسعوداً،

ثم تكاثر الفرس عليه، فكتب إلى عمر، فأمره أن يتنحى الناس حتى يأتيه أمره، ثم أرسل عمر سعد بن أبي وقاص في حشد عظيم، وانحاز المثنى إلى ذي قار، وقدم سعد إلى زرود ينتظر المثنى، ولكن الأسد المرزاً، والمسعر المجرب، انتفضت به جراحات يوم الجسر، فبينما سعد يرجو مقدمه جاءته وصيته تحملها امرأته سلمى وأخوه المعنى.

عمل سعد بوصية المثنى، وأمر أخاه المعنى مكانه، ثم تزوج سلمى، وقد شهدت وقعة القادسية، فلما حمى الوطيس، واستكلب الموت على الأبطال، نظرت فلم تجد المثنى يقدم الأنجاد، ويقود الجنادل، فصاحت: «وا مثنادا ولا مثنى اليوم للخييل».

مات المثنى، وشهد له التاريخ أنه «كان شهماً شجاعاً ميمون النقيبة، حسن الرأي، أبلى في حروب العراق بلاءً لم يبله أحد».

٣

فيما شباب بغداد الذين أنشئوا نادي المثنى ليحيوا ذكره، اذكروا فيه الرجولة الكاملة، والشجاعة البالغة، والمجد والسؤدد، والعمل المخلد، اذكروه قائداً مقداماً، وأميرًا حازماً، وسيدياً مطاعاً، وجندياً مطيناً، اذكروه حراً أبياً، ومثلاً عربياً، وخلقاً علياً، واستمدوا من ذكره وذكري أمثاله أخلاقاً صلبة، تقيمكم رخاوة الحضارة، وعزيمة ماضية ترفعكم عن ذل الرفاهية، وتقتسم بكم الأهوال إلى الغاية البعيدة والأمل العظيم.

ثم اذكروا أن المثنى فتح العراق جندياً مسلماً، فاذكروا الإسلام ومجلده، واعتصموا بأخلاقه، واستمسكوا بمعاليه، وسيروا قدماً في عزة العربية، وهداية الإسلام، وأنتم الأعلون والله معكم.



## ملكة الجمال<sup>١</sup>

لالأقلام محن تقضي عليها أن تُسفَّر إلى ما لا تود الكتابة فيه، وأن تنزل إلى ما ت يريد الترفع عنه، وقلمي مكره على الكتابة في هذه الحماقات، مرغم على أن يعني بهذه الترَّهات.

### ١

كنت أحاديث جماعة من الأصدقاء فسارت بنا شجون الحديث إلى أن تكلمنا في المدينة الحاضرة، حسنها وقبحها، وجليها وسفافها، قلت: أحسب أن المسيطرین على أخلاق الناس في كثير من المناحي المعيشية الحاضرة جماعة من التجار المفسدين، قال صديق: كيف ذلك؟ قلت: في طبع الإنسان الكلف باللذات، والاستهتار بالشهوات، وقد سار العالم آلاف السنين على هدى التجاريب، وتعليم الأنبياء والحكماء، يزن آلامه ولذاته، ويعدل بين مصالحه وشهواته، ويضع شرائع، ويحسن سننًا؛ ليعيش الإنسان على شريعة تعرف وتذكر، وتستحسن وتستقيح، وتقول: هذا حلال وهذا حرام، حتى استقامت للإنسان خطة في سياسة نفسه ومعاملة الناس، وصار يجاهد نفسه ليمنعها لذاتها، علمًا بأن وراء اللذة العاجلة شرًّا أعظم منها، ويصبر نفسه على ما يكره إيثارًا للعافية في العقبى، واستمساكًا بالفضيلة التي سكن إليها، ومكتتها من نفسه سيرة الآباء.

قال صديقي: هذا حق فيما وراءه؟ قلت: أرى العصر الحاضر مفتونًا كل الفتنة بالأهواء، مستكلاً على الشهوات، قد فتحت له من الملاهي أبواب، ومدت له إلى الغي

أسباب، فشغلت من الحياة جانبًا هذه الملاهي والمرقصات والحانات، ورأى كثير من الناس هذه الدور مجلاة ريح عظيم، ووسيلة مال وفي، فأقبلوا عليها إقبالاً، وافتتوا فيها افتاناً، واستعنوا على تزيينها، وجلب الناس إليها بكل ما أنتجت الحضارة من علم وفن، ولم يدعوا حيلة في الاستهواه إلا اتخذوها، ولا وسيلة إلى تهافت الناس عليها إلا توسلوا بها، يفتُنُ كلُّ فيما يَعْرِضُ، وتؤدي المنافسة والطمع في المال إلى استباحة المحظورات، فينكر الناس أول الأمر، ثم يسكنون، ويخدعون أنفسهم فيما يرون، لما تصبو إليه غرائزهم، وتغرن به شهواتهم، حتى يصير هذا أمراً معروفاً، وعملاً مألوفاً.

ثم يحدو أصحاب الملاهي حب الربح والمنافسة إلى أن يثيروا شهوات الناس بأفانين أخرى، وهلم جراً، لا يصدّهم وازع من فضيلة أو عرف. وعبئاً يحاول القانون أن يصد التيار، أو يقيم الجرف المنهاج.

وهكذا تقاد الأمم بأذنابها، وتأتم بضلالها، وقس يا صاحبي أزياء النساء، فتنافس التجار فيها هو الذي يطيelaها ويقتصرها، ويطلع كل يوم ببدعة تبين لها دق من المرأة وجل، وما ظهر وما بطن. ولست أجد بدأ من ذكر الحقيقة «العارية»، وهي أن النساء الخليعات هن القدوة في هذه السبيل، يلبسن ما يلفت النظر إليهن، ويُمْيِّزُهُنَّ من غيرهن، فيريق النساء الآخر هذا الزي. والمرأة لا تحب أن تُغلب في زينتها وتجملها، فيصير هذا الخروج على السنن سنة مألوفة، وطراقة «مودة» معروفة. وكل ما ترى في ألبسة البحر من تغير مستمر غايتها أن تبرز المرأة العارية متزيينة، فهذه سبيله، تبدأ به الخليعات الجريئات، فتهافت عليه الآخريات.

٢

ووراء هذه جماعة من تجار الكُتُب والجهلة المفسدين، ي يريدون أن ينالوا رغائبهم بشريعة، ويفسدو في الأرض على علم، فيكتذبون على الجمال والفن والحرية ما شاءت مآربهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويسمون الرذائل بغير أسمائها؛ فالفسق إعجاب بالجمال، وكل خليعة فنانة، وكل خليع أستاذ، ويتنافس أصحاب المجلات في كتابة ما تحبه الشهوات، وعرض الصور التي يهفو إليها الشبان، لا يبالون في سبيل المال أن تصلح الأمة أو تقسد، وتقدّم أو تقعّد، وتعمل التجارة عملها، حتى تجد الرجل الحريص على الفضيلة، الداعي إليها، إذا ابتهي بمجلة أغضى عن مفاسدها، فصار له رأي في نفسه، وفي غير مجلته، وعمل آخر تجاري في المجلة.

وقد عجبت لبعض الكتاب المعروفين بالغيرة على الأخلاق، والتنديد بالخلاعة والمجون، وبدع العصر الحاضر، إذ رأيت المجلة التي يشرف عليها تنشر من الصور والكلام ما لا يلائم آراءه، ويواافق موالعنه.

٣

قال صديقي، والشيء بالشيء يذكر: وملكات الجمال ما ترى فيهن؟ لقد سرت البدعة إلينا، قلت: استمع؛ كنت في الصيف الماضي ذاهباً إلى إيران، فعرجت على لبنان أياماً، وبينما أنا في «ظهور الشوير» رأيت الناس يزدحمن ويسقطون إلى بعض الفنادق، وسمعت أن هذه الجموع وتلك الوفود تتراحم لتشهد اختيار ملكة الجمال في لبنان، قال رفيق لي: قد سرت العدوى إلى البلاد العربية، فقلت غاضبًا: كلا، قال: ألسنت ترى وتسمع؟ قلت: لا أكذبك، لست أرى في هذه الأزياء ولا أسمع في هذه الرطانات عروبة، فلا تعد هؤلاء من العرب، وأرضيت نفسي بهذا الإنكار.

وقرأت منذ أيام أن ناساً اجتمعوا في «حمانا» من لبنان لاختيار امرأة يسمونها ملكة الجمال، وأن قنصل مصر ببيروت رأس هذا الجمع، فأسفت أن شغل القنصل الفاضل نفسه بهذه التَّرهات، وشارك في هذه المخازي.

وقرأت عن انتخاب آخر في «بكفيا»، وحمدت الله إذ لم أجده في هذه كله اسمًا يدل على عربية أو إسلام.

وقرأت من بعد في الجرائد عن حماقات كهذه في الإسكندرية، فرأيت الداعين إليها بين صاحب ملهي يريد أن يجذب الناس إليه، وصاحب جريدة غير عربية يبغي رواج جريeditه، وأمثال هذين. وبعد قليل رأيت صورة الملكة، وقرأت أحاديث عنها، فعلمت أن فتاة سماها بعض الناس ملكة الجمال في مصر، ولقبوها مس إيجيبت Miss Egypt. ورشحوها للذهاب إلى بروكسل لمشاركة في مبارزة الجمال، قلت: مس إيجيبت لا تعرفها مصر، فما اهتمامك بجماعة من الحمقى أرادوا أن يشهروا فتاة، أو يشُهِّروا بها، أو يتملقوها إليها، أو ينالوا مالاً، أو يجاروا ساداتهم في أوروبا.

ثم تذكرت ما سطرت في أول هذا المقال، تذكرت أن زمام الأخلاق في هذا العصر بأيدي هذه الفئات وأشباهها، وأن هذا الذي نستذكره اليوم سيصبح إذا سكتنا عليه عادة تُعدُّ المحاجلة فيها ضرباً من الأفن، وفكرت أن مس إيجيبت هذه ستذهب إلى أوروبا باسم مصر، وتشارك في سوق الرقيق هناك، وتبوء مصر بكل ما في ذلك من عار وحمة، فرأيت

أن الأمر جدير بالاهتمام، وأنه إن سكت عنه عقلاً الأمة صار سُنة، وظن المفسدون كما تسول لهم مآربهم أنها سُنة حسنة، ينبغي ألا تُحرمها مدينة أو قرية. وقد وفدت على مصر من قبل ملكة الجمال في تركيا، فلم يستحب بعض الوقحين من طلبة الجامعة أن يقتربوا الاحتفال بها في نادي الجامعة.

من مبلغ عنا هذه الفتاة، أنا لا نعرفها ولا نعرف جمالها ولا ملكها، وأن القحة البليغة أن تذهب إلى أوروبا مدعية أن مصر أرسلتها، ومصر بريئة منها ومن يرسلونها، ليت شعرى أَرْضِيَ المصريون — الحكومة والأمة — بهذه السبّة؟ هل رضوا أن تنوب عنهم على رغم أنوفهم فتاة تذهب إلى بروكسل زاعمة أن مصر أرسلتها؟  
كنت أحسب أن موقف مصر الحاضر بين دولة مستبعدة ودولة مهددة، سيخرج بطلاً أو بطلة، تهيب بالمصريين ليغسلوا العار، ويحموا الديار، أو يرسلوا وفداً يدافع عن حقوق مصر عند عصبة الأمم، فإذا السفهاء في شغل عما يحيط بهم باختيار امرأة يرسلونها إلى بروكسل.

وقد أجاب أهل دمشق داعي العروبة والكرامة والفضيلة، فاجتمعوا حين سمعوا أن امرأة ستذهب إلى سوق الرقيق باسم سوريا، واستنكروا ذلك، وأجمعوا على مطالبة الحكومة بأخذ الطريق على هذه السُّنة السيئة، فأجابت الحكومة دعوة العقلاء، ومنعت اجتماع السفهاء لاختيار ملكة للجمال، وفي ذلك للمصريين وغيرهم أسوة حسنة.

سيقول السفهاء: جماعة لا يعرفون الجمال، ولا يقدرونها، ولا يميزون الحسن من القبيح، فهم ساخطون ثائرون، أو جماعة لم يفهموا حضارة أوروبا، فهم جهله متغصبون. والله يعلم أن الجمال يعبد قلوبنا، ويملك مشاعرنا، وتهفو إليه أفئتنا حيثما تجلّى في السماء أو في الأرض، ولكننا لا نعرف الجمال في الأسواق، يصفق حوله الفساق، ولا نعرف الجمال تُسأل فيه الآراء، وتعرض فيه المرأة كما تعرض العجماء!

## المعتصم بن صِمادح<sup>١</sup> على فراش الموت

الأندلس في أمر مريج، زال عنها سلطان الخلافة فاضطربت، وفقدت رواسيها من بني أمية فماتت، وأصبحت كرقة الشطرنج يتغالب الملوك على كل بيت فيها، كل قوي يحوز ما وسع حوله وهمته، والعيش غلاب، «والبر أوسع والدنيا لمن غلبا». في هذا المعرك ملك محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي مدينة «وشقة»، وملك عمه مدينة «سرقسطة»، ثم غلوه على مدینته.

ثم ملك ابنه معين بن محمد مدينة «المرية»، غصبتها من عبد العزيز بن أبي عامر، وخلفه ابنه أبو يحيى المعتصم بالله وهو في سن الرابعة عشرة.

نشأ المعتصم في ملك ضيق الرقعة، فاستعراض منه سعة الخلق، وبعد الهمة، وحلية العلم والأدب، والساخاء الشامل، والجود العم، حتى طاول المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه، وحتى قال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حينما لقيهما بالأندلس: «هذان رجالاً هذه الجزيرة».

قال ابن خلkan:

وكان رحب الفناء، جزيل العطاء، حلِّيماً عن الدماء، طافت به الآمال، واتسع في مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء.

<sup>١</sup> يناير سنة ١٩٣٤ / شوال سنة ١٢٥٢.

وقال الفتح بن خاقان:

ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها،  
وأوضح رسماها، وأثبتت في جبين أيامه وسمها، لم تخل أيامه من مناظرة ولا  
عمرت إلا بمحاكمة أو محاضرة.

وكانت دولته مشرعاً للكرم، ومطلاً للهمم، فلاحت بها شموس، وارتاحت فيها  
نفوس، ونفت فيها أقلام الأعلام، وتذقت بحار الكلام، وكإجادة ابن عمار وإبداعه في  
قوله معذراً من وداعه:

أمعتصماً بالله وال Herb ترتمي  
دعنتني المطايلا للرحيل وإنني  
لأفرق من ذكر النوى والتفرق  
جبينك شمسي والمريعة مشرقي

وكان المعتصم كالمعتمد بن عباد شاعراً مجيداً، كتب إلى الوزير الشاعر ابن عمار:

وزهدني في الناس معرفتي بهم  
وطول اختباري صاحباً بعد صاحب  
مباديء إلا ساءني في العواقب  
من الدهر إلا كان إحدى المصائب

طوى الأمير أربعين عاماً في إمارته، شاع فيها ذكره، ونبه اسمه، وحلب الدهر  
أشطره، وخبر أحداثه وعبره، ثم حمَّ القضاء.

بعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تثل عروشهم، وتعفي على آثارهم،  
ولقى «رجل الجزيرة» الصدمات الأولى، فدارت على المعتمد الدائرات، فإذا هو أسير  
أغمات. وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات.

وعلم ابن صمادح بما أصاب صاحبه، فملكه الغم، وناء به الحزن. وكان أسعد  
من صاحبه جداً؛ نجاه الموت من الإسار، وأنقذه الحمام من المذلة والعار، ورحم الله أبا  
الطيب: «رب عيش أخف منه الحمام».

يقول ابن بسام: وكان بين المعتصم وبين الله سريرة، أسلفت له عند الحمام يداً  
مشكورة، فمات وليس بيده وبين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة، في سلطانه وبليده،  
وبين أهله وولده.

## المعتصم بن صِمادح على فراش الموت

دع ما نمق الكتاب، وأنشد الشعراء، ودع أربعين عاماً طواها الزمان كأنها أحلام،  
وانظر المعتصم ليلة الخميس لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين  
وأربعمائة؛ الليلة التي طلع عليه بالردي فجرها.  
ها هو ذا على فراش الموت في قصره بالمرية، ومعسكل ابن تاشفين على مقربة من  
المدينة تُرى خيامه، ويُسمع ضوضاؤه.  
ويُسمع المعتصم وجبة من الجيش للجب، والجند المصطخب، فيقول كأن لم ينعم  
بالملاك والجاه أربعين عاماً:

لا إله إلا الله، نغص علينا كل شيء حتى الموت.

وقالت أروى، إحدى جواريه:

فدمعت عيني، فلا أنسى طرفاً إلى يرفعه، وإن شاده لي بصوت لا أكاد أسمعه:

ترفق بدمبك لا تفنه      فيبين يديك بكاء طويل



# عثمان بن أبي العلاء

الرجل الذي غزا الأسبان اثنتين وثلاثين وسبعمائة غزوة

١

ملكبني مرين يعمُّ المغرب الأقصى، ويرث دولة الموحدين، وهذا سلطانهم السادس يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (٦٨٥-٦٧٠هـ) يُسیر الجحافل لتمكين ملكه، ولكن جماعة منبني مرين حسدوه ببني عمومتهم على السلطان، ونفوسوا عليهم الرياسة، وزعموا أنهم أحق منهم بميراث عبد الحق، فثاروا على السلطان يوسف، واعتصموا بجبل ورغة، فأنزلهم السلطان من صياصيهم، وألهمهم السيف، فأشفق أعياصبني مرين على أنفسهم، ولحقوا ببني الأحمر بالأندلس سنة ست وثمانين وستمائة.

ثم رجع إلى المغرب بعد سنتين أحدهم، عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق؛ ليزارعبني عمه السلطان، فثار في جبال غمارة، فاشتملت عليها ناره، واستطارت منها ثورته، فعمت بلاً كثيرة، ولجا إليه كل مخالف منبني مرين وغيرهم، ومات يوسف وعثمان في ثورته، فخلفه ابنه أبو ثابت (٧٠٦-٧٠٨هـ) فسیر الجحافل إلى عثمان، فهزمهم ومد على رغم أبي ثابت سلطانه إلى بلاد أخرى، فنهض أبو ثابت نفسه في جنود لا قبل لعثمان بها، فخلى البلاد واعتصم بسبعة وهي يومئذ في قبضةبني الأحمر.

ومات أبو ثابت، فخلفه أخوه الربيع سنة ثمان وسبعين، واصطلح بنو مرين وبنو الأحمر، فضاق المغرب على عثمان بن أبي العلاء، فول وجهه شطر الأندلس فيمن تبعه من قرابته.

٢

لم يكن للمسلمين في الأندلس إلا مملكة غرنطة الضيقية، وقد أحج العدو عليها، وصمم على محوها. واستمات في الدفاع عنها المسلمين؛ إذ كانت الملاجأ الأخير، والوزر الذي ليس وراءه إلا الموت أو الاستعباد. وكان بنو مرين يرسلون جيوشهم مددًا لبني الأحمر حيناً، ويسيرون إلى الجهاد بأنفسهم حيناً. وكان أولو النجدة والصرامة كابن أبي العلاء يفدون على الأندلس مجاهدين مرابطين غضباً لدينهم، وحمية لإخوانهم.

٣

جاء عثمان الأندلس فتولى «مشيخة الغزاة»، وحسن بلاؤه، وعظمت مكانته، فكان شجاعاً في حلو الأسباب، وكان غصة لبني الأحمر، شاركهم في سُؤددهم، حتى كاد يستأثر بالأمر دونهم، وهو من قبل خصم قومه ملوك المغرب، ثار عليهم وزلزل دولتهم زمائناً. لم يكن عثمان ملكاً ولكنه:

كان من نفسه الكبيرة في جيش ومن كبريات في سلطان

تولى زعامة الغزاة ثلاثةً وعشرين سنة، فما وهن عزمه، ولا فل حده، ولا أغمد سيفه،  
ولا حط سرجه.

وما كان إلا النار في كل موضع تثير غباراً في مكان دخان

والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب، وتطرق على المنايا الأبواب، وما الجيوش الجرار،  
والحروب المستمرة في همة الرجل العظيم إذا صمم.

فأثبتت في مستنقع الموت رجله      وقال لها: من تحت أخمصك الحشر

وحسبي من الإفاضة في وصف عثمان والإشادة بذكره أن أنقل هنا ما كتبه أصحابه  
الغزاة على قبره:

هذا قبر شيخ الغزاة، وصدر الأبطال والحماء، واحد الجلالة، ليث الإقدام  
والبسالة، علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال  
المشهورة، والمغازي المسطورة، إمام الصنوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال  
السيوف، سيف الجهاد، قاسم الأنجاد، وأسد الأساد، العالي الهمم، الثابت  
القدم، الهمام الماجد الأرضي، البطل الباسل الأمضي، المقدس المرحوم، أبي  
سعيد عثمان، ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير، الأصيل الشهير، المقدس  
المرحوم، أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، كان عمره ثمانين  
وثمانين سنة، أنفقه ما بين راحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور  
سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة، وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة رب،  
محتسباً في إدارة الحرب، ماضيا العزائم في جهاد الكفار، مصادماً بين جموعهم  
تدفق التيار، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في  
الأقطار، أشهر من المثل السيار، حتى توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه،  
وهو مراقب لطاغية الكفر وأحزابه، فمات على ما عاش عليه، وفي ملحمة  
الجهاد قبضه الله إليه، واستثار به سعيداً مرتضى، وسيفه على رأس ملك  
الروم منتضاً، مقدمة قبول وإسعاد، ونتيجة جهاد وجlad، ودليلًا على نيته  
الصالحة، وتجارته الرابحة، فارتجمت الأندرس لبعده. أتحفه الله برحمة من  
عندك.

توفي يوم الأحد، الثاني لذى الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة. رحمة الله.



## مدنية زائفة<sup>١</sup>

قال صاحبي وأنا أسايره في شارع الحافة «الكورنيش» من الإسكندرية ليلة من ليالي الصيف: «ما أجمل هذه المدينة! انظر هذه المهيئ المهد، ما بين رأس التين والمنتزه، مشرقاً على لجة يمعن فيها البصر والفكر إلى غير غاية، وانظر هذه الأبنية الهائلة الشامخة، تزحم السحاب بذرها، وتقابل السماء بمثل نجومها، وتنسج على الأمواج أشعتها، وتزيد الأضواء بهجتها.

وتتأمل هذا العقد من المصايب الكبيرة يطوق هذا الخليج الجميل، والسيارات تطوي الأرض ذات اليمين وذات الشمال، فيها المصطافون قد أخذوا من الحياة متعتها، واهتبوا من الأيام فرصتها، وألحان الموسيقى تتدفق من هذه الأندية والماراقص، فتتموج في الهواء، حتى تختلط بأمواج الدماء، وهذا البحر الزاخر من الناس، والمحافل المزدحمة بشتى الأجناس، يحوطها النظام، وبهيمن عليها القانون والسلطان، ويرقبها الشرط والعسس، كل آخذ بحقه، مأخذ بعدها.

يا أخي لقد استبحر العمran، وشمل الناس الأمان، وأمكنهم العيش السعيد، وأسلس لهم الزمان العصى، وأطلعت لهم المدينة من النعيم ألواناً، وأنبتت لهم من اللذات أفناناً، يا أخي، إنها مدنية.

ثم صمت صاحبي، ومال بنا المسير حتى ملنا ذات الشمال إلى محطة الرمل، فمررنا بباب القنصلية الإيطالية، فرأيت بجانب الجدار شبحين ضئيلين، فاقتربت أنعم النظر

فيهما، فإذا طفلان نائمان، جلس أحدهما القرفصاء واعتمد بجانبه على الجدار، وتمدد الآخر على الأرض، عرضة لأقدام السابلة، قلت: وا رحمتاه! طفلان شريдан أحجأهما الشقاء إلى هذا الجدار.

ويعلم الله ما بهما من السفَّر والنصب، وما لقيا في يومهما وأمسهما، وما يلقيان في غدهما، قال صاحبي: لا تعجب، فأمثال هذين كثير، يعثر بهم السائر حيثما ذهب، فانقلب الأسى في نفسي غضباً على صاحبي، قلت: أرأيتك مدينتك هذه العظيمة، وطرقها المعبدة، وقصورها الشاهقة، ومصابيحها المتلائمة، وسياراتها الخاطفة، ومرافقها الالهية، وأنديتها الحافلة، أرأيتك القانون والسلطان، والشرطة والعسس والنظام، وهذا العمran المتجر، والسعادة التي شملت الناس، وألوان النعيم التي طلعت بها المدنية، والعيش الخفيف، والزمان المواتي، ومدينتك الرائعة الفاتنة، أليس في هذه المدنية العظيمة لهذين الطفلين سعة؟ أليس في هذا العمran لهذين الطفلين مأوى؟ أليس في هذه القوانين لهذين الطفلين رحمة؟ أليس في هذا النظام لهذين الطفلين موضع؟ أليس في هذه القلوب لهذين بالمدنية وقوانينها؛ إنها لمدينة زائفة.

## الشعر والشاعر<sup>١</sup>

يملاً القلب ضياءً وسلاماً  
أفشت الريح له سرّاً فهاماً  
ملأ الأنفس وجداً وغراماً  
يملاً الروض دموغاً وابتساماً  
بين خفق القلب والهم صداماً  
بين ومض البرق والرعد كلاماً  
عن خفايا وحيه اللفظ المبين  
أبلغ الأشعار ما لا يستبين

هو وحي في شعاع القمر  
أو حديث في حفييف الشجر  
أو بكاء في حنين الوتر  
هو طلُّ الفجر فوق الزهر  
ثم يبدو مثل قدح الشرر  
أو تراه كالوصايا العشر<sup>٢</sup>  
ذلك الشعر إذا ما ترجما  
رب شعر وحيه قد كتما

\* \* \*

من خيال حائر فيه المدى  
خاف نسر الصبح لما أن غداً  
هام يبغي في الدياجي مورداً  
فيرى القصة خلقاً مسعاً

يخلق الشاعر خلقاً آخرًا  
 يجعل الليل غرابة طائراً  
ويرى النجم شريداً حائراً  
ويضيق الناس عنه ثائراً

<sup>١</sup> الاثنين أول رمضان سنة ١٤٥٢ هـ / ١٨ ديسمبر سنة ١٩٣٣.

<sup>٢</sup> يروى أن وصايا موسى الكليم أوحيت إليه في جو مبرق مرعد.

فتراهم في البرايا خلدا  
أو حليف اللعن يبقى أبداً  
ودعا فيها إلى العز المكين!  
فاستقاموا للمعالى صاعدين!

يبراً الأبطال فيها ساحراً  
مثلاً في البر يبقى سائراً  
كم هدى الشاعر قبلًا أمماً  
وبنى للمجد فيهم سلماً

\* \* \*

ألفت فيه من السحر معاني  
ضللت فيه دموع وأمانى  
نابل من طرفه، والجاجبان  
ومن الوصل فراديس الجنان  
جلل الأرض بنار ودخان  
ملأ الأرض بنور وأمان  
لعبت باللون أيدي الراسمين  
وإذا شاء فُعرض الفرحين

وجه من يهواه روض ناضر  
ومن الطرة ليل كافر  
دولة الحسن، عليها ساهر  
ومن الهجر جحيم ساجر  
غضبة الشاعر ليل زافر  
ورضا الشاعر صبح سافر  
يصبح العالم ما شاء كما  
إذا شاء أراه مائماً

\* \* \*

في إهاب الغيط والحدق الكمين  
سيف ثأر مصلتاً للظالمين  
بيد الريح شمال أو يمين  
حين يروي الأرض بالغيث الهتون  
رددته رهبة للسامعين  
شاديات باكيات كل حين  
في عراك الدهر والقلب الحزين  
نسجته الريح بين الناسجين

ويلف السحب من نيرانها  
ويسل البرق من أجفانها  
ويقود المزن من أرسانها  
ويعد الرعد من تحنانها  
أو يرى فيه صدى طغيانها  
ويقيم الطير في أفنانها  
ويرى النهر دموغاً ودمًا  
أو يرى الصفحة سرداً محكمًا

\* \* \*

إذ تحليه من الطل درر  
حسب الطل هو الدمع انتثر  
ماس في الروض دللاً وخطر

ويرى الورد ضحوغاً طرباً  
فإذا الورد ذوى واكتاباً  
ويرى البناء قدداً معجبًا

ويりى الجدول صلًّا هاربًا  
ويظن الريح دارت لعبًا  
ويخال الطير غنى مطربًا  
ضاق هذا العيش إلا حلمًا  
تضحك الآلام عيش الكادحين

\* \* \*

يُخرق الستر إلى سر الضمير  
وَدَبِيبُ الْحَزْنِ فِيهِ وَالسُّرُورُ  
وَيَرَاهُ النَّاسُ فِي ثُوبِ الْحَبُورِ  
وَجَمِيعُ النَّاسِ مِنْهُ فِي غَرَورِ  
حَيْنٍ يَخْفِي فَضْلَهُ كُلَّ كَفُورٍ  
كَاشِفٌ لِلنَّاسِ عَنِ ذَاتِ الصُّدُورِ  
فِي ضَمِيرِ الدَّهْرِ أَلَافَ السَّنِينِ  
تَصْرُّفُ الْهَدْهُدِ بِالْمَاءِ الْمُعِينِ

صَاحِبُ الْشَّاعِرِ فِي نَظَرَاتِهِ  
فِي رِيَاضِ الْأَمَالِ فِي طَيَّاتِهِ  
يَكْشِفُ الْمَحْزُونَ عَنِ أَنَّاتِهِ  
وَيَجْلِيُ الْحَبَّ عَنِ سَوَاءِهِ  
وَيَرِيَ الْمُحَسِّنَ فِي هَالَاتِهِ  
فَشَعَاعُ الشِّعْرِ فِي وَمَضَاتِهِ  
يَقْرَأُ الشَّاعِرَ مَا قَدْ أَبْهَمَا  
وَيَرِيَ الْغَائِبَ مَشْهُودًا كَمَا

\* \* \*

فيروى الآمال يأساً ومحلاً  
ملاً اللوح صياحاً وصيالاً  
عض في الأسر قيوداً وحبالاً  
كاتماً في الصدر غماً ووبالاً  
واصفاً في الروض حسناً وجمالاً  
رتل الحزن نشيداً فأطلاً  
هو صهر القلب في نار الشجون  
هو ذوب النفس، أو ماء العيون

يجهد الشاعر طول العمر  
فتراه مثل باز صرصر  
أو تراه مثل ليث هصر  
ثم يلهو بجمال الزهر  
فتراه عنديب الشجر  
أو تراه كحمام هدر  
صاحب ما الشعر سبيلاً أمماً  
صاحب ما الشعر كلاماً إنما



# لِمَ لَا تقول الشِّعْرُ؟<sup>١</sup>

كتبت إلى أبيها العُمُّ الْكَرِيمِ<sup>٢</sup> تسأله لماذا صمت بعد تغريد، ونضبت بعد فيض، وسكنت بعد المرح، واكتببت بعد الفرح؟ وما هذا الوجوم والإطراق بعد التهلل والإشراق؟ أين قلبك الهدار، وقلبك المكثار؟ وأين شعرك الشاعر، ونظمك الساحر؟ ليت شعري وقد أمكنك القول لم لا تقول الشعر؟

## ١

يا سيدِي، بماذا أجييك؟ لقيت الحياة مبتسماً، ونشأت مترنماً، أطالع تباشير الصباح مرحاً كالأطياف، مترنحاً مع الأشجار، تروقني ألوان الأفق، وظلمات الغسق، وتتشدّهني طلة ذكاء، في موكب الضياء، أراقب الأصوات، في الإصباح والإمساء، وأساير الظلال، بالغدو والآصال، وأخلو إلى القمر أشرب ضياءه، وأحس في نفسي صفاءه، وأقول:

البر والبحر ذوب من سنا قمر      تردد الطرف فيه فهو حيران

<sup>١</sup> الأحد ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ هـ / أول أكتوبر سنة ١٩٣٣.

<sup>٢</sup> كتب عبد الرحمن باشا عزام يسألني: لم لا تقول الشعر كما عهديتك؟ فأجبته بهذه الكلمة.

وتأمل الأزهار في شعاعه، وأقبل الورد في لالاته، وأساير النيل أجري مع مائه،  
وأضطرب مع أمواجه، وأقف على البحر فرحاً بآذيه المهاج، معجبًا بسلال الأمواج،  
أرقب العراق المتواصل بين الماء والساحل.

وكم طربت لزقرقة العصافير في نور الصباح، وتنزيهاً على متون الرياح، وضحك  
لبكور الغراب، سابقًا في الضباب!  
وكم فتنني الوجه الجميل، والخلق النبيل، فقلت:

في كل حسن أرى سرًا يجاذبني      نفسي، وما لي بهذا السر عرفان

أرى الجمال فتطبعه زجاجة العين على صفحة القلب، فإذا هو على لسانى وقلمى؛  
فأنطلق قائلًا معجبًا، ومنشدًا مطربًا.  
وكل شيء يبعث الأمل، ويحدو إلى العمل، وكأن القضاء طوع الخيال، وليس في الدنيا  
محال، وكأن الإنسان يستطيع أن ينحت الجبال بقلمه، وينزف البحر بفمه، والمستقبل  
وضاء، وكل ما في العالم ضياء.

٢

ثم نفذ الفكر إلى ما وراء الظاهر، وتطلع إلى ما في السرائر، وجاؤز القشر إلى اللب،  
وخاض الضحاضاح إلى العباب، وكشف المجاز عن الحقيقة، وطالع ضمائر الخلية،  
فأنبهم العالم واستعجم، فإذا كل شيء مبهم، فالتفكير فيما وراء الحجب جائع، وكل سر  
هناك هائل، والضوء هناك ضباب، والبصر حجاب.

امحت الأشكال، وخفيت الألوان، وعيت الريشة في يد الراسم، وحار القلم في يد  
الشاعر، وبهت المنطق دون البيان، وجمد اللفظ على اللسان، ويبقى السر المحجب، آبياً  
على كل مطلب، أو يبص من الحقيقة حاجب يتسع عن ضيق الألحان، ويكبر على سلاسل  
القوافي والأوزان.

ورحم الله الشاعر سناطي<sup>١</sup> إذ يقول: «رجعت عما قلت؛ إذ ليس وراء الألفاظ معانٍ وليس لما ندرك من المعاني ألفاظ». <sup>٢</sup>

أهم بالمعنى الصغير، فإذا هو حلقة في سلسلة، وطريق إلى كل معضلة، وجزء من كل حقيقة هائلة.

وأحاول الأمواج، فتنفتح عن الأعمق، فيفضل الفكر، وتزيح الأحداق، وأعالج حرمة الشفق، فإذا وراءها خبيثات الأفق، وإذا الأفق صلة الأرض والسماء، وملتقى الظلم والضياء، وكيف بما هناك من حقائق؟ كيف بما استشر من أسرار الحال؟ وأهم بالكلام عن الحيوان، فإذا أنا في لجة الحياة، وهي السر العجاب، سلسلة وسطها فوق الأرض وطرفها في التراب.

وأريد أن أصف الذرة، فإذا هي والشمس سواء، باهرة الحقيقة، رائعة الضياء، أنظر إلى الصغير فيكير، وأقصد إلى الآنس فيفر، وأعمد إلى الواضح فينبهم، وإلى المغرب فيستعجم.

والأمل تكسرت أمواجه على صخور الحقائق، وضل سرابه في فسيح السماء. هأنذا على ساحل المحيط الأعظم، حائر الطرف بين اللجة والشاطئ، مقسم الفكر بين الظاهر والباطن، ولست أدرى أبقي صامتاً مبهوتاً، أم أهجم على الأهوال، وأغوص في الأعمق، مبيناً عن عرفاني وجاهلي، وإدراكي وعجزي، أم أرجع إلى العهد القديم أصف الألوان والأشكال، والضياء والظلال؟

٣



## أوراق مالية<sup>١</sup> في القرن السابع الهجري

كيخاتو بن أبا قاخان بن هلاكو، خامس ملوك المغول المسماة أيلخانية، كان كما يقول مؤلف «حبيب السير» أخى بنى هلاكو؛ كان يفياض جوداً في موائد، ولا يقف به حد في الإسراف والله.

وقد اختار لوزارته صدر الدين الزنجاني المعروف بصدر جهان. ولم يكن الوزير مخلفاً مولاً في التبذير، فخلت الخزائن، واشتدت الحاجة إلى المال، وضاق بالملك الأمر، فبدا للوزير أن يأخذ عن أهل الصين سنة كانت معروفة عندهم في ذلك العصر، هي التعامل بأوراق تغنى غناء الحجرين الكريمين، أو المعدنيين النفيسين: الذهب والفضة، وليس الفرق بين الورق والورق ذا خطر.

أمر الوزير بطبع أوراق للتعامل سميت «جاو»، وأنشأ في كل ناحية داراً لطبع الأوراق سميت «جاوخانة»، وشرع قانوناً يحتم على الناس الإقلال من تداول الذهب والفضة جهد الطاقة.

وكانت الأوراق كما وصفها رشيد الدين الشيرازي في تاريخه المعروف بتاريخ «وصاف» والمؤرخون المعاصرون على هذا الشكل:

ورقة مستطيلة، عليها كلمات صينية، وفوقها باللغة العربية كلمة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» اتباعاً للمألوف في المسكوكات الإسلامية، وتحت هذا اسم الكاتب، ودائرة كتب فيها قيمة الورقة، وكانت القيمة تختلف من نصف درهم إلى عشرة

<sup>١</sup> الثلاثاء ٢٤ ربیع الثانی سنة ١٣٥٢ھ / ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣.

دنانير، ومما كتب على هذه الأوراق هذه الكلمات الهاشة: «أصدر ملك العالم هذه الجاو المباركة سنة ٦٩٣هـ، فمن غيرها أو محاها يقتل هو وزوجه وأولاده، ويصادر ماله». وأرسلت إلى المدن منشورات تبين فوائد التعامل بهذه الأوراق، وتبشر الناس أن الفقر والبؤس سيزولان لا محالة إن دام التعامل بها، ومما جاء في هذه المنشورات هذا البيت:

چاو أکرد رجهان روان کردد      رونق ملک چاودان کردد

وترجمته: «إذا راجت في العالم الجاو دام رونق الملك أبداً». ومما جاء في قانون هذه الأوراق أن الورقة التي تمزق أو تبلى، ترد إلى الجاوخانة، ويعطى صاحبها ورقة أخرى تنقص عنها عشر القيمة. ثار الناس على هذه الأوراق: يروى أنه جعل موعد تداولها في مدينة تبريز شهر ذي القعدة سنة ٦٩٣هـ، فلما جاء الموعد أغلقت الحوانيت ثلاثة أيام، ووقفت الأعمال، وأبى الناس أن يقبلوا «الجاو المباركة».

وكان أعظم رجال الدولة نصيباً من سخط الناس وبغضهم: عز الدين المظفر، الذي وكل إليه إخراج الأوراق والقيام عليها، ومما قيل فيه:

جهانرا هستيء تونیست درخور	توعز دینی وظل جهانی
بس از توحید حق والله أكبر	أزان گبر ومسلمان ويهودي
بنزد حضرت داري إدار	همی خوانند از روی تضرع
مبادا درجهان يکدم مظفر	خدليا برمراد خويش هرکز

وترجمتها: «أنت عز الدين وظل العالم، ولكن بقاءك شر على العالم، من أجل ذلك ترى المسلمين واليهود والمجوس بعد توحيد الله وتكتبه، يتضرعون إلى الحكم العدل: ربنا لا تجعله ساعة واحدة مظفراً بمراده».

انتشرت الثورة في مدن كثيرة، حتى ذهب كباء المغول إلى السلطان «كيخاتو» فكلموه في أمر هذه الأوراق البغيضة، حتى رضي بإلغائها.

## قبر مفقود<sup>١</sup>

قال صاحبي ونحن نؤمُّ مسجد النبي دانيال في الإسكندرية: هذا هو المسجد، فولجنا إلى الفناء، فإذا جماعة من السُّوَّال جالسين إلى الجدار كأنهم موتى أعزتهم القبور، ثم قال صاحبي: وهذا البناء مقبرة، فملأنا ذات اليمين إلى رجل بالباب، عرفنا من موقفه وأوامره أنه قيم المقبرة.

– السلام عليكم.

– عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، هل من حاجة؟

– يا سيدى، شاعر من شعراء الترك وزعيم من وزرائهم اسمه عاكف باشا قدم إلى مصر أيام محمد على باشا ومات بهذه المدينة، ودفن بجوار النبي دانيال، فهل تعرف عن قبره خبراً؟

– أكان وزيراً في مصر؟

– كلا، لكنه مرّ بمصر حاجاً، ثم عاد إليها بعد الحج، فمات بالإسكندرية.

– هذه مقبرة لأسرة الأمير عمر. يا محمد، اذهب معهما إلى المقبرة القديمة، أليست مفتوحة؟

– لا يا سيدى، ولكن فتحها يسير، فهناك إبراهيم.

---

<sup>١</sup> الإسكندرية جمادى الأولى سنة ١٢٥٢ / أغسطس ١٩٣٢.

سرنا وراء الرجل يسلك بنا في فناء المسجد حتى انتهى إلى زقاق ضيق يفضي إلى باب مرتفع، فنادى إبراهيم وكلمه، فجاء يحمل المفتاح وتقديم نحو الباب ففتحه، ثم ألقى خشبة ضخمة على كوم من الحطب أمام الباب، فارتقي عليها، ودخل فاتبعناه.

سور قصير يحيط بعرضة واسعة، فيها ارتفاع وانخفاض، وأكوام من التراب، وأكdas من الأحجار، يبدو بدخلها قبران إلى اليمين، عليهما نصبان من الرخام. وإذا أنعم الباحث النظر تبين قبرين دارسين أو ثلاثة في أرجاء أخرى.

قال إبراهيم: ليس هنا إلا القبران اللذان ترى. فتأملت كتابة تركية، وقرأت ما في سطور الفنان من عظات وتاريخ وأسماء، فإذا اسمان آخران، ودفینان مضى عليهما زهاء ثمانين عاماً، وجُلت في أرجاء المقبرة فرأيت قبراً عليه نصب واقع يتضمن اسمآ آخر، ثم مررت بقبر لا نصب عليه، وبنصب لا قبر له؛ بطشت يد الزمان العسراه ببقايا الفنان!

### تختلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

لبيت حيناً أسائل القبور والأحجار فلم تحر عن الشاعر جواباً، فرجعت إلى إبراهيم فقال: كانت هذه الأرض كلها قبوراً، فذهب بها الحفر، قلت: أي حفر؟ قال: قلبو الأرض يفتشون عن قبر الإسكندر؛ فقد أخرجوا ما ضمته الأرض من أحجار وعظام إلى عشرين ذراعاً، فلم يظفروا بشيء، قلت: إنها لعزية؛ إن فقدنا قبر شاعرنا فقد ضل في ثنایا الأرض وظلمات التاريخ قبر الملك العظيم الفاتح، الإسكندر بن فيليب، إنها لعزية!

رجعنا إلى صاحبنا الذي أشار بالذهب إلى المقبرة القديمة فقال: هل عثرتم على القبر المنشود؟

- لا، رأينا قبوراً قليلاً، وقرأنا ما وجدنا من أنصاف، فلم نجد قبر عاكس باشا.
- هنا مقبرة سعيد باشا، أيمكن أن يكون قبره فيها؟
- ليس بعيداً، فقد حدث التاريخ أن محمد علي باشا أحسن وفاته، وبالغ في الحفارة به، فليس عجياً أن يكون قد أمر بدفعه بين قبور الأمراء.
- يا فلان - قيّم مقبرة سعيد باشا وكان بجانبه - ادخل بهما لعلهما يجدان القبر، فأحسبني رأيت هذا الاسم على بعض القبور.
- عندي أوراق فيها أسماء القبور كلها، فتفضلاً معي.

ودخل إلى بهو به مكتب، فأخرج ورقتين فيهما أسماء معظمة لأمراء وأميرات، أسماء كانت عناوين حياة حافلة بالأئحة والرفاهية، مملوءة بخطوب الزمان، ونوب الأيام، وما هي الآن إلا أسماء قبور.

ما وجدت «عاكف باشا» بين الأسماء، فشترت للرجلين وانصرفت.

قال صاحبي: لم تعثر عليه.

قلت: أجل، ولكنني أعلم أنه في باطن الأرض، فإن لم يكن بد لشاعرنا من قبر، فهو الأرض كلها قبره. يا أخي، إنما يخلد الناس بالآثار لا بهذه الأحجار، وقد صدق جلال الدين الرومي إذ قال:

فلا تطلبن في الأرض قبري     فإنما صدور الرجال العارفين مزارٍ<sup>٢</sup>

---

٢

بعد أزوفات تربت ما درزمين مجوى درسينه هاي مردم عارف مزارماست.



# جلال الدين منكيرتي<sup>١</sup>

١

سارت جيوش التتار ت镀锌 بالموت والدمار **﴿فُتَحْتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجٌ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾** خرت المائين لصوتهم، فأسرروا وقتلوا، ثم سلطوا الماء والنار فأخربوا ودمروا، وانطلقوا في جحافل من السيوف والسيام، والنار والدخان، والدماء والماء، والهول والفرع.

وعلاء الدين ملك خوارزم قد أوقد النار ولم يستطع إطفاءها، وفتح باب الشر ولم يقدر على إغلاقه، لم يُعنِّ جنده، ولم تثبت عزيمته، فما زال يهجر المدينة بعد المدينة حتى انتقم بجزيرة في بحر الخزر، فهلك بها.

٢

ورث جلال الدين ملك أبيه، وإنما ورث **الضراب** والطuhan، وعرشاً في أشداق المنون تخاص إليه الأهوال، وتقطع دونه الآمال. لقد ذهب الملك وعلاء الدين معًا، وورث جلال الدين دين أبيه من الكفاح والتضال، ورث القتال الحاضر، والملك الغابر.

---

<sup>١</sup> ذو الحجة سنة ١٣٥١ / ١٥ أبريل سنة ١٩٣٣. جلال الدين خوارزم شاه بن محمد علاء الدين، السابع من ملوك الدولة الخوارزمية، تولى الملك بعد أبيه سنة ٥٨٠، وقتل سنة ٦٢٨هـ.

هل جلال الدين، ادفع عن رعيتك ما لا يدفع، واختر لنفسك وليس في الشر خيار.

**هـما خـطـتا إـمـا إـسـارـ وـذـلـة** وإـمـا دـمـ، والـقـتـلـ بـالـحرـ أـجـدرـ

تحفظ البطل تحفظ الأسد، وتقهقر ليثب، ولكن المغول كانوا في إثره حيثما سار،  
يطوون وراءه الليل والنهر، حتى خرج من ملكه، وقارب الهند، وهناك صفت جلال  
جنده، وهم:

عصابة ليس لهم ديار إلا ظهور الخيل والغبار

## فهزم عدوه الجبار في ست معارك.

**يلقي المنية في أمثال عَدّتها** كاليل يقذف جلموًدا بِجلمود

ولكن طوفان المغول أعظم من أن تثبت فيه صم الجلاميد، أو يغنى فيه العزم  
المりء والبأس الشديد.

ذلكم جلال الدين على نهر السند، وأولئك المغول على النهر يكر عليهم كالأسد المحرج، ويصدقهم القتال من الفجر إلى الظهيرة، يموت في يمينه الحسام بعد الحسام، وينفق تحت عزائم الجواد بعد الجواد، فلما سُدت على العزائم سبل النصر، وضاقت بالجال حِيل الأبطال، حمل على عدوه فحطمها، ثم اثنى إلى الظهر فاقتحمه، والموت خزياناً ينظر. تلك لجة النهر تموي بجلال الدين وجنوده، وفوقهم من سهام المغول واipel منهم، وفي الهمم القعساء تستوي الغبراء والد أيام. أُعجب الأعداء بهؤلاء الأبطال، فوفقاً معجبين بنظرون.

غرق معظم الجندي، وخرج البطل ببقايا القتل والفرق ليلاقي بهم عدواً آخر، فهذا «جودي» أحد أمراء الهند يغير على البطل المزأليينفيه من أرضه، وهذا جلال الدين على العلات بصمد للمُغْرِب فهزم.

ثم جاء مدد من جنوده فتقدم في أرض الهند، وأقام بها حيث شاء على رغم «قراجة»  
أمير السندي، وإيلتُّمشُ أمير دهلي اللذين تحالفوا وحالفا عليه الدهر.

وما جهد هذا الدهر إلا هزيمة      إذا نازلت عزم الكرام كتائبه

٣

أتحسب جلال الدين بلغ من الجهد غايتها، ومن الجلد نهايته، وقد أذعر إلى المجد والملك والرعية؟ أتحسبه، وقد فقد ملكه جميعه، وهزم في أرض غريبة، تبلد يطلب في فجاج الأرض مفرّاً، أو يلتمس في زواياها مستقراً؟ كلا! إنه فقد ملكه ولم يفقد رجاءه، ولا عزمه ولا إباءه. إن له ملكاً وإن يكن في يد العدو الجبار، وإن له عرشاً وإن يكن في ذمة الزمان الغدار. إن أماته في عراك الخطوب ثماني حجج تطير فيها بين المشرق والمغرب همته، وتنقله من حرب إلى حرب صرامته، ويسلمه من مصيبة إلى مصيبة حظه.

يشق بين الأهوال طريقه إلى كرمان ففارس فأصفهان فالري، ثم يصمد للخليفة العباسي الناصر، فيهزم جنده، ويقتل قائدده، ويسوق المنهزمين إلى أسوار بغداد.

ثم يستولي على تبريز، ويجعلها عاصمة ملكه، ويغير على الكرج، فيزيد في أعدائه، لأن أعداه ليسوا أكفاء نضاله. وبينما هو في تفليس جاءه نبأ هائل، وناهيك بخيانته الأعوان في حومة الطعان: أنبيء أن برافقاً الحاجب والي كرمان قد مالاً المغول. فيبادر من تفليس إلى كرمان ليأخذه بخيانته، ثم يرتد من كرمان إلى الشمال ليحارب التركمان والملحدة، فيهزمهم ويجزيمهم بما اقتروا في غيته، ويُشَرِّق تقاء دامغان، ليهزم جيشاً من المغول، ويرجع إلى الغرب حين يعلم أن الكرج تألبوا عليه، فيلتقي الجمعان، وتتأبه على جلال الدين شجاعته ومضاوئه إلا أن يizar بطلال الكرج، وقد قتل أربعة من صناديدهم ولاء، ثم حمل على الكرج فهزهم أجمعين.

٤

هذه سنة سبع وعشرين وستمائة وجلال الدين يعمل لـ**لِيُؤْلَف** بين أمراء المسلمين، ويضرب بهم هذا العدو المدمر، فلا يمهله عدوه فيباغته ثلاثون ألفاً من المغول، فيهزم أماته، ولكن ليسستولي على مدينة كنجة.

عشر سنين نازل فيها جلال الدين منكربتي أحداث الزمان مجتمعة، وغلب فيها جهد الأعداء، وخيانة الأصدقاء، وجالد عدو المسلمين، وخليفة المسلمين، وحارب المغول والتركمان والملحدة والكرج.

أرأيت جلال الدين نجماً يدور به فلك من الخطوب بين المشرق والمغرب؟ أعلمت أن الرجل العظيم يخلق أحداث التاريخ ولا ينقاد لها؟ إن يكن ما يروى عن جلال الدين مستحيلاً، فكم بين حقائق التاريخ من مستحيل!

غياب الدين أخو جلال الدين يمالئ الأعداء أيضاً! فانظر إلى البطل العظيم عام ثمان وعشرين وستمائة وقد اجتمع عليه الأعداء، وحانه الإخوة والأصدقاء، وناء بقبليه خذلان أعوانه لا بطش أقرانه. ها هو ذا مكتئباً حزيناً مشرداً يسير في قرى الكرد، ولعله يحاول أن يخلق من عزمه جنداً وحرباً وانتصاراً وملقاً، ولكن رجلاً من الكرد باعنه ففتك به.

أنته المنايا في طريق خفية على كل سمع حوله وعيان  
ولو سلكت طرق السلاح لردها بطول يمين واتساع جنان

ولكن النفس العظيمة التي ملأت العدو والصديق هيبة وإعجاباً لا تموت بموت الجسد، فقد أكبر الناس أن يموت البطل الذي غلب الموت في كل معتنك، فبقوا أكثر من عشرين عاماً يتحدثون أن بطلاً حي، وأنه ظهر في هذا المكان أو ذاك، بل حاول بعض الناس أن يلبسوا عظمته، ويحملوا اسمه، فناءوا بالعبء، فأخذهم المغول بغير عناء.  
يا شباب الشرق، قلوا صفحات مجدهم؛ فإن أعظم المصائب أن تُمحى ذكري الآباء من صدور الأبناء، وإن لكم في جلال الدين لعبرة.

## إسكندر يقتل صديقه<sup>١</sup>

١

إسكندر العظيم يثبت عرشه وسلطانه وهيبته وكبرياته في مقدونية واليونان، ثم يتوجه لقاء آسيا.

الفريقان من اليونان والفرس يلتقيان على نهر «كرانيكوس» الصغير عام أربع وثلاثين وثلاثمائة، فيتاح لإسكندر أول فتح في آسيا، ثم تخضع له المدائن حتى سردليس، فقد دانت له آسيا الصغرى كلها.

ثم يتقدم صوب الجنوب، فيجتاز جبال طوروس، ويسيير تلقاء الشام، وإذا جيش دارا، الجيش اللهام الذي لا يُغلب من قلة، رابض في طريقه، وفي سهل إسوس الضيق بين الجبال والبحر تزدحم مئات الألوف للحرب، ويسقط في البحر مائة ألف من الفرس، ويفر دارا، ويُنهب معسكره، وتؤسر أمه وزوجته وابنته. فانظر إلى الإسكندر قد قهر «الملك الأعظم» ملك الفرس، وطالما فخر اليونان بأنهم احتلوا صدمتهم، وردوهم عن بلادهم أيام دارا.

ويتقدم الفاتح العظيم فيقهر مدن الشام، وتقاومه صور وتتحدى جبروته وسلطانه، ثم تخر أمامه بعد حصار سبعة أشهر، فيقتل منهم ثمانية آلاف، ويُؤسر ثلاثة ألفاً، فيباعون عبيداً، ويُصلب على القلاع ألفان عبرة ونكلأ. ذلكم الإسكندر الفاتح الظاهر، وذلكم جزاء من يقف في سبيله!

<sup>١</sup> ١٩٢٢ من ذي القعدة سنة ١٤٥١ هـ / ١٥ مارس سنة ١٩٢٢.

ويفتح الإسكندر مصر عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة، ويرفع نسبه إلى آمون، ثم يجمع جنده ويسيء إلى العدو الأكبر؛ الملك الأعظم، فيجتاز الفرات ودجلة إلى حيث يعسّر. دارا.

وهناك على مقربة من أطلال نينوى العظيمة، التي تدب مجد آشور الغابر، وعلى سبعين ميلاً إلى الشمال والغرب من مدينة إربل، قريباً من ملتقى عبد الله بن علي العباسي ومروان بن محمد خاتمة الخلفاء الأمويين، حيث سقطت دولة وقامت دولة، هناك تراءى الجمuan، وعسّر الإسكندر تجاه دارا. ويشير «برميون» على الفاتح المقدوني أن يهجم على عدوه ليلاً، فيأبى مجد الإسكندر وكبارياؤه فيقول: «أنا لا أسرق النصر». ثم يلتقي الجمuan، وتدور الدائرة على دارا وجندوه، فيفر صوب المشرق، ويسارع الغالب صوب الجنوب. أريتك بابل العظيمة مدينة السحر والعلم، ها هي ذي تفتح أبوابها للإسكندر، ويباركه كهنتها، ويطوي الملك الشاب المراحل إلى سوس واصطخر حاضري الفرس، لا يصمد لمدينة إلا فتحها، ولا يعمد لجيشه إلا مرقه. تمتد الفتوح والأعمال والنشوة والكرياء بإسكندر إلى ما وراء النهر في طريقه شطر الهند، بعد أن طرد دارا، حتى عشر به في الطريق قتيلاً.

إسكندر العظيم في مدينة سمرقند عام سبع وعشرين وثلاثمائة، وقد طوى المراحل والممالك، ما بين مقدونية ونهر سيحون، ينعم هناك بالشباب والظفر، والملك الفسيح، والكنوز التي لا تحصى، والجند الذي لا يعد. إسكندر الآن أعظم ملك في العالم كله.

٢

ويدعوا أصحابه وقواده إلى مأدبة في سمرقند، فيأكلون ثم تدور الكأس حتى يثمل القوم أو يكادوا، ثم تتربع للملك المظفر كئوس من الإطراء والإعجاب والإجلال والإكبار، ويغلو المتلقون المعجبون، فيرفعونه فوق الأبطال جميعاً، ويدعون أن أعماله العجزة لا تكون إلا عن نسب إلهي، بل يرفعونه إلى مستوى الآلهة كهرقل. ويشارك الملك الشاب في إعظام مآثره، والإعجاب بها، ثم لا يقنع بما فعل، فيجعل لنفسه ما نال أبوه من ظفر في آخر عهده، ويغضض من فيليب وإن كان أباً!

يسخط المقدونيون من الزراعة ببطفهم القديم، ولكنهم لا ينسون، و«كليتوس» رابض ينظر إلى إسكندر وما لديه ساخطاً محملقاً. كليتوس أحد قائدـي الفرسان، كليتوس الصديق القديم أخو «لانيس» حاضنة إسكندر التي قُتـل اثنان من أبنائـها تحت

رأيته، كليتوس الذي نجَّى إسكندر في معركة كرانيكوس حين أبصر فارسيًّا يهوي بسيفه إلى الملك من خلفه، فسارع كالبرق فضرب السيف فقده دون رأس الملك. كليتوس هذا لم يستطع صبراً على الغض من فيليب، قال كليتوس: ما لهؤلاء المادحين يضعون أقدار الغابرين ليرفعوا عليها مجد الحاضرين؟

إن فيليب كان عظيماً، ثم تأخذه الحدة فيقول: «ليست مآثره دون مآثر ابنه. لا، إن مآثره لأعظم؛ فقد خلق الرجل لنفسه ملكاً وجيشاً، وإنما صُلت أيها الملك بما أورثك فيليب، من ملك ممهد، وجند مدرب. إنما ظفرت بفضل هؤلاء المقدونيين الذين تحقرهم اليوم، وتُقدم الفرس عليهم، ألم تقتل برمينيون العظيم؟»

هاج الحاضرون وقفوا كليتون بالجدل والتوبخ، وثار ثائر إسكندر الفتى الفاتح، الذي سخر ملك مصر وبابل وأشور وفارس، إذ قرعت أذنه لأول مرة نبأة ناقد يعترض كلامه، ويرد عليه دعواه. غضب إسكندر وصاح بكليتوس يزجره ويجادله. وانحاز الحاضرون للملك المعجب بنفسه، وكليتوس كالأسد يزمجر ويرد الكلمة بمثلها، ثم ينتفض قائماً ويصبح ماداً يده إلى الملك: «اذكر أن حياتك دين لهذه اليد التي نجَّتك يوم كرانيكوس، وأصلح لصوت الحق الصراح، أو تجنب دعوة الأحرار إلى مأدبتك واختص العبيد بصحبتك!»

اهتاج إسكندر لوقف كليتوس، ولذكرى كرانيكوس وبرمينيون، فنهض يتحسس خنجره، فإذا الخنجر بعيدٌ قد نحاه أحد الحاضرين، فينادي الحرس مغضباً هائجاً، ويأمر أن ينفح في الصور بإيدانًا للجندي، فما أطاع أحد أمر الملك الهائج النشوان. وتقدم نحوه بطليموس وبردكاس، القائدان الكباريان، فأحاطا به، وأمسكا يده برفق يُسْكِنان ثورته، ويكسران حنته، ويحيط آخرون بكليتوس يخرجونه من البهو، فيأتي أن يخرج لثلا يعترف بأنه أساء واعتدى، ويقول إسكندر: «واأسفاً إن قوادي قد غلوّني كما فعل بسوس بدارا<sup>٢</sup>، وإنما لي من الملك اسمه..».

ويتقدّم إسكندر تلقاء كليتوس، ولا يجرؤ القواد أن يقفوه قسراً، ثم ينقض كالصاعقة فينزع حربة من أحد الجندي فيغمدها في صدر كليتوس صديقه القديم!

---

<sup>٢</sup> بسوس: أحد كبراء الفرس الذين شاركوا في اغتيال دارا بعد أن هزمه إسكندر.

يرتاع الحاضرون ويفيق إسكندر من نشوته وثورته وعنجهيته فيفتح عينيه فإذا كليتوس طريح يضطرب في دمه.

خرج إسكندر من البهو يعود إلى فراشه، فارتدى عليه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ويبكي بدموع عَزَّ على الخطوب الشداد، وغلَّت في الحوادث السود، ويتمادى به البكاء، وكلما كفف دمعه تمثَّل له صديقه طعيناً، فيلعن نفسه نادماً، ويهاقِن باسم كليتوس وأخته لانيس، ثم يقول: «ويلي! أنا الغادر الكنود؛ لقد جزيت كليتوس ولانيس شرًّا بما أحسنا إلىَّ، لست بعد اليوم جديراً بالحياة».

ويجتمع إليه صحبه يعزونه، ويصوغون ما عمل، فلا يزداد إلا حزناً واكتئاباً، وندماً وأسفًا، ويجتمع الجن المقدونيون فيجمعون على أن كليتوس قُتل بحقه، وأنه ينبغي إلا يدفن، فيغضِّب ويقول: كلا، إنه سيدفن بأمرِي.

ويأتي الكهنة فيقولون: إن الملك لم يقتل صديقه بيده، ولكنها نسمة من الإله «ديونيسوس» أجرأها الله على يد الملك انتقاماً لنفسه بما حُرم القربان في هذه المأدبة، ثم يأتي الفيلسوف «أنكشر خوس» فيقول: أيها الملك، إن الذي أنت فيه لعجز. إنك أيها الملك العظيم، والفاتح الظاهر، لجدير بأن تُحلَّ وتُحرَّم، وتحقق وتبطل بإرادتك، لا أن تخضع للقوانين التي سنَّها الناس، ثم يأتي كلستنوس الفيلسوف فيجهد أن يهون على الإسكندر ما فعل.

فارق إسكندر مضعه بقلب كليم إجابةً لنصائحه، وإجابة لواجبه في هذه البلاد النائية، ولكنني أحسب الجرح قد ذهب مع إسكندر إلى قبره!  
إسكندر العظيم لم يعظم عليه مطلب، ولا بعده على همة غاية، ولا ثبتت في طريقه دولة، ولا وهن قلبه في سلم ولا حرب، ولكن إسكندر الفاتح الظاهر، والمملوك المسلط، لم يحمل وحزة واحدة من وحوذات الضمير؛ فخرَّ كالطفل يبكي ويتململ، وكاد يبخع نفسه فراراً من الندم!

# الغريق<sup>١</sup>

بينما يسير بنا زورق في النيلرأينا من بعد على شاطئ قريتناأسوده تضطرب، تتقارب وتبتعد، وتفترق وتجمعت، ثم يقترب بنا الزورق فنرى رجالاً يموج بعضهم في بعض، وإذا ضوضاء وجبلة، وإذا الناس في أمر مريح، بين جالس قد رمي بيصره إلى النهر حائراً، وواقف يشير إلى الماء صائحاً، ومسرع يساير النهر يتبع الأشياء الطافية على الماء، ومنادٍ: انظروا، ما هذا الذي يضطرب به الموج؟ وآخرون أخذوا الشباك واستقلوا زورقاً، يرمون بشباكهم في كل مكان، وغواص يطفو ويرسب وقد أخذه الصياح من كل جانب: إلى الأمام، إلى الوراء، اقترب، ابتعد، ألم تجد شيئاً؟ غص مرة أخرى. والناس من القرية إلى الشاطئ أنواع متتابعة، والنساء على بعد صارخات معولات، والنيل متدافع اللهج، مصطخب الآذى، يسير سيرته متدفعاً زاخراً، لا يعي ما يقولون، ولا يأبه لما يفعلون!

عرفت أنا هنا إنساناً غرق، وتمثل لي عجز الإنسان، وانقطاع حيلته في هذه الخليقة العظيمة! التهم النيل الرجاء، وطواه في جوفه، ومر في عظمته وجبروته، كدأبه في الحقب المطاولة، منذ انبثق من عالم الغيب في فجر التاريخ، وكم نفس طواها صدره الواسع! وكم أمم تراءت صورها في صفحاته، ثم كانت كالخيال في المرأة، لا بقاء ولا خلود! والناس على كثرة زحامهم وزياطهم دهشون، لا يدركون ماذَا يفعلون! كذلك عظمة هذا العالم، وكذلك عجز هذا الإنسان الكبير!

---

<sup>١</sup> ربیع الأول سنة ١٣٤٢.

دنوت من الجمع المحتشد، فقلت لأحدهم: ما خطبكم؟ قال: فلان بن فلان غرق. فتركته قائلاً في نفسي: وماذا عسى أن يقع في السماء والأرض إن غرق فلان بن فلان؟ إن الناس والحيوان والأشجار والأنهار خلائق متصادمة في هذا العالم، يُهلك أقواها أضعفها، ولا تبالي الخليقة إذا اصطدم إنسان وحجر، أيهما الكاسر وأيهما المكسور! وهذا رجل سقط في الماء فرسب.

ابعدت من الناس مفكراً، فكأني أسمع في هذا الاضطراب وهذا الصخب ثلاثة أصوات تدوي في أذني: صوت الإنسان الضعيف يقول: وأسفاه! ورحمته! غرق فلان بن فلان، فيا حسرتاه على فلان وأهل فلان!

وصوت القضاء الرهيب يصبح: أصاب إنساناً ما قدر له.

وصوت الطبيعة القاسية يقول في غير اكتئاث: جسم ثقيل سقط على الماء فرسب ...!

## مدرسة الصحراء<sup>١</sup>

قرية ذات نخيل قامت في الصحراء كالأمن بين الخوف، والأمل بين اليأس، والحياة بين الموت، تهوي إليها أفئدة سالكي الصحاري، فيجدون من الظلال والمياه ما يمسح عنهم الجهد والنصب، ويطفئ فيهم العطش والصدى.

من هذه القرية المباركة؟ من القوم قد اجتمعوا فيها على أمر جلل، وأمل بعيد، وغاية سقيقة، قد اعززوا اقتحام الصعب، ومجادلة الأهوال، وتحذثوا بقلب العالم رأساً على عقب؟

من هؤلاء التلاميذ الذين أنبتتهم الصحراء، وأخلصهم ماؤها وھواها، وشمسمها وهجيرها، وبردها وزمهريرها، فكأنوا كروضة الحزن سقاها الحيا، وأنضرتها الشمس والريح، في قنة لا عهد للأنيس بها؟ من هؤلاء العرب قد جلسوا في أسمالهم، وأصغوا إلى معلمهم، يأخذون الحكم، فتمكن من سرائرهم، فإذا هي خلق وسجية، وإذا هي الأمل والعمل، وإذا هي سعادة الأولى والآخرة؟

وعجباً لقوم ضعاف فقراء يتهدئون لما لا قبل لهم به! يريدون أن يكونوا أساتذة العالم وسادته؟ ولو لا كرم في نفوسهم، وحكمة في أفعالهم لقلنا: بهم الطيش والغرور. إن الإنسان ليقف في أمرهم بين الإعجاب والسخرية! دعهم في قريتهم، وتتنظرُ الحوادث تأخذ مجاريها، ثم انظر إليهم بعد أعوام تر التلاميذ الضعاف قد أخذوا كتابهم وسيوفهم، واستولوا على صهوات خيولهم، وتطاولوا إلى هداية العالم كله، وحكم الناس

<sup>١</sup> ربیع الأول سنة ١٣٤٣.

أجمعين! دعهم في آمالهم البعيدة، وأمانיהם العظيمة، ثم أبصراهم بعد سنوات قليلة وقد خفقت أعلامهم في مشرق الشمس ومغاربها، ودان لهم كل طيّع وعصي، وإذا العالم ملؤه الإعجاب والخوف والمحبة والفرز، وإذا هم شرر قد انبثت فأصاب الفطر الصالحة، فكان نوراً، وأصاب النفوس العليلة، والأخلاق السقيمة، فكان في هشيمها ناراً! ثم انظر إليهم فإذا بهم على العرش قد ورثوا ملك الأرض، وأحسنوا السياسة، وقادوا الناس بالحسنى، ثم دفعوهم إلى الخير، وهدوهم إلى الإحسان! وإذا صفة من الإحسان ليس للناس بها عهد من قبل، وإذا كتاب في تاريخ المدنية لم تقو على فصوله من قبلهم أمم الأرض قاطبة.

أينبني كيف وسعت القرية الصغيرة أرجاء الأرض؟! وكيف عمر العدد القليل نواحي العالم؟ وكيف بلغ هؤلاء الضعفاء آمالهم؟ وكيف كان التلاميذ الفقراء، كما أرادوا، أساتذة العالم؟!

فكر جهلك، فلن تجد أسلطيل ولا جحافل، ولا طيارات ولا غواصات، ولا معامل ولا مصانع، ولا كتبًا وأسفارًا يضيق بها العد، ولا أنت واحد شيئاً مما يبهر من جبروت الحضارة وزخرفها!

ما الذي خلق من القلة كثرة، ومن الضعف قوة، ومن الذل عزّاً، ومن الموت حياة، وأخرج من الصحراء شرذمة كانت أعظم مَثَلٍ في العظمة والعدل والإحسان والعلم والحضارة؟!

فتُشن ما استطعت، وفكّر ما قدرت، وقلّب حوادث التاريخ كما تشاء، فلن تجد إلا شيئاً واحداً، وأمراً فذاً، لن تجد إلا سرّاً إليه مرجع كل ما عرفت، وعماداً استقل بكل ما وصفت: الإيمان المتين، والخلق الصالح. إن في ذلك لعبرة.

## على شاطئ النيل<sup>١</sup>

في ليلة من ليالي الصيف المقرمة، في قريتنا على ضفة النيل الشرقية، خرجت إلى الشاطئ وانتبذت مكاناً في زورق منعزل، وكنت أرى في الغرب أهرام دهشور وبعض القرى والخيل، مناظر بين الظهور والخفاء يتنازعها ظلام الليل وضوء القمر كأنما تراءى في لوحة مصورة، والقمر ساطع في المشرق، يرسل أشعنته الهادئة كأنها رشاش من ينبوع صافٍ، ينضح الخليقة، يطفئ عنها وهج الشمس، ويمسح عنها آثار التعب والكد والعراك، أو كأنها يد رفيقة تمسح على رأس طفل محزون، والنيل متربعٌ زاخراً، يسرع الجري في وقار، فلا تسمع في تداعع مياهه إلا وسوسنة الأمواج، وحفيتها بالشاطئ، وهمتها في جانب الزورق.

سكنت إلى نفسي، وشعرت لذة الخلوة، ولم يكن يشغلني إلا خوف أن يحضرني إنسان يتودد بالأحاديث، وألقيت على النيل نظرة لم تسترد، والنيل كفكر الفيلسوف المطمئن، صفحة واسعة مضيئة، عميقه هادئة، ترسل في النفس سلاماً وأنسَاً واطمئناناً وسكوناً ورهبة.

<sup>١</sup> جمادى الأولى سنة ١٣٤١ هـ.

ثم تهب ريح تجعد صفة النهر، وتغضن أساريره، فكأن كل شيء قد تغير؛ ثارت ثائرة النهر، كما تضطرب أفكار المفكر الهاي بشبهة عاتية تزلزل نواحيه، وتهيج مستقر سرائره، كذلك جاشت نفسي، وهاج فؤادي:

أيها النيل المنحدر من مجاهل الأرض، كأنك آتٍ من وراء الغيب، والمتدفع من مجاهل الزمن، كأنك منحدر من الأزل! أيها النيل المصطخب بدفعاك وأذينك، الرائع في هديرك! أيها النيل المنصب في البحار الواسعة العميقية التي لا يعلم قرارها، هل أنت إلا سبب إلهي تسيل من المجاهل إلى المجاهل، كما يبزغ النجم في الأفق ويغيب في الأفق؟ ما مبدئك وما منتهاك؟ نعرف أنك من البحر وإلى البحر.

وكذلك حياتنا، أيها النيل، نرى مجرها المائج الجائش، الصاحب المضطرب، المزيد الطامي، وكأن الناس فواقعه التي لا قرار لها، أين منبع هذا المجرى وأين مصبه؟ ما مبدئه وما منتهاه؟ منبعه الأرحام التي تتدفق الأجنحة في هذا العباب، وأما مصبه فتلك الحفر السحيقة الملوثة الساكنة التي تزداد العالم في الحق المتطاولة وتقول: هل من مزيد؟ هذه المهاوي التي لا يعلم قرارها، ولا يُدرى إلى أية غاية منتهاها، أجل، إنها البحر الأبدى المجهول. وما هذه الصفائح والرخام والحصى والمدر إلا أمواجه وزبده، ورشاشه المتطاير، ولكنها أمواج الساكنة الجامدة؛ لأنها أمواج الموت؛ ولأنه بحر الفناء. هذه منبعه وهذا مصبه، ولكن ما المبدأ وما المنتهى؟ لا ندري، ولكننا نعرف أننا من البحر وإلى البحر!

تدفق أيها النيل من الغيب إلى الغيب. أيها النيل، كم مرة طلعت الشمس عليك! وكم مرة تلألاً في صفحتك القمر! وكم مرة تراءت في لجلك هذه الكواكب المطلة عليك كأنها تطالع صورتها فيك، وكأنها تتاجيك بالأسرار الغامضة، والحوادث الخافية، والواقع التي طويت في غيابات الزمن، والأمم التي سَفت عليها أعاصر القرون!

يا نيل، كم أمة عمرت شاطئيك، وجمعت بالجسور عبريك، ومלאت صفحتك بالسفائن، ثم زال بها نهر الحياة السريع، فلا جلبة ولا عراك، ولا جرس ولا ركن، ولا تكبر ولا فخر، وليس إلا بقية آثار تشبه الجزر والصخور المعرضة في مجرى النهر استعصت على التيار، ولا بد أن يجرفها يوماً. وإن أكبر هذه

الأمم حظاً من الخلود تلك التي بقيت آثارها كصفائح القبور تدل على ما وراءها من الفناء، تلك التي يقرأ تاريخها في أحجار المقابر. أيها النيل، وإنك لأهداً سيراً وأرفق يدًا من نهر الحياة، بل نهر الموت الذي لا يبقي ولا يذر! إنك تجور على القرى أحياناً، وتحيف الشاطئين أحياناً، ولكنه لا يدع قرية ولا شاطئاً، ولا علامة على القرية والشاطئ. إن لك لعرين وقراراً، فأين عبرا نهر النيل، وأين قراره؟ وماذا في لجانه؟ إنه القضاء الرهيب يتدقق من الأزل إلى الأبد، وكأنه يجري وراء العيون والأسماع، والعقول والأفكار، وإنما نبصر من فواقعه ورشاشه، ونسمع عن اصطخابه وضوضائه، لا بل نرى لجهة وأمواجه، ونسير في تياره وعبابه، وليس لنا علم بما وراء ذلك.

أيها النيل، تدفق تدفق من الغيب إلى الغيب، كما شاء ربك، فكذلك نحن في هذه الحياة: سائرون مع النهر، مستسلمون للتيار، جهدنا أن ننشر الشراب، ونحرك المجداف، كما شاء ربنا، وليس لنا من الأمر شيء.



# ملك وفيلسوف<sup>١</sup>

نشأ إسكندر بن فيليب ملك مقدونيا قويًا شجاعًا عظيم النفس، بعيد الهمة، وتبوأ العرش في سن العشرين، فأرهق الجناد بأسه، وتصرفت بالجحافل همته، فلم يعجزه مطلب، ولا بعدت عليه غاية، وما ظنك بملك شاب عظيم طموح، كبير الهمة، يواتيه جند باسل، وجحافل جرارة؟

سار إسكندر فسقطت الممالك لبأسه، وخرت العروش لصولته، فإذا إسكندر ملك ما بين مقدونيا ولبيبا والهند، وإذا إسكندر وارث اليونان والفرس وبابل وأشور ومصر. أيها الملك الشاب، لقد بلغت ما لا يبلغه ملك على الأرض، لقد أتيحت لك السعادة غير منقوصة، وألقت إليك الأماني مقاليدها.

سار إسكندر الكبير يومًا فقيل له: أيها الملك العظيم، إن هذه الخشبة التي نرى من بعيد مسكن ديوجين الفيلسوف، يحملها على ظهره حيثما سار، ويأوي إليها. ديوجين الذي هجر تكاليف الحياة وضوضاء البشر، وقنع بالهواء والماء في الفلوات، يعيش مع الطير والوحش، ويقتات بما يقيم أوده مما تخرج الأرض.

أراد إسكندر تلميذ أرسسطو أن يتواضع لل فلاسفه، وأن يؤثر عنه أنه مشى في عزته وجلبرته إلى ديوجين المسكين. أراد إسكندر أن يؤاسي الفيلسوف. مشى الملك العظيم حتى وقف على ديوجين الفقير.

ليت شعري ماذا يهم ديوجين من الملوك والدول؟ وماذا يعنيه من إسكندر وجيوشه؟  
إن ديوجين الذي تنفذ نظراته إلى بواطن الأشياء كالأشعة لم ير في إسكندر وجنه إلا  
ظلاماً تمتد تحت الشمس وتنقبض، إلا صوراً ترسمها ليقنة الشمس، ويختفيها ظلام  
الليل، إلا أخيلة تراءى ثم تغيب في تضاعيف الزمان.

رفع ديوجين رأسه إلى الإسكندر فلم ير إلا ظلاً سقط عليه، فحرمه ضوء الشمس،  
حرمه متعاماً منحه الله الناس جميعاً، ولم يجعل للملوك سلطاناً عليه.

فلما قال إسكندر العظيم: ما حاجتك يا ديوجين؟  
قال ديوجين الذي لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء: حاجتي أن تذهب فلا تحجب عنِي  
ضوء الشمس!

## النَّهْضَةُ<sup>١</sup>

نهضة الأمة: انتباها من غفلتها، وانتعاشها من كبوتها؛ للتفكير في حالها، والنظر إلى مآلها، ونقد سيرتها، والبحث عن عيوبها، وتعريف نقيائصها، وقياس ما بينها وبين الكمال؛ لتجه نحو الغاية المرجوة، وتعد الوسائل المؤدية إليها.

وهي طور من الأطوار التي تنتاب الأمم في سيرها مع قوانين الاجتماع، وخصوصيتها للسنن الإلهية، لا ترى أمة تستمر بها الغفلة، ولا أمة تمتد بها اليقظة على مدى الأيام: حياة وموت، وشباب وهرم، وارتقاء واستفال، وصعود وانحدار، ولكن الأسباب تعجل بنهضة أمة أو تعوقها، وتواتيها أو تعاندها.

وللنَّهْضَةِ أسباب داخلية وأخرى خارجية تتعاون على إنتاجها، ويكمِّل بعضها بعضاً، وقد تكون إحداها أَبْيَنَ أثراً، وأوضَحَ مظهراً.

فمن الأسباب الداخلية نبوغ المصلحين الذي يريدون بعزمهم تغيير حال الأمة، وسوقها في طريق الكمال. وهذا النبوغ من علامات النَّهْضَةِ ومن أسبابها، فهو أثر لحال جديدة خالطة نفوس الأمة، ومؤثر شديد في هذه النفوس، ومنها نظام الحكم، وأسلوب التعليم، وحال الزراعة والصناعة والتجارة، وهلم جراً، وأوضح ما يكون هياج الأفكار، ونزوع النفوس إلى الإصلاح حين تُبلى الأمة بضلالة السيرة، واحتلال النظام، وتُتمَّنى بمصائب تأخذ عليها طريقها، وتلتفتها إلى ما تعانيه من شقاء، وتشعرها بالألم على كثرة ما تحملته، وبمرارة الظلم على طول ما ألغته، وحينئذ يفكِّر الناس: فَيِمْ هَذَا الْعِيشُ؟ وإلى

---

<sup>١</sup> ذو الحجة سنة ١٣٤٠ هـ / يوليو سنة ١٩٢٢.

أين؟ ولماذا يحملون هذه الأعباء؟ وبأي حق يساسون بهذه السيرة؟ فتبدأ في النفوس سلسلة من الأفكار تنتظم أمور الأمة جمِيعاً، فإن الفكر إذا تنبه لا يقف في طريقه شيء، وحينئذ يكون ميزان الأعمال العقل لا العادة.

وقد تأتي بذور النهوض من الخارج، وذلك باختلاط الأمم ونظر بعضها إلى بعض، فيكون بينها من التقليد والغيرة والتنافس ما يكون بين الأفراد، كما كانت الحرب الميدية بين الفرس واليونان مقدمة لعصر أثينا الذهبي «عصر بركليس»، وكانت الحروب الصليبية من أسباب مدينة أوروبا الحاضرة، وكما كان سيل الأوروبيين على المشارقة في هذا العصر مثيراً لهذه الحركات التي تناولت كل أساليب الحياة في الشرق، بينما تكون الأمة راضية بما عندها، ترى عند غيرها ما يخالف عاداتها وأخلاقها وعلومها وأدابها، فتبتدئ القياس والموازنة، وتشعر العقول تفضل بعض المخلفات على بعض، وذلك يقتضي أن تنظر إلى غاية في الحياة، يكون بها الترجيح والتفضيل، فيكون الرجوع إلى هذه الغاية، لا إلى العادات الموروثة.

ومن علامات النهوض كثرة التفكير، وشدة الخلاف، والدعوة إلى العمل مقرونة بالحجة، وتمحيص البراهين المختلفة.

والحياة البشرية لا بد لها من قوانين ترشد العاملين، وعادات يتتحقق عليها الناس، حتى لا يضطر الإنسان إلى التفكير والترجح كلما هم بعمل صغير أو كبير فيذهب وقته ضياغاً. ومن أجل ذلك كان عصر النهوض الذي يهدم القواعد ولا يبالي بالعادات عصراً ملؤه الحيرة والشك والملل والانقباض. وقد كان القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا عصر هياج وتمرد وقلق، حتى أنتج الثورة الفرنسية الكبرى، وكانت الأمة العثمانية في القرن الأخير مجالاً للنزاع والجدال، حتى كانت ثورة الدستور، ولا تزال الأمة في تقلب؛ ومن أجل ذلك كانت الأفكار المصرية في هذا العصر كثيرة التناقض والتناحر، والنزاع بين القديم والحديث، وهلم جراً.

فإن لم يكن للأمة في هذا الطور قوّاد مرشدون، ومصلحون قادرون، كان من وراء هذا الاضطراب شر مستطير. والنهضة إن لم يهدها الحزم، ويهدبها الفكر، فقد يربو شرها على خيراها. لا بد لكل نهضة من فكر يثبت خطاهما حين تهيج العواطف، ويبين للأمة قصد السبيل حين تركب العزائم الجامحة كل مركب خشن، وتتنزع بالنفوس الثائرة هموم لا تبالي بالعواقب، وحين يغلو الناس في الخروج على العادات، والنفور من النظم حين يرونها قيداً لإرادتهم، ويفكرون فيما أنتجه من سيئات، فيندفع واحدهم كالحسان الأرن عالج رباطه حتى قطعه، فذهب في الأرض طلق الجموح.

لا بد إذن من أن تُثْبِتَنَّ الغاية، ويُبَصِّرَ النَّاسُ بما ينفعهم وما يضرهم، حتى يخففوا من غلوائهم، فإذا دعاهم الإعجاب بالجديد إلى أن يأخذوا عن غيرهم كل شيء، وإذا أرادوا الخروج من عقائدهم وعاداتهم وسائل ميراث أسلافهم كلفاً بالحرية، وجب أن يقال لهم: انظروا ما أنتم في حاجة إليه، وإياكم أن تحقروا آدابكم وقوانينكم؛ فإن لكل أمة نظماً أفتتها البيئة والأخلاق والأحوال الخاصة، وأيدها من الزمان، فأصبحت مثلاً لحياتها، لا تصلح في مكانها نظم أخرى، وكل أمة عادات تحسن عندها ولا تحسن عند غيرها.

لا تحقروا ما أيدته التجارب، وهذه إلى الوجдан، فمعنى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. لا تخلطوا المدنية الصناعية بالمدنية الأخلاقية، فتختذلوا رقي أمة في صناعتها دليلاً على رقي أخلاقها وأدابها، ولا تجعلوا فقركم في الصناعة والوسائل المادية برهاناً على فساد أخلاقكم وآدابكم، فبين الأمرين فرق عظيم. خذوا من المدنية الصناعية ما استطعتم؛ فإنها نتيجة القوانين الطبيعية التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان. أما المدنية الأخلاقية التي تستمد من التربية والتعليم، ومن خواص الشعوب والأجناس، وتاريخ الآباء، وأثار البيئة، فكونوا من أمرها على حذر، وأكثروا فيها النقد والتمحيص، وإياكم أن تأخذوها كما هي، فتكونوا كمن ليس ثواباً لم يُفْصَلْ على جسمه، أو كالغراب الذي حاول مشية القطا.

يقال: إن اليابان التي نافست أوروبا حتى زاحمتها في التجارة والصناعة والعلم، ووقفت أمامها بأسلحتها، لم تزل مستمسكة بأخلاقها وعاداتها اليابانية، تزدرى كل من يهجر عاداته إلى عادات أوروبا. وقد نرى الهند والصين على اعترافهم بفضل أوروبا في علوم الطبيعة لا يسلمون لها بالسبق في الفلسفة والتربية والأخلاق.

لا بد من النقد وتمييز الخبيث من الطيب، وإلا سارت الأمة في طريق محفوف بالصاعب، وكانت سيئاتها أكثر من حسناتها.

فإذا عرفت الغاية واستبانت، فلا بد من النظر في الوسائل، فقد يُشَرِّقُ الإنسان وهو يريد أن يُغَرِّبَ إن لم يستوثق لنفسه. وانظر أمة أرادت تعليم أولادها مثلاً، فأكثرت المدارس العالية، وأهملت المكاتب الأولى، فإنها لا تصل إلى ما تريد، وكذلك أمة تقصير جهدها على الشكل، ولا تهتم بتجارتها وصناعتها ونحو ذلك من شروط الحياة الصحيحة.

حتى إذا عرفت الغاية، واختيرت الوسائل، جاء وقت العمل، ولا بد له من الدأب والصبر، حتى ينجح السعي ويحمد الكد، وإن ضاع الزمن بين الإقدام والإحجام، وسارت

كل طائفة مراحل من الطريق ثم وقفت، فتستأنف السير طائفة أخرى تقف حيث وقفت الأولى أو قريباً منها، فإذا جهد كثير ضائع، وسعى غير نافع، وإذا الأمة لا تزال في أول الطريق.

إذا عرفت الأمة الغاية والوسيلة، ثم عملت واستمرت، وصابرته وصبرت، فلن يقوى أحد على أن يصدها في طريقها، أو يعوقها عن غايتها، ومن ذا الذي يعطل القوانين الطبيعية، أو يبطل السنن الاجتماعية؟ بل من يمنع النتيجة إذا تمت المقدرات، ويحول دون الغاية إذا وضح الطريق، وأزيلت العقبات؟ ﴿سُنْنَةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدْ لِسُنْنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

# الإخوان<sup>١</sup>

لدى الشدائد والسراء إخوان؟  
في الله ثبتم في الحق إيمان  
وإن تعرض مسكين لهم لأنوا  
للعقل والعدل والإحسان أركان  
وهم في ضمير الدهر أشجان  
يفوت ظن الردى والموت خزيان  
تنشق عنه من الأهوال أجفان  
من الخطوب له بالناس طغيان  
وما يلين لمر الماء صوان  
فما يذله نيل وحرمان  
عما يكابده في الأرض غفلان

من لي بقوم من الإخلاص طينتهم  
قد حالفوا الحق لا يخشون لائمة  
إذا تنكر جبار لهم خشنوا  
قرت بهم رجفات الدهر واتسقت  
من كل أروع ملء الدهر عزمه  
ترى الهموم به الأهوال معترزاً  
مُرزاً يتلقى الرزء مُنصّلتاً  
فذلك الطود يجري حوله نهر  
يزل عن سفحه الآذى مصطخباً  
فاتت مآرب أهل الذل قمته  
كأنه إذ يناجي ربه فرحاً

ومنها في جماعة غير هؤلاء صغار الهمم ضعاف النفوس:

إن نال مضعه والبطن ملآن  
للقوت، والشمس في الأحوال أفران

لا يعرف الرزء في الآمال واحدهم  
كأنما الفلك الدوار أرجية

<sup>١</sup> من قصيدة طويلة نظمت في عهد الصبا.



## سعيد بن جبير<sup>١</sup>

سيف الحاج مصلت يرعد، وينذر ويتوعد، ويحكم في الرقاب فلا معقب، وقد جلس الحاج مجلس بؤسه، وأدار أفلاك نحسه، وهو من تمرس بالشدائد حتى هانت عليه، وشهد القتل حتى ما يبالي به، ساعة صرح فيها الشر، وكشرت المنية، وحسبك بيطش الحاج الذي يوحى إلى كل قلب رعبه، ويقضى على القريب والبعيد مضجعه.

قدمت إليه أسارى «الجامجم»<sup>٢</sup> وقد أمره الخليفة فيهم أن يقتل من لا يقر على نفسه أنه كفر إذ خرج على الخليفة مع ابن الأشعث.

رأى كل أسير أن في الإقرار فرجاً، وفي التعریض لمن يأبى التتصريح مخرجاً؛ سئل الشعبي فقال: أصلاح الله الأمير! نبا بنا المنزل، وأحزن بنا الجناب، واستحلسنا الخوف، واكتحنا السهر، وخطبتنا فتنة لم نكن فيها بَرَّةً أتقياء، ولا فَجْرَةً أقوياء، وسئل مطرف بن عبد الله فقال: أصلاح الله الأمير، إن من شق العصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين، لجدير بالكفر.

وأنت يا سعيد بن جبير! إن لك في القوم أسوة، ولك في القرآن رخصة. هذا سيف الحاج ونطعه، وذاك جبروته وبطشه. الحاج من لا تأخذه هوادة، ولا ينثني إذا اعترم، فأبقي على نفسك بكلمة؛ كلمة لا تضيرك في دين ولا دنيا. تقدّم فصرّح بالكفر مكرهاً،

<sup>١</sup> في ذي القعدة سنة ١٣٤٠ / يونيو سنة ١٩٢٢.

<sup>٢</sup> وقعة دير الجامجم: كانت بين الحاج عبد الرحمن بن الأشعث الخارج على الخليفة عبد الملك بن مروان.

أو فعرّض؛ فإن في المعارض متسعاً. لا تتردد؛ فإن سيف الحاج لا يمهد، ولا تبطئ؛  
إن الحاج لا يؤامر.

لا، سعيد يأبى، سعيد يصم أن يقول ما يكنته فؤاده: سعيد يربأ بنفسه أن  
تعرض في الحق، سعيد يحقر الحياة، ولا يرعب الموت، سعيد لا تأخذه في الله رهبة.  
ويحك يا سعيد! إنهم ينادونك، فالله في نفسك وأولادك والعلم الذي في صدرك، إن  
الأمر لأهون من أن تُقتل فيه، فالآن فاختر: إما الحياة وإما الموت.

يتقدم سعيد مزدرياً بكل شيء إلا الحق، يمثل سعيد بين يدي الحاج، سئل: أنت  
على نفسك بالكفر؟ فقالها كلمة أكبر من الحاج وأعوانه، وعبد الملك وسلطانه، وأكبر من  
كل جبروت في الأرض، قالها ليشتري الحق ويبيع الحياة. أجاب سعيد ساخراً بالجنود  
والأعوان، والسيف السلطان، قد ملك عليه الحق عقله وقلبه ولسانه.

قال: «ما كفرت بآلة مذ آمنت به».

هو رأس سعيد عن جسده، قذف سعيد برأسه في وجه الجبروت، وقدّمه ثمناً  
للعقيدة والإباء.

سعيد بن جبير لم يذله مطعم، ولم يملكه خوف، ولا أزرى به ملق، ولا طأطا  
رأسه لجبروت، ولكنه كره الحياة، ورغب في الموت؛ ليقول ما يعتقد بين السيف والنطع.  
فاعتبروا يا أولي الأ بصار.

رِفَائِل

البارحة بعد نصف الليل أتممتُ قصة رفائيل قراءة، وكنت بدأت قراءتها منذ زمن بعيد، فتطاول الأمد، وتتناقلت النفس تناقل الغم على قلبِي جوليَا ورفائيل.

ما حسبتْ قط أن الحزن الذي شربته جرعات، وأشربه قلبِي رشحات، وأحسسته حيناً بعد حين، يبلغ هذا المبلغ. بلى! أذكر أني في إحدى الليالي وقفَت القراءة إشفاقاً على نفسي حينما بلغت برفائيل وجوليَا حديقة «منسو» وحملَ هنالك الوداع. أذكر أني حينئذ وضعَت الكتاب على حافة السرير، وألقيت على الوسادة رأساً ينوء بالهموم، فماج بي الليل، وطار الفكر في أرجاء السماوات، وقدف القلب بأحزانه زفرات، ودارت النفس في أعماق من الظلم والفكر ما لها من قرار، ولكنني ما حسبتْ قط أن الحزن آخذ بي إلى الغاية التي بلغها البارحة.

أذكر أن في هذه القصة مواقف موجعة، ومشاهد مروعة، أذكر جوليما ورفائيل وهما في نفسيهما مأساتان أحكم الله تأليفهمما، وبعث بهما إلى الأرض في صفحات الحادثات، أو في صفحات «لامرتين» لتقرأ على مَرِّ الأيام، وأنذركم البحيرة؛ بحيرة «برجيه»، يوم كان اللقاء بين حبيبين لا يعرف أحدهما الآخر، فكأنهما التقى على موعد بعد أن برَّح بهما الشوق، وأمضهما الانتظار، ويوم حان فراق «إكس»، ورحلت جوليما إلى باريس، فتبعها

<sup>١</sup> كتبت في لندن يوم الجمعة ١٢ صفر سنة ١٤٤٤ هـ / ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٦، بعد قراءة قصة رفائيل التي ألفها لامرتين الشاعر الفرنسي، وترجمتها الأستاذ أحمد حسن الزيات.

رفائيل يرقبها عن كثب وهي لا تدرى، وينجدها كلما عرض لها ما تكره، حتى أبلغها دارها ثم رجع.

وأذكُر تلقيهما في باريس يجتمعان على هوئي عذري، وفرح هو أشد ضروب العذاب، في ملتقي حبيبين هو أشبه بمأتم تهياً فيه للقضاء الذي ليس منه مفر، ويوم يبيع رفائيل لؤلؤة أمه وهو يبلها بدمعه ليستطيع الإقامة على مقربة من جوليا، ويوم ذهب إلى أمه فأخبرها أن الطبيب أشار عليه بالمسير إلى «سافو»، فلا تجد أمه بَدًا من أن تقسو على أعز صديق، وأنفس ذخيرة، وأجمل ذكرى: الشجرات اللاتي يظلان الدار، واللاتي حنون على هذه الأسرة دهرًا طويلاً، فكان في ظلالهن مسارح اللهو، ومدارج الصبا لرفائيل وأمه وأبيه. فانظر كيف تضطرها الأقدار أن تسلط الفأس على هذه الأشجار! كل أولئك أذكري، وإنها لذكرى ممضة، ولكن ما حسبت قط أن يبلغ الحزن بي هذا المدى.

البارحة بعد نصف الليل أخذت الكتاب أقرأ الوريقات القليلة الباقية، ونفسى تضطرب فزغًا مما سيلقاها في ثنايا هذه الصفحات التي بدت كأنها صحف الغيب تنفتح عن المقادير واحدًا بعد آخر.

حتى إذا بلغ رفائيل الكوخ الذي حمل إليه جوليا، فلم ير إلا ظلامًا، ولم يسمع بين الظلام نسمة حي، فدار يقبل الجدار والجدار، حتى بلغ المكان الذي رکع فيه بين يدي جوليا وهي في غشيتها يوم البحيرة، ثم يتحامل إلى جدول يأكل على حافته ما يمسك ذماءه، على ذكري قاتلة، وحرقة يعيها بها الوصف.

قرأت حتى جاء الملاح إلى رفائيل بر رسالة من صديقه لويس يبلغه رسائل جوليا، فعاد رفائيل إلى حجرته يسير إلى مهلكه على شuang ذاً من أشعة الشمس الغاربة. يفض رفائيل الغلاف عن رسالة لويس، ثم عن رسائل باريس، فإذا كتاب معلم بالسواد، وإذا خط «ألن» لا خط جوليا، يقرأ سطورًا سوداء تتعذر إليه جوليا، وينظر بصره الزائف، فإذا خط جوليا نفسها — أجل خط جوليا نفسها — ولكنها كلمة أرادت قلمها عليها وهي في غمرات الموت؛ لتعزي رفائيل عن نفسها فله ما أفعلاها تعزية!

تركَت رفائيل يخر مغشياً عليه، وخررت على فراشي فبكى ثم بكى، ثم لج بي البكاء.

حاولت سدى أن أُسْكِنْ جاشي، أو أكفكف دمعي. ما تعمدت البكاء ولا رجوتة، ولا خلت أن أنتهي إليه، ولكنه كان وحيًا من الحزن والدموع لا أعرف من أين هبط، بل ثورة من هموم راكدة، وأحزان كامنة. كانت قصة رفائيل لها كقدحة الزند، أو كضربة مسحة على نبع يدافع الثرى لينفجر.

كذلك انتهت بي قصة رفائيل، وكذلك أبكي لامرتين بعد مائة سنة، رجلاً مجهولاً،  
يشبه لامرتين؛ طبعاً مكتثباً، وقلباً منقبضًا، ونفساً ملتهبة.  
كذلك فعلت بي قصة رفائيل، فلما أفقت لم أدر أؤساء إلى لامرتين أم أحسن؟ ولم  
أدر أآحمدُ صديقي الزيات أم الحاه؟!



# الربيع<sup>١</sup>

دار الفلك دورته، وعاد سيرته، فسرت في أعصاب الأرض هزة الحياة، وتفجرت عروقها  
بالمياه، وسالت قمم الجبال جداول وأنهاراً، واشتعلت الأرض أزهاراً وأشجاراً.

تبَرَّجَتْ بَعْدَ حِيَاءِ وَخَفْرٍ      تَشْتَتَى عَلَى اللَّهِ بِلَاءَ الْمَطَرِ

قد صرَّحت الأرض بمكونها، وأبانَت الحياة عن ضميرها، فنبَّت معايِّنُ الحياة  
والجمال في ألفاظ من الأوراق والنوار.

بَاحَ الرَّبِيعُ بِأَسْرَارِ الْبَسَاتِينِ      وَعَطَّرَ النَّفْسَ أَنْفَاسَ الْرِّيَاحِينِ

ونفخت أنفاس الربيع الحرّى الحياة في كل ذرة، فأخرجت قواها أعشاباً وأزهاراً،  
فرقتها ألوان، وألفتها معان.

لَمْ يَبْقَ لِلأَرْضِ مِنْ سَرِّ تَكَامِهِ  
إِلَّا وَقَدْ أَظْهَرَتْهُ بَعْدَ إِخْفَاءِ  
حَمْرًا وَصَفْرًا وَكُلِّ نَبْتِ غَبْرَاءِ  
أَبْدَتْ طَرَائِفَ شَتِّي مِنْ زَوَاهِرِهَا

<sup>١</sup> ذو الحجة سنة ١٢٥٣ / مارس سنة ١٩٣٥.

أي مسرح للفكر، وأي مجال للخيال، وأي مراد للطرف!

دُنْيَا مَعَاش لِلورى حَتَّى إِذَا جَاء الرَّبِيع فَإِنَّمَا هِيَ مَنْظَرٌ

والطير مغردات كأن أصواتها ذوب هذه الألوان، وكأن ألوان الروض جمد هذه الألحان. يهتز الطائر الغريد، على الغصن الأملود، فيقرأ ما تحته من صفحات الجمال، فكأنما الطير إبر الحاكيات، تنطق بما تضمنت الصفحات من نغمات،<sup>٢</sup> والعصفور مرح تتداله الأغصان، وتهاداه الأنفان، تارة في انتزاع بين الأرض والسماء، وتارة تغيبه الحقيقة، كأنه في هذا الجمال فكرة دقيقة، صغير تملأ الهواء نغماته، ضئيل تشغل الجو حفقاته.

والفراش قلق بين النوار، هائم بين الأزهار، لا يقر له قرار، كأن كل فراشة زهرة طائرة، أو قبلة بين الأزهار حائرة، أو نغمة في جمال الروض سائرة! والشعراء ينافسون الطير على الأيك طرباً وتغريداً، وفي المرج تسبحاً وتحميداً، تنبجس في جوانبهم ينابيع البيان، وتتفتح سرائرهم على أزهار الشعر؛ ففي كل قلب ربيع، ومن كل قصيدة روضة، وفي كل معنى زهرة، وعلى كل قافية نضرة. هكذا تفيض الحياة على الجمال والنبات والحيوان، وينتظم الجمال الخلقة والإنسان، كأنما العالم كله فكرة واحدة، أو قصيدة خالدة.

ذلكم الربيع الذي فتن الناس، فافتُنوا في وصفه والإدانة عن محاسنه، والإشادة بذكره، والاحتفال بمقدمه، فاتخذته الأمم على اختلاف المذاهب عيداً، ومجدّته بشتى الوسائل تمجيداً، وأولع به الشعراء في كل قبيل، ولم يخلُ من المفتونين به جيل. والناس في مصر ربيع دائم، من أرضهم وسمائهم، وزرعهم ونيلهم، فهم لا يحسُّون مقدم الربيع إلا قليلاً. ولو أنهم عرفوا كلب الشتاء، وانجماد الهواء، وقشريرة الأرض وقوسة السماء، ورأوا كيف تموت الطبيعة في زمن، وتلتقي الثلج في كفن.

<sup>٢</sup> الحاكيات: جمع حاكية وهي الفوتوغراف، والصفحات: هي الألواح التي فيها الأصوات.

وقد غاب في الثلج الربيع وحسنه     كما اكتن في بيض فراخ الطواوس

ثم شهدوا كيف يأتي الربيع، فيكهرب كل ذرة، ويفيض كل عين ثرة، ويخلق كل نصرة — لاحتفوا بالربيع، وعرفوه يقطة بعد هجود، واشتعلًا بعد خمود، ورأوا فيه النشور بعد الموت، والإدراك بعد الفوت.

على أن للربيع في مصر دقائق يُسرّ لها الإنسان، وشياطين يدركها الشعراء في كل زمان.

جاء الربيع فليت في كل قلب من صفاته قطرة، وفي كل نفس من جماله زهرة، وفي كل خلق من عبيره نفحة؛ لتعمر النفوس بمعاني الحياة، وتستنير بأشعة الجمال، ويسكن الناس إلى السعادة حيناً، وينسوا أساليب العداوة والبغضاء زمناً. وليت الناس جروا مع الحياة طلقها، ولم يفسدوا على الطبيعة خلقها، فأنبت الربيع في كل قسوة رحمة، وفي كل يأس أملاً، وفي كل حزن سروراً، وفي كل ظلام نوراً. ليتهم اجتمعوا على ورد الحياة متصافين، كما ترفُّ على جداول الرياحين.



رثاء ضرس<sup>١</sup>

رغم أنفي فراق خلّ قدِيم  
وبقلبي ذكرى الوفيّ الكريـم  
وعرك الصّلاب غير ملـيم  
م وأنـحـى عـلـيـكـ بـالـتـحـطـيم  
كلـ حـدـاً وآضـ جـ سـقـيـمـ  
أـيـ تـاجـ يـرـى لـعـظـمـ رـمـيمـ؟  
سـ وـخـلـاـهـ تـاجـ مـلـكـ قـدـيمـ  
قد تركت الميدان غير ذمـيمـ  
واهـنـ الجـسـمـ ذـي فـؤـادـ سـلـيمـ  
ثـبـتواـ لـلـوـغـىـ بـقـلـبـ كـلـيمـ  
إـنـ هـذـىـ مـصـيـبـةـ فـيـ الصـمـيمـ  
قـىـ سـوـىـ رـبـكـ الـعـلـىـ الـعـظـيمـ

أيتها المدرس ما خلعت اختياراً  
لك في فيّ موضع ليس ينسى  
ذقت في صحبتي من الحلو والمر  
غير أن الزمان ألبسك السقـ  
ما بقاء الشجاع في الصف إمـا  
غاية الجهد أن حبتك تاجـاـ  
لك في الشاه أسوة خلـع الأمـ  
لا سوء فأنت أشرف نفـساـ  
وحملت الأعباء جهد شجاعـ  
لهـف إخوانك الوفـة إذا ما  
لهـف نفـسي وقد فجـعت ببعضـي  
كلـ حـى إلى الفـنـاء ولا يـبـ

<sup>١</sup> خُلُم بَعْد خُلُم أَحْمَد تاجِر شَاه إِيْرَان يَقْلِيل. وَهُوَ أَوْلَى ضَرَس خَلْعَه.



# الوطن<sup>١</sup>

تربيتك وماؤك، وأرضك وسماؤك، منه نشأت، وإليه إن كنت سعيداً تعود، أول ما أحسست من الحياة، وأبصرت من الضياء، ونشقت من الهواء، وسمعت من الترنيم والغناء، وعرفت من الفرح والبكاء. مرحت طفولتك مع طيره، في زرعه وشجره، ورتع صباك في بره وبحره، وسهله ووعره، وحره وقره، وشمسمه وقمره، فهو روحك وجسمك، وحسك وعقلك، وحقيقةك وخيالك، وذخائرك وأمالك. كدحت يدك في مادته، وسبح فكرك في معناه، واستنزلت الوحي من سمائه، وأطررت الخيال في هواه، ورأيت غير الحياة في أرجائه، بين صباها ومسائها، وضيائها وظلمائها، ورعيت الجمال في جناته النواضر، ونجومه الزواهر، وفي زروعه وأشجاره، وجداوله وأنهاره، واستمدلت من شمسه القوة والعمل، ومن قمره جمال الخيال ونضرة الأمل، وعرفت معاني الحياة في مشارقه، وأدركت أسرار الفناء في مغاربه.

كتاب آبائك المفتوح لك، وصحف أجدادك المنشّرة أمامك، تقرأ فيها عزك وھونك، وأفراحك وشجونك، وأنت فيها سطر مقروء غداً، يراه الخلف رديئاً أو جيداً. حقب أنت إحدى ساعاتها، وسلسلة أنت من حلقاتها. حي أنت فيها و كنت من قبل حياً، وستحيا وإن كنت في رمسك مطويأً، تقول: « فعلنا » وقد فعل آباؤك القدماء، و« سنفعل » وإنما تزيد أن يفعل الآباء، قرآنك المتنو على الدهور، وأدبك تقرؤه الأجيال بين منظوم ومنتور، وموسيقى وضعتك لك أحانها، وأناشيد تخاطبك قوافيها وأوزانها، وتهيب بك أفراحها

<sup>١</sup> كتبت في لندن سنة ١٩٢٧ م.

وأشجانها، ليس بأمانيك تحبه أو تقليله، ولا باختيارك أن تنام عنه أو تسهر فيه، فأنت فيه قد خلقت، ولنصرته قد طبعت، وليس في قدرتك أن تبدأ الخليقة، أو تنقض السليقة. أنت فيه عَلَم وفي سواه نكرة، ووجهك في مغانيه صورة محبوبة، وفي غيره خلقة منكرة، وصوتك في منازله نغمة مألوفة، وفي غير هممة منفرة. وأنت في سواه حرف لم يركب فهو غير مقروء، ولفظ يعثر به اللسان فهو جد مشتوع، وصفر لا على يمين ولا على يسار، لا يدخل في حساب المجد ولا العار، لو لم تكن منبوداً لقلت: رقعت بالية في ثوب أجد، ولو لم تكن خفيّاً لقلت: شعرة بيضاء في ثور أسود.

ألم تر إلى أُساري يهود الأوائل كيف عطلوا مزاهيرهم على نهر بابل،<sup>٢</sup> وخرست ألسنتهم بالغناء وقالوا: «كيف ننسى أناشيد إسرائيل ونحن غرباء!» سوقك التي إن تهجرها فأنت في الحياة بائر، وعُشك الذي إن تفقده فأنت طير حائر، ومعك حيثما ذهبت مجده وفخاره، أو إثمه وعاره، وسيف مجده في يمينك، أو ميسّم خزيه على جبينك، ليس إلا إليه الثواء، وإن ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء.

مصر التي برزت خضراء في صحراء، وجرى نهرها بين جناتها كال مجرة في السماء، وظهرت بين الرمال، كما تلوح في اليأس الأمال، أو كما ينبع الفجر من الظلام، ويرف الزهر على الصخر الأصم، ينبع في مجاهل، وورد بين السباس عذب المناهل. مصر التي طلع فيها فجر التاريخ فأضاء، وكشف بها عن المعارف أول غطاء، وأنشد الدهر على نيلها أنشودة الفخار الأول، وألقى المجد فيها رحله ثم لم يتحول، وانفجر فيها ينبع العلم فعم، فنهلت منه سائر الأمم، وانقدحت منها شرارة المعرفة فكانت ناراً، فعشْتُ إليها الأمم الحيارى.

مصر التي أعجبت في القديم والحديث، وراقت ماضية وحاضرة، ألم تر كيف رسا هرمها على الزمن، وثبتت قواعدها على الفتنة، وبقيت كما كانت مدحشة السر والعلن؟ هرمها طاول الدهر فطاله، وصارعه الزمن فما أماله، صرح رهبةه القرون، وعي ببنيه ريب المنون، فالقبور التي هي سطور الفناء، تقرأ فيها آيات الخلود والبقاء. ترى فيها الحياة جامدة، وتحس فيها اليقظة هاجدة، وتتبين منها شعلة النبوغ وهي هامدة،

---

<sup>٢</sup> إشارة إلى أحد مزمير التوراة، أوله: على نهر بابل جلسنا ثم بكينا على ذكر صهيون.

كتمتها الأرض حيناً ثم لم تستطع صبراً، وضاقت بسرها العظيم صدراً، وابتلتها الزمان  
فلم يستطع لها هضماً، فلفظها رائعة كما كانت قدمًا، فيا لك من موت أدل على الحياة،  
وفناء أشبه بالبقاء، وهمود أقرب إلى الخلود!

مصر التي جرى نيلها بياضاً في ظلمات الأيام، وسطراً تترنم به الأعوام، مرآة للتاريخ  
لها من جنات مصر إطار، وسيف الحق قلب الظلم منه مستطار، كم أنبتت بشاطئيه  
أماماً زاهراً، ومدنًا عاملة، وجنات ناضرة! فقابل السماء بأبهى من نجومها، وأنفذ من  
رجومها، رأت الشمس وجهها فيه فتاة وشمطاء، وشبّت النجوم ترى صورتها في الماء،  
وظهرت المجرة صورة له في السماء. سقى القرون الخواли ولم ينضب، وكتب عبر الأيام  
بمداده فلم ينفد، تدفق كالقدر من الأزل إلى الأبد فياضاً هداراً، معطاءً مكتاراً.

هو يا ابن مصر حياثك وعزك، وقد كتب به مجدك وفخرك.

يا بني مصر الحديثة، لا تكون آثاركم على عربى النيل أرداً خطأً ولا أقبح سطراً،  
فإنما تلكم الحقب الموروثات، والآثار الخالدات، وديعة الأمم الخالية، وميراث القرون  
الآتية؛ فتقدموا للعمل بقلوب ملؤها الإيمان والأمل، وروعوس ملؤها الحكمة والروية، وأيد  
ملؤها النشاط والقوة، واحذروا غضب الله، ولعنة الخلف، وحكم التاريخ.



## بين التصوف والغزل

زهرات ذابلات

فأكتم ما في القلب من حسرات  
ولا بد للمتصور من نفثات  
من الغم والأحزان في غمرات  
وفي كل شيء، مالي نظراتي  
يبرح بي في يقظتي وسباتي  
إليك بملء القلب من خفقات  
بزاد من الأشواق مستعرات

أحاذر في نجواي بث شكاتي  
ويغلبني وجدي فألقاك شاكياً  
لقد علمت أخت الملائكة أنني  
وأن هواها مستبد بمسمعي  
وملة فؤادي والأمانى كلها  
أروم اصطباراً عن لقاك فأنثني  
وألتمس السلوى لديك فأنثني

\* \* \*

كواكب من ذكراك والخطرات  
بذكريك فارتدى إلى الحسنات  
هواك إلى الأفلak في لمحات  
فيسطع فيه النور حين صلاتي

إذا ما دجا بالغم قلبي أضاءه  
 وإن جنحت للشر نفسي هديتها  
 وإن أخلدت يوماً إلى الأرض ردها  
وذكرك قد يجلو عن القلب رينه

\* \* \*

لواقع هم مشعل الزفرات  
بقلبي، ومنها غبطتي وشكاثي  
وظلمة أيامي وضوء حياتي  
فقلبي ليلاً موحش الظلمات

على أنني يعتادني من تذكرى  
هي النار وهي السلام والوغى  
وأمني وخوفي وهي أنسى ووحشتي  
فيما قمراً إن غاب عنى نوره

بها شفق في وقدة الجمرات  
يبارك ربِّي هذه الدورات  
لقطع بحار أو لطفي فلاء!  
على قربنا، في فرقة وشتات

ويَا شمس حسن إن تغب فجوانحي  
ويَا فلگاً للحسن والحب دائِراً  
فلو كان ما بيني وبينك فرقَة  
ولكنه الدهر المُشِّتْ يقيمنا

\* \* \*

تظلل نبعاً ثر في الفلووات  
وأسمع منك الخلد في نغمات  
فلا هو بالماضي ولا هو آت

تمنيت أنا طائران بدودحة  
أصوغ لك الأزمان شعراً وبهجَة  
ويمسِك هذا الدهر عن حركاته

\* \* \*

جلتها يُدُّ الخلاق في قسمات  
فيينبت فيه الشعر أي نبات  
فيينبض منه الشعر قلب صفة  
تسطره يمناك في كلمات  
تردد ما في الوجه من نغمات  
بديعة حسن تنظم الشطرات؟

أناظمة الأشعار أنت قصيدة  
يطالعها قلب من الشعر مجذب  
ويينشدَها من قد في الصخر قبله  
أرى وجهك الوضاء شعراً مصوّراً  
كان يرَاعاً في يمينك إبرة<sup>١</sup>  
يقولون: «شعر شاعر» هل عنوا به

\* \* \*

وإن كنت روضاً، هذه الزهرات  
فلا تعجبِي إن لم تكن نضرات

يحيى بهذا الشعر قلبي فاقبلي  
سقتها دموعي واصطلت حر زُفْرتني

<sup>١</sup> إبرة الحاكية التي تبين عن النقوش التي في الألواح بالكلام.

# يا رب رحماك<sup>١</sup>

سجا الليل، وخففت الأصوات، وأوت الطير إلى أوكرها، ولجأ كل حي إلى مأواه، وانبعثت بالإنسان أوصابه وهمومه، وأفراحه وما ربه، في شتى المذاهب.  
أقلب الطرف بين الأرض والسماء، وأجيّل الفكر في الغابر والحاضر، وأبعث إلى نفسي بالسؤال بعد السؤال، فتجيب كل سؤال بمثله، وتشرح كل معضلة بأفضل منها، فإذا أنا باكٍ على الناس، راث لهم، وإذا لسانني يضطرب بهذه الكلمات:

رحماك يا رب للقير الكادح يقض عليه مضجعه ألم يومه، ووساوس غده،  
وتسلمه هموم النهار إلى المرقد، فإذا هو شقي في مرقه، يثير أشجانه مرأى  
أطفاله في ألوان من الفاقة، يضاحكهم وقلبه باكٍ، ويبيش إليهم وفؤاده شاكٍ.  
رحماك يا رب للأغنياء البخلاء، بين تخمة أمعائهم، وشره أيديهم  
وأنفواههم، وفظاظة قلوبهم، وغفلة نفوسهم، حين يتقبلون في النعيم مترفين  
فكهين، ضاحكين مستهزئين، لا يبالون ما على الأرض من بؤس، وما بين  
الجدران من آلام. رب رحماك لهم فإنهم وجدوا كل شيء وفقدوا أنفسهم.  
رب والعابد الصاف في جوف الليل، هجر الناس ولجأ إليك، ونفر منهم  
وأنس بك، أنزل عليه السكينة والطمأنينة، وأضئ له السبيل إلى جنابك المقدس،  
ومهد له الطريق إلى حرمك الأمين.

---

<sup>١</sup> من قطعة طويلة كتبت في لندرة في ٩ يوليو سنة ١٩٢٥ م. وأحسب أن قصيدة فكتور هيجو المسماة الدعاء للكافة La Priere Pour tous أوجت موضوع هذه القطعة.

رب والعاصون الغارقون في آثامهم، الجائزون في ضلالهم، وكل ذي ذنب طبعت به نفسه، ودنس به قلبه، وعمي به بصره. رب هم أحوج الناس إلى رحمتك، وأولاهم بهدايتك، أننقذهم من ورطاتهم، وننقّهم من أرجاسهم، هم أطفالك العرمة، وعبادك الغافلون، وعيديك الآبقون، وأنت أنت ولِي إرشادهم، والقادر على إسعادهم.

رب والمرضى تبرح بهم الآلام، وتبريهم الأسقام، أدركهم برحمتك الواسعة، وأغثهم برعايتك، إنك أنت الرحيم.

ثم المحزونون على حبيب مفقود، أو قريب مفتقد، تتقطع قلوبهم زفرات، وتذهب أنفسهم حسرات، بين الماضي وذكرياته الفاجعات، والمستقبل وأماله الضائعات.

وكل ذي غم يضطرب في بحر من الآلام والأحلام، وخیالات من الموت والحياة، تذهب زفراتهم مع الرياح، ودموعهم مع الأنهر، وتدور بهم الهموم، فنومهم سهاد، ويقطظتهم رقاد. قد انبهمت عليهم أمرهم بين اليأس والأمل، والظن واليقين، كالغربيق يغشاهم موج من فوقه موج. رب فاھدهم إلى ساحل النجاة، وأطلع عليهم نجمك الهايدي في الظلمات، وأرسل عليهم روحًا من رحمتك، ومد عليهم ظللاً من عنایتك.

رب والشريف الذي تقهرت به الأيام، وكلب عليه الزمان، تدفعه الحاجة، وتمنّعه العزة، وتدعه الفاقة، وتمسكه الأنفة، فهو غني النفس فقير اليد، كلما نسج على نفسه ستراً من التعفف والتجلّم مزقته يد الزمان العاتية، وكلما تجلد أنحى الدهر على تجلده، يثور في قلبه الذل والكبriاء، والعز والهون، فهو بين طموح نفسه وهوى الحادثات به أشقي الأشقياء، معذب اليأس والرجاء. رب والراكبون البحر على غواريه الجائشة، وتبجه الهائل، ولجه الذي يلقى كل عين بهولها، وكل نفس بصورة حتفها، فإذا أظلم اليم طغى الماء، وصرخت فيهم الريح الهوجاء، ففي رحمتك نور الظلماء، وسكينة الماء، وهدوء العاصفة الهوجاء.

وسالك البيداء ضلت به الطريق، وانبهم عليه المذهب، لا يدرى أيقف على قبره، أم يسير إلى قبر أماته؟ فإذا الصحراء كلها قبر واسع، يهرع إلى الشراب من خُدع السراب، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت. انصب له في البيداء منارك، وابعث له من هدايتك دليلك.

رب حتى النبت الذابل، والشجر المصوح، والأرض الماحلة، أُسْبِلَّ عليها  
غيثك، وأنزل إليها الحيا بفضلك.

اللهُم قلوب ملؤها الرجاء، ونفُس تحن إلى الورد وهي ظماء، وأيد مبوسطة  
إليك وهي من الثقة ملاء، وأعين ناظرة إليك وأنت لها ضياء، فلا تردها خائبة،  
ولا تزدها حسرة على حسرة. رب كيف يُحرِّم شجرك الذي غرسْتُ، وزررك  
الذي زرعت، من غيثك المدار، وشمسك الساطعة؟ ومن يصد دنس الخلاق  
أن يرد نهرك فيطهر، ويسبح في حوضك الكوثر؟

يا سامع خفقات القلوب الحزينة، وزفرات الصدور الكليمة، وعالم نزعات  
القلوب الضالة، وجمحات الأهواء المردية، لا تدع قلباً خائفاً إلا آمنته، ولا صدراً  
زافراً إلا روحـت عنه، ولا عقلاً ضالاً إلا هديـته، ولا هوـى زائعاً إلا ردـته حـكمة  
ورشدًا.

اللهُم عجز الفكر، وعي اللسان، ووقف القلم، ولا تزال ساحات الرحمة  
لا يدركها نظر، ولا يحيط بها فكر، ولا يسيطرها يراع، وقد فررنا من خوفك  
إلى رجائـك، ومن عذابـك إلى رحـمتـك، ومن جـبرـوتـك إلى لـطفـك، ومن سـخطـك  
إلى رـضـاك، ومن حـرـمانـك إلى نـيلـك، ومنـك إـلـيـكـ. أـنـتـ الأولـ والـآخـرـ، والـظـاهـرـ  
والـبـاطـنـ، وأـنـتـ بـكـلـ شـيـءـ عـلـيـمـ.



# رب أعتقني

بين العبد الهرم وربه

١

رب جل الشيب رأسي، وقَيَّدَ الكبر خطوي، وفل الضعف يدي، وحنت السنون متنى.  
رب قد حملت الأمانة جهدي، وأديتها على قدر طاقتى، وقد أنى لي أن أستريح  
فأعتقنى.

رب قد زرعت وحصدت، وغرست وجنت، وعمرت الأرض، ومهدت السُّبُل، وقد أنى  
لي أن أستريح، فأعتقنى.

رب وقد ببرت بالفقير، ورحمت الضعيف، وأوَيْتَ اليتيم، وأصلحت بين المتخاصمين،  
وألفت بين المتباغضين، ولم آل في جمع عبادك على المودة والرحمة، أنى لي أن أستريح،  
فأعتقنى.

رب وقد ربَّيت الأولاد والإخوة والأحفاد، ولم آل في التأديب والتهدِّب، فأعتقنى، قد  
أنى لي أن أستريح.

رب والحيوان أطعنته ورحمته، والطير في جو السماء غذوته وسقيته وأوَيْته، مما  
زرعت من الحب، وحفرت من الآبار، وشققت من الأنهر، وغرست من الأشجار. أعتقنى،  
فقد أنى لي أن أستريح.

إلهي حملت العبء غير متبرم، وأديت الأمانة غير متعنِّع، وقلت الحق غير متعلِّم،  
سلكت سبيلك صابرًا، وأوفيت على الغاية مجاهدًا، ووجهني ويداي ناطقات بما فعلت،

شاهدات بما صنعت؛ فارحمني، فقد أتني لي أن أستريح، وأعتنقني، وأعطني براءة عتي،  
كما يكرم السيد عبده الذي هرم في طاعته، أو كما يسيّب الحيوان بعد أن أضناه المسير  
والحمل.

عرفت ما صنعت، ورضيت ما فعلت، وشكrt ما قدمت، وغفوت عما هفوت، وادخرت  
لك أكثر مما رجوت، ولكنني لا أقيلك من تكليفي، ولا أسترد منك أمانتي، ولا أغريك من  
عبوديتي.

- رب لا أستقيل من عبوديتك، ولكن يدي لا تقوى على العمل، ورجلٍ كلت عن  
السعى، بل كل لسانٍ وفكري، فكيف أحمل الأمانة، وأؤدي الواجب؟
- أحب أن أرى يديك ترتعدان في العمل لي، ورجلٍك تدبان في سبيلِي، ولسانك وقلبك  
يخفكان بذكري. لا أكلفك ما لا تطيق، بل أرضي بالقليل وأكثره، وأقبل الصغير وأعظمه.  
أحب أن أراك عاملاً ما عشت لي؛ إن في العمل حياتك ورحمتي.
- رب أستغفرك ولا أستقيلك، ولا أبغى عتقاً من عبوديتك. سأعمل ما خفق قلبي،  
وتردد نفسي (إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ  
وَبِذِلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ). ﴿١﴾

## الحياة<sup>١</sup>

<sup>١</sup> مقدمة قصيدة طويلة في رثاء المرحوم محمد عاطف بركات باشا، كتبت بلندرة سنة ١٩٢٤.

وَى صُوَادُ أَوْمَاهَا فِي ازْدِيَادِ  
يُتَرَاءِي لَنَا بِمَوْجِ جَمَادِ  
مَوْجَهِ الرَّشَاشِ فِي كُلِّ وَادِ  
وَلِذَاكَ السُّكُونِ جَرِي النَّفَادِ  
بَيْنِ هَذِي الْقَبُورِ وَالْمِيلَادِ  
فِي ظَلَامِ إِلَى الْمَدِي قَصَادِ  
وَالْمَنَايَا رَوَائِحَ وَغَوَادِي  
عَصَفَاتِ الْهَلَكَةِ دُونَ اتَّئَادِ  
مَتَوَارٍ عَنْ أَعْيْنِ الرُّصَادِ  
وَطَوْيِ الْمَاءِ صَفَحةً مِنْ جَلَادِ  
وَأَشَارُوا بِعَاجِزَاتِ الْأَيَادِي  
لِيُسَمِّنَ حِيلَةَ سَوْيِ ذَا التَّنَادِي  
صَرَخَاتِ الْجَهَادِ دُونَ افْتِنَادِ  
أَبْدِ الدَّهْرِ فَوْقَ هَذَا الْمَهَادِ  
حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بِلَوْغِ الْمَرَادِ  
تَشْعِلُ الْعَزْمَ فِي الْخَطُوبِ الشَّدَادِ  
هَادِيَاتٍ إِلَى طَرِيقِ السَّدَادِ  
مَهْلُومُوا، وَلَا تَنْتَنُوا فِي اجْتِهَادِ  
مَاخِرَاتٍ بِالْعَبَءِ دُونَ ارْتِدَادِ  
حِيثُ يَبْغِي الْمَسِيرُ رَبُّ الْعِبَادِ  
تَ لَا يَأْتِي لِفَعْلِ الرَّشَادِ  
حَ وَيَلْقَى الرَّدِي جَرِيَّهُ الْفَؤَادِ  
يَقْهَرُ الْلَّجَ فِي رَهِيبِ الْجَهَادِ  
قَبْ يَمْضِي لِقَوْمِهِ خَيْرُ هَادِ  
رَ بِسِيرِ الْحَيَاةِ، ذُو الْإِنْجَادِ

تشرب النهر ذا الغوارب لا تر  
هي بحر الفناء: لج صموم  
ولتلك الأحجار في كل قبر  
ولذاك السكوت صوت رهيب  
هكذا هكذا: نضوب وفيض  
نحن في دنيانا كركب سفين  
يفتح الموج كلّ هول عليهم  
وتظل الرياح تعصف فيهم  
وسوى ذين كل صخر مخوف  
كلما أنجز الهالاك وعيدياً  
جز الركب للغريق وصاحوا  
وتنادوا للرزء: و حسرتاه!  
ثم عادوا إلى المسير وحالـت  
هكذا هكذا: مسـير وهـلـك  
قهـرتـنا الأـهـوالـ والـيـأسـ لـوـلاـ  
فـقلـلـوبـ جـوـامـحـ فـيـ منـاهـاـ  
إـبـرـ المـغـنـطـيـسـ<sup>٢</sup> إـمـاـ ضـالـلـانـاـ  
ثـمـ صـوتـ يـهـيـبـ: لـلـواـجـبـ الـحـتـ  
فـهـوـ رـيحـ تـجـريـ بـكـلـ سـفـينـ  
سـاخـرـاتـ بـهـوـلـهاـ سـائـرـاتـ  
خـيرـنـاـ العـاـمـلـ المـجـدـ عـلـىـ الـعـلـاـ  
ذـاكـ مـنـ يـنـشـرـ الشـرـاعـ عـلـىـ الـرـيـ  
وـيـظـلـ المـجـدـافـ بـيـنـ يـدـيـهـ  
خـيرـنـاـ ذـوـ الـأـنـةـ وـالـنـظـرـ الثـاـ  
خـيرـنـاـ خـيرـنـاـ لـإـخـوـانـهـ السـفـ

٢ أعني أن القلوب تشيه إير المغناطيس في اتجاهها إلى الخير والحق.

## يا ليل

يبتاع الظلام أشعة الشمس المرسلة من وراء الأفق كأنفاس المحتضر، ويغطي الرماد جمرة الشفق، فلا يبقي ولا يذر، ثم أطبق الظلام، ومحت آية الليل آية النهار، والأرض هاجعة تشكو اللغوب، وتتد على الناس الذنوب، والسماء من عالياتها ناظرة، كأنما النجوم عيونها الحائرة.

يا ليل قد استر الناس وتقطعت قيود العادات، فظهرت كل نفس على حقيقتها، وأعلنت بما في ضميرها، وظهرت الإنسانية بخيرها وشرها.

فكم في طيات الظلام لصوص مسخت ذباباً، واتخذت من السلاح مخالب وأنياجاً، تروع الآمن في سربه؛ لتحول بين الكاسب وكسبه؛ كل دم دون مأربهم مطلول، وكل جريمة في سبيلهم هينة! وكم يا ليل من مضطغون يضطرم الحقد في قلبه، ويئز كالمرجل صدره، يخرج به الانتقام في أحشاء الظلام! وكم يا ليل من فاسق دلف إلى مأربه، وأكب على شهوته، وكم أيها الليل وكم قد انتشر جندك الشرير كما ينساب في الغاب وحشه وحشراته!

وكم عابد صف في محاربه، لعينه سكيب، ولقلبه وجيب، وصل قلبه بربه، وعقد لسانه بذكره، قد أنار له الظلام الطريق إلى مولاه، بعد أن هدأت عنه ضوضاء الحياة، وأسمعه السكون صوت الحق، بعد أن فرغ من ضوضاء الخلق، وألوت إليه نفسه في أعماق الظلماء، فإذا جسم في الأرض وقلب في السماء، وإذا هو وربه ثم العالم هباء! يا ليل والمضطجعون في مراقدhem طار بهم الخيال، وسرت بهم الأماني والأمال، فمنهم المتمني خيراً، ومنهم المتمني شراً، ذو الفكرة الشريفة، ذو الرغبة الخسيسة.

يا ليل، حتى النائمون يغمضون أجفانهم عن عالم العمل؛ ليفتحوها في عالم الأمل،  
انبعثت بهم الأحلام الهائمة، والأفكار النائمة، فشهدوا الشقاء والنعيم، والفقر والغنى،  
والنجاح والخيبة. ورب حلم أصدق من العيان، ونوم أقرب إلى حقيقة الإنسان.

يا ليل، أنت الإنسانية خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وأمانيتها وأمالها، وحقائقها  
وخيالها.

أنت يا ليل الإنسانية المجردة، يكسوها النهار ثوبًا من الرياء، وأنت الحقيقة الرائعة،  
يزيفها في النهار الضياء.

يا ليل أنت الحقيقة المظلمة، وما النهار إلا كذب مضيء.

# حلم في يقظة<sup>١</sup>

بين أزهار الربيع الممرع  
نظرة حيرى وقلب لا يعي

ضل يومي في ظلال الشجر  
وعلى الأمواه ضلت فكري

\* \* \*

يتنزعى بين أرض وسماء  
تذهب السبل به حيث تشاء  
نظرات سابحات في الهواء  
أتخطاهم بلحظ مسرع  
قد نفى ضوابطهم عن مسمعى

جالس والفكر ناب طائر  
فإذا سرت فإني حائر  
وإذا بي في وقوف ناظر  
ويمر الناس مرأى بصري  
ويصيرون وهمس الفكر

\* \* \*

تأثير النفس قرير المنظر  
ما جه الهم بريح صرصر  
حطمت فيه سفين الفكر  
مبهم القصد غريب المطعم  
كل شيء همه لم يسع

كنت يومي عالماً لا يفهم  
وكأن القلب بحر خضرم  
زاخر اللجوء عبوس مظلم  
يا له قلباً عظيم الخطر  
تأثير الهم بعيد الوطر

<sup>١</sup> لندرة الأحد ٣ ذو الحجة سنة ١٤٢٦ هـ / ٦ يوليو سنة ١٩٢٤.

\* \* \*

ويدب الشر من أوکاره  
وسعى كل إلى أوطاره  
أطبق القلب على أسراره  
ساهم الوجه مليء الأضلع  
باكي النفس فقييد الأدمع  
خففت من حره زفاته  
هبت الريح طفت لجاته  
اذكى النار به نظراته  
لِمَ يا ذات الجمال الأروع؟  
تستخفين بقلب موجع؟

أقبل الليل وأدجى أفقه  
وطغى اللهو وراجت سوقه  
غير محزون تمادى شوقه  
ونحا للدار جم العبر  
خافق القلب حسير البصر  
شرع الهم بقلبي يسكن  
ويح قلبي! ما أراه يأمن  
ملك منه أثير الشجن  
لِمَ يا وجه الرجاء المسفر؟  
لِمَ يا ذات المحييا الخفر؟

\* \* \*

ونسيم فيه للنار ضرم  
وخزة الشوك وتبريح الألم  
ماج بالقلب سنابه والتطم  
يكرب البحر بمد متزع

أنت سلم ثارت الحرب به  
أنت ورد ناضر في قربه  
أنت نور ساطع من غيبه  
لست بدُعًا فطلوع القمر

\* \* \*

تقدح النار به للمزمع  
ونزعت النفس كي أنجو بها  
زادت النفس على أوصابها؟  
وسهام اللحظ في أقربها  
ترتمي من فزع في فزع  
ويحها عادت بشّر المرجع

لست بدُعًا فنضير الشجر  
حينما مال طريقي للفرق  
لِمَ شيعت بالحظ رقاق  
أجفلت نفسي وجدت في الإباق  
ثم كرت مثل لمح البصر  
واقتفت منك فقييد الآخر

\* \* \*

بنجاة بين طوفان الغير  
بسناها في سحاب مكفره

خلتها طائر نوح بشرت  
خلتها شمس صباح سطعت

شفقاً في القلب منها يستعر  
وأولى الوجه شطر المطلع  
ويقيني فيك أن لن تطلعني  
فإذا شمس غروب خلفت  
كل حين أرجي أن تسفرى  
هي تعليل حياة البشر

\* \* \*

أشرق الجو به ثم خبا  
أنت نجم قد بدا لي غارباً  
سمح الدهر بها ثم أبى  
أمن مسراك وعدب المشرع  
ولي الذكرى وسخ الأدمع  
أنت برق في ظلام دامس  
أنت حلم راق نوم البائس  
بسمة في فم دهر عابس  
لك يا بلبل مهما تَطِرْ  
لك حفظ الله من الأدهر

